الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية

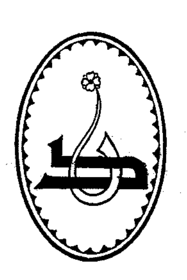
بسّام العسلي

دار النفائس

الأيام الحاسمة
في الحروب الصليبيّة

بسّام العسلي

دار النفائس



الأيام الحاسمة

في الحروب الصليبية

مقدمة الناشر

يقولون : إننا على أمجاد تاريخنا نعيش . ربما . لكننا مع ذلك لم نولِ تاريخنا العسكري ما يستحق من دراسة واهتمام .

كثيرٌ من مثقفينا لم يسمع بـ «بلاط الشهداء» و «ملاز كرد» و «نيقوبوليس» و « الزلاقة » وغيرها ...

في تلك الأيام كتب أجدادنا التاريخ ..

إنها أيام عن الذاكرة يجب ألا تغيب ، من دروسها نستفيد وأمجادها نعيد.. أدركنا ذلك من زمن بعيد .. وعندما سمحت لنا الظروف أصدرنا ، وبحسب الإمكانات ، سلسلة « استراتيجية الفتوحات الإسلامية » و « مشاهير قادة الإسلام ». واليوم نقدم هذا الكتاب الجديد ، يشجعنا في ذلك القارىء العربي، الذي أقدم على مطالعة هذه الكتب بشغف ، رغم جفاف مادتها .

ولا يضيرنا أن نعترف بأننا غير راضين تمام الرضا عن ما نقدم ، رغم فخرنا به . فنحن نعلم أن كل معركة من هذه المعارك تحتاج إلى كتاب كامل ، وإلى إمكانات كبيرة. ويجب أن يزوّد الكتاب بخرائط تفصيلية ملونة لمناطق المعارك، وأن تحمّل الوحدات عليها بدقة قدر الإمكان .. وأن تؤخذ للأرض صور جوية

تضاف إلى الخرائط ، وأن يزور الكاتب أرض المعركة ويطّلع عليها بنفسه ، فيتخيّل كيف دار القتال ، ومن ثمّ يشرح صراع الإرادات الذي تجسّد في صراع الجيوش المتحاربة ..

هذا كله نعرفه، بل ربما نعرف أكثر منه ونعجز عن القيام به، فلا المؤلفون قادرين على تمويل دراسات من هذا النوع ، ولا دور النشر قادرة . وبانتظار القدرة أو القدر ، نفضّل أن لا نترك جلّ ما لا نستطيع إدراكه كله .

أحمد راتب عرموش

التتابع الزمني
للأيام الحاسمة

التتابع	اليوم – أو – المعركة	السنة الهجرية	السنة الميلادية
١	ملازكرد	٤٦٤	١٠٧١
٢	الزلاقة	٤٧٩	١٠٨٦
٣	حطين	٥٨٣	١١٨٧
٤	القدس	٥٨٣	١١٨٧
٥	الأرك	٥٩١	١١٩٥
٦	عين جالوت	٦٥٩	١٢٦٠
٧	يوم في الحمراء (غرناطة)	٧١٩	١٣١٩
٨	نيقوبوليس	٧٩٩	١٣٩٦
٩	حصار فيينا	١٠٨٣	١٦٨٣
١٠	قبرص (الفتح) والحروب الصليبية		



المقدّمــة

« أيام صليبية » تمثل بعض ما هو وثيق الصلة بتاريخ عالمنا قديمه وحديثه.. وفيها بعض العلاقات الثابتة ومثلها من العلاقات المتغيرة المتبدلة، في الصراع فوق الأرض العربية.. ويثير « العنوان » في حد ذاته التساؤل حول اختيار التسمية، ذلك أن العرب – ومؤرخيهم بصورة خاصة – قد حرصوا على تسمية الصليبيين بالفرنج ، تحديداً لهويتهم وتمييزاً لأهدافهم من الحرب . في حين حرص الغربيون على تسميتها بالحروب الصليبية ، تمييزاً لطابعها الايديولوجي (الديني) .

ولقــد درج الكتّاب في الغرب على استخدام اصطلاح الصليبية ، حتى في العصور الحديثـة ، فجاء « ايزنهاور » – على سبيل المثال – ليطلق على كتابه اسم « حرب صليبيـة في اوروبا » ، تمييزاً لطابعها الايديولوجي في الصراع بين « العقيدة الحرة » و « العقيدة الديكتاتورية » . وهكذا بقي المضمون العقائدي هو الذي يحدّد هدف الحرب وهويتها ، حتى لو كان هنـــاك اختلاف في صحة المضمون أو دقته . ومن هنـا ، فلا ضرر ولا ضرار في أن يتم استخدام التسمية الغربية . ثم ، هل تعني الحساسية من استخدام هذه التسمية أكثر من التأكيد على استمرار هذه الحرب بصورتيها العلنية والضمنية ؟...

وبعد ، فإن بضعة « أيام صليبية » قــد أعدت لتسجيلها بهدف المناقشة في الرائي (التلفزيون) ، ثم أكملت إلى العشرة حتى تحقق بعضاً من التوازن في

العرض ، بحيث تعطي صورة شاملة – قدر المستطاع – لبعض الأحداث في المسارح الجغرافية المتباعدة . فكان منها ثلاثة في الأندلس ، وثلاثة في الشام ، وثلاثة في أوروبا والأناضول ، وواحد في البحر (قبرس – أو – قبرص) .

ولا حاجة للقول أن هذه الأيام ليست أكثر من ومضات قصيرة في الحرب طويلة الأمد ، والتي امتدت أكثر من خمسة قرون . فبين معركة ملازكرد (٤٦٤ هـ) وحصار فيينا (١٠٨٣ هـ) فاصل زمني يزيد على ستمائة عام . وهذا مما يجعل من المحال الإحاطة الشاملة بمجموعة الأحداث والوقائع . ولهذا تمت الاستعانة بوضع جداول زمنية تبرز أهم الأحداث لكل معركة من المعارك، مع محاولة ربط « الأيام » بعضها ببعض . وعلى هذا ، فإنه لم يتم تبويب « الأيام » وفقاً لارتباطها الجغرافي بمسرح العمليات ، وإنما وفقاً لتسلسلها أو تعاقبها الزمني (كما هو وارد في الجدول السابق) . ولو تمّ تبويبها أو تصنيفها وفقاً لمسرح عملياتها ، لكان لزاماً ذكرها وفقاً لما يلي : **في الأندلس** : (الزلاقة ، الأرك ، الحمراء) ، **في الشام** : (حطين ، القدس ، عين جالوت) ، **في اوروبا وآسيا** : (ملازكرد ، نيقوبوليس ، حصار فيينا) ، وتأتي قبرص في النهاية كنموذج للصراع في البحر .

ويبقى هدف التعلم من « أستاذ التاريخ » هو رائد كل بحث ، ومبتغى كل باحث . ويزيد من أهمية الدروس المستفادة وجود عوامل ثابتة في الحرب طويلة الأمد ، أبرزها وحدة العامل الجيواستراتيجي ، وأهمية العامل الجغرافي ، والتماثل في « هدف الحرب » ، والتشابه في العلاقات السياسية ، وهي العلاقات التي تتأرجح أحياناً فتميل إلى الثوابت ، وتخضع في أحيان أخرى إلى العوامل الاقتصادية والجيواستراتيجية ، فتميل إلى المتغيرات .

وفي مجال فن الحرب ، تبقى الدروس المستفادة أكثر أهمية ، ذلك لأن أيام الحرب طويلة الأمد قد جرت في إطار الحروب بالأسلحة التقليدية ، فكانت مبادىء الحرب فيها على درجة كافية من الوضوح ، مما يبرز طرائق الحرب

وأساليبها بشكل واضح ، حيث تظهر أهميـــة الاستطلاع والمبادأة والمباغتة والكفاءة في إدارة الحرب والتوازن في المؤخرات والروح المعنوية ، وغيرها من مبادىء الحرب ، وما كان لهذه المبادىء من دور في حسم الصراع لمصلحة أحد الطرفين المتصارعين .

ولقد حدثت في هذه الحرب طويلة الأمد وقائع كثيرة ومعارك مثيرة ، كان النصر والهزيمة فيها يتناوبان على الأطراف المتصارعة،وحفلت المعارك — الظافرة والفاشلة — بدروس كثيرة تحتفظ بكل أهميتها رغم تقادم الزمن .

« **ما من معركة تضيع وتفشل إلا إذا أراد القائد خسارتها** » . ولكن هل هناك قـــائد في الدنيا يخون الأمانة التي أوكلت إليه ، فيفرط في إدارة الحرب ويسلم مصيره لخصمه ؟ من المحتمل حدوث ذلك في عهود « جيوش المرتزقة » ، أما إذا كان الصراع عقائدياً — على نحو ما كانت عليه الحروب الصليبية — فقد تكون فرص الخيانة محدودة وضيقة . ولكن تبرز هنـا قضية أكثر خطورة ، وهي التقصير في إدارة الحرب والتهاون في الإعداد لها،فيكون التقصير والتهاون معادلـَيْن للخيانة . ولعل هذا أبرز ما يمكن تعلمه من « الأيام الصليبية » .

لقد حفلت الحروب الصليبية بدروس كثيرة ، فقد استمرت لمدة قرنين من الزمن ، تخللتها نكسات مرعبة ، وحدثت فيها انتصارات رائعة ، وامتد فيها الصراع المرير . ونظراً لطبيعة الصراع الديني (العقائدي) ، فقـــد برزت « **استراتيجية الهجوم غير المباشر** » في طليعـة الاستراتيجيات التي استخدمها الطرفان المتصارعان ، كلٌ لإقناع الآخر بقصوره وضعفه ، وكانت هـــذه الاستراتيجية عاملاً حاسماً في كسب الحرب أو خسارتها. فقد انتصر صلاح الدين إيماناً منه بحتمية النصر وعملاً منه بالإعداد لهـا . وانتصر المظفر ُقطـُزْ بسبب توافر القناعات لديه بحتمية النصر وبسبب العمل الدقيق له . وضاعت بغـــداد رغم ما توافر لهـا من وسائط القوة ، بنتيجة القناعة بالعجز عن مجابهة المغول .

وسقطت القدس بعد حطين ، نتيجة اقتناع الصليبيين بحتمية انتصار المسلمين .

وبالرغم ممـــا أظهره المقاتلون من الشجاعة في خوض المعارك – الفاشلة والظافرة – فهناك فارق كبير بين القتـــال اليائس والقتـــال لانتزاع النصر . والملاحظ أن القناعة بحتمية النصر أو حتمية الفشل إنمـــا تنطلق من القيادات ، ومن هنا يظهر التركيز على إقناع القيادات بقصورها وعجزها ، ومن هنا أيضاً تكتسب المقولة في المقدمة صحتها ، وهي : « **أنه ما من معركة تضيع وتفشل، إلا إذا أراد القـــائد خسارتها** » . وتنتقل ريح النصر ، أو سموم الهزيمة ، إلى كتلة المقاتلين ، فتفقدها ثقلها وتضعها خارج ميزان القوى . وتبرز من خـــلال النصر والهزيمة قضية « ثمن الحرب » ، حيث يظهر بوضوح أن ثمن الخسارة أكبر بكثير من كل ما يتطلبه الإعداد للحرب من جهد ومال . فللمنتصر الغنـــائم وأكاليل الغار ، وللمهزوم الخاسر دفع الثمن المضاعف أضعافاً ، باقتران الخسارة المادية بالتدمير المعنوي .

وهنـــا ، وفي مجال « استراتيجية الهجوم غير المباشر » وفي إطار « الحرب طويلة المدى » وضمن تقويم « ثمن الحرب » ، يبرز عامل على جـــانب كبير من الأهمية وهو « **البحث عن النصر** » ، وأهميـــة هذا النصر في حل التناقضات القائمة ضمن تكوين مراكز القوى للجيوش المتصارعة . فقد كانت جيوش المغول تضم قوى متنافرة ، فيها من المسلمين عدد غير قليل، وفيها من المسيحيين أعداد أقل ، إلا أنهم كانوا أكثر تحكماً بمراكز قوى المغول . وكانت هناك مراكز قوى مختلفة كثيرة ، وبالرغم من ذلك فقد عملت هذه المراكز بتكامل رائع ، نتيجة للإدارة القوية الحازمة ، ولم تتمكن من تفجير الصراعات الداخلية ، وجاءت الانتصارات المتتالية للمغول لتجتذب إليها القوى المتنافرة وتوحدها ، في حين كانت قوى المسلمين أكثر تجانساً . إلا أن « ضعف الإدارة في السلم والحرب » سمح لاستراتيجية الهجوم غير المباشر أن تأخـــذ كل أبعادها ، فتعمل على تقرير نتيجة الحرب من قبل أن تبدأ المعركة .

وبعــــد، فقد يكون من المحال عرض الدروس المستخلصة كلها ، وسيرافق كل معركة أبرز دروسها ، وعسى أن تحقق هـذه الأبحاث ما هو مرجو منها ، وأن تسهم ، إلى جانب الأبحاث المختلفة الكثيرة المتعلقة بفن الحرب وإدارتها ، في إغناء المعرفة بما هو ضروري من الدروس المتعلقـــة بالحرب طويلة الأمد ، والتي تعيشها أمتنا بكل أبعادها ...

وأسأل الله التوفيق .

بسـام العسـلي



« تعتبر معركة ملازكرد - مانزيكرت - أشد ما وقع في التاريخ البيزنطي من كوارث. ولم يخف البيزنطيون أنفسهم إحساسهم وشعورهم عنها إذ أشار مؤرخوهم مرة بعد مرة إلى ذلك اليوم العصيب ، وتراءى للصليبيين فيما بعد أن البيزنطيين فقدوا على أرض المعركة ما اتخذوه من لقب حماة العالم المسيحي. وبررت ملازكرد ما جرى من تدخل الغرب » .

(تاريخ الحروب الصليبية ١ / ١٠٠)

١

يوم ملازكرد

(٤٦٣ هـ = ١٠٧١ م)

١ - من الفتح إلى ملازكرد .
٢ - الصراع في أرمينيا .
٣ - وقعة ملازكرد .
٤ - نتائج معركة ملازكرد .

معركة ملازكرد : الجمعة ٢٦ آب – اغسطس – ١٠٧١ م = ٤٦٣ ﻫ

(مراكز القوى الرئيسية في المشرق الاسلامي يوم حدثت معركة ملازكرد)

١ – السلاجقة	٤٤٧ – ٥٨٩ ﻫ	(١٠٥٥ – ١١٩٤ م)

« الحمدانيون في حلب ثم بنو مرداس ثم العقيليون حتى قيام الحرب الصليبية »

٢ – الحمدانيون	٣٣٠ – ٣٩٤ ﻫ	(٩٤١ – ١٠٠٣ م)
بنو مرداس	٤١٥ – ٤٨٧ ﻫ	(١٠٢٤ – ١٠٩٤ م)
العقيليون	٤٧٢ – ٤٨٧ ﻫ	(١٠٧٩ – ١٠٩٤ م)
٣ – الفاطميون في مصر	٣٦٢ – ٥٦٧ ﻫ	(٩٧٢ – ١١٧١ م)
٤ – الخليفة العباسي (القائم بأمر الله)	٤٢٣ – ٤٦٧ ﻫ	(١٠٣١ – ١٠٧٥ م)

وجيز الأحداث في معركة ملازكرد – مانزيكرت –

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٣٦٠	٩٧٠	خرج سلجوق مقدم الغز من بادية القيرغيز حيث يصب نهر سيحون في بحيرة خوارزم (آرال) ، ومن ثم انتقل بعشيرته إلى بخارى (وقد دُعي هؤلاء بالتركمان بعد دخولهم الإسلام) .
٤٥١	١٠٩٥	امتدت دولة السلاجقة التي أصبح يحكمها حفيدا سلجوق وهما: طغرل بك وجغري بك داود، حتى شملت خوارزم وخراسان وطبرستان وسجستان ، وعندما توفي جغري بك داود ، تولى ابنه السلطة على المنطقة التي كان يحكمها أبوه وعاصمتها مرو (وكان هذا الابن هو ألب أرسلان) .
٤٥٥	١٠٦٢	توفي السلطان طغرل بك – وكانت عاصمته نيسابور – وتولى ابن أخيه ألب ارسلان ملكه فعمل على توحيد السلاجقة .

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٤٥٦	١٠٦٣	ملكَ ألب ارسلان خلان وهراة وصغانيا وقـــاد الحرب ضد أقاربه الذين تزعمهم « قتلميش » - وهو من السلجوقيـــة — وقصد الري فجعلها عاصمة له ، بعــد أن قهر أبناء عمومته ، ثم قام بغزو الروم .
٤٦٢	١٠٧٠	أقبل ملك الروم « رومانوس ديوجين » من القسطنطينية في عسكر كثيف إلى الشام ونزل مدينة منبج ، ونهبها ، وقتل أهلها، وهزم محمود بن صالح بن مرداس وبني كلاب وابن حسان الطائي ، ومَن معهما من جموع العرب ، ثم ارتحل - ملك الروم - إلى بلاده.
٤٦٣	١٠٧١	**استولى ألب ارسلان على حلب وانتزعها من الفاطميين ، وقـاد معركة ملازكرد ، وانتصر عـلى « رومانوس ديوجـين » وأسَرَه .**
٤٦٤	١٠٧٢	توفي ألب ارسلان عند نهر جيحون ، في كانون الأول — ديسمبر — بعد أن أخرج الفاطميين من بـــلاد الشام ، وتولى حكم السلاجقة ابنه ملك شاه .
٥٠٧	١٠٩٥	**مجمع بياكتنزا في شمال ايطاليا ، ثم مجمع كليرمونت في فرنسا ، يعلنان الحرب الصليبية .**
٥١١	١٠٩٩	**بداية الحرب الصليبية واحتلال القدس.**

« ملازكرد » أو « مانزيكرت » [1] – كما يعرفها الغربيون ومؤرخوهم – موقع في أرمينيا الاولى [2] عند أعالي الفرات ، وبها وقعت المعركة الحاسمة بين القـــائد السلجوقي « ألب ارسلان » وبين القـائد البيزنطي « رومانوس ديوجين » ، وهي المعركة التي انتهت بانتصار المسلمين (التركمان) عـلى البيزنطيين ، مما مهّد لظهور مجموعة من النتائج ، أبرزها :

١ – زيادة نفوذ السلجوقيين الذين لم يلبثوا أن أزالوا أرمينيا واستقروا فيها .

٢ – إبعاد خطر التحالف بين الفاطميين والبيزنطيين، وهو التحالف الذي كان يهدد الخلافة العباسية بقدر ما يهدد سلطة السلجوقيين .

٣ – إضعاف النفوذ البيزنطي في آسيا ، مما حفز دعاة الحروب الصليبية لتوجيه الدعوة إلى الحرب في المشرق .

---

(١) ملازكرد : MANZIKERT .

(٢) كانت أرمينيا تقسم من الشرق نحو الغرب إلى أربعـــة أقاليم تحمل تسلسلا بالأرقـام : « أرمينيا الأولى ، وكانت تضم شمشاط وقاليقـــالا (قليقية) وخلاط وأرحيش وباجنيس . وأرمينيا الثـــانية ، وتضم السفرجان وديبل وسراج طير وبغروند . وأرمينيا الثالثة ، وتضم جرزان . وأرمينيا الرابعة ، وتضم السيسجان وآران . وكانت أرمينيا الأولى والثـــانية تحت حكم الخزر ، وأرمينيا الثالثة والرابعـــة تحت حكم الروم (البيزنطيين) – فتوح البلدان – البلاذري – ١٩٨ .

٤ - إضعاف نفوذ الفاطميين الذين كانوا قد بسطوا نفوذهم على إمارات الشمال حتى حلب وأنطاكية .

وهناك اختلاف بين المؤرخين الغربيين في تقويم نتيجة هذه المعركة ، فمنهم مَن يعتقد أنها كانت السبب المباشر للحروب الصليبية ، في حين يعتقد آخرون غير ذلك . ومهما كان عليه الأمر ، فالقضية التي لا تقبل الجدل هي أن نتائج هذه المعركة قد أثرت، بشكل حاد ، على مسيرة الأحداث التالية لبدء الحروب الصليبية، حيث عمل الصليبيون على إعادة تكوين مملكة أرمينيا التي بقيت أكبر دعامة للصليبيين في حروبهم ، وأقوى أنصار المغول (التتار) الذين دمّروا الخلافة العباسية واستولوا على حلب ودمشق ، إلى أن جاء الظاهر بيبرس فدمّر مملكتهم بصورة نهائية بعد معركة عين جالوت وهزيمة المغول فيها .

١ - من الفتح إلى ملازكرد

عندما أنهى أبو عبيدة بن الجراح فتوح الشام ، سار إلى الجزيرة حتى وصل الجسر المعروف باسم « جسر منبج » . وتوجه عمرو بن مالك من الكوفة حتى وصل قرقيساء ، وتوجه عبر درب الجزيرة إلى بلاد الروم . كما توجه عبدالله بن معتم بقوة من أهل الموصل إلى داخل بلاد الروم ، وأقامت حاميات إسلامية في هذه المناطق المتاخمة لبلاد الروم .

وفي عهد الخليفة عثمان ، تعاظمت استفزازات الروم على ثغور المسلمين، فأمر واليه على الشام « معاوية بن أبي سفيان » بتوجيه مجموعة قتالية بقيادة « حبيب ابن مسلمة » إلى أرمينيا ، للرد على اعتداءات الروم. وانطلق «حبيب» بالمسلمين، وبلغه أن موريان الرومي قد جمع له جيشاً يضم ثمانين ألف مقاتل، في سنة ٢٤ هـ، فكتب إلى معاوية يشرح له الموقف . وقام معاوية بإبلاغ الخليفة بما توافر لديه

من معلومات ، فكتب الخليفة إلى والي الكوفة « الوليد بن عقبة » رسالة ، جاء فيها :

« أما بعد ، فإن معاوية بن أبي سفيان كتب إليّ يخبرني أن الروم قد أجلبت على المسلمين بجموع عظيمة ، وقد رأيت أن يمدّهم إخوانهم من أهل الكوفة . فإذا أتاك كتابي هذا فابعث إليهم رجلاً ممن ترتضي نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه، في ثمانية آلاف ، أو تسعة آلاف ، أو عشرة آلاف ، من المكان الذي يأتيك فيه رسولي .. والسلام » .

قاد سلمان بن ربيعة الباهلي قوات الكوفة على محور اربل – حلفا – البيلقان – برذعة ، حتى وصل باب الأبواب (باكو) على بحر خوارزم . وفي الوقت ذاته ، قاد حبيب بن مسلمة قوات المسلمين ، فسار على امتداد الفرات الأعلى ، وسلك محور جسر منبج – الرها – ملازكرد – قليقية ، حتى وصل دبيل،ومنها توجه شمالاً حتى وصل تفليس،وأصبحت أرمينية خاضعة للمسلمين.

ومع استمرار الصراع ، تحولت شمشاط وملطية وطرندة ومرعش والحدث وزبطرة على الحدود الغربية لأرمينيا إلى ثغور للمسلمين للتوغل إلى ما وراء الدروب . وتحولت أرمينيا إلى ممر للقوات الاسلامية وللقوات البيزنطية، خلال مرحلة الصراع المرير .

وفي تلك الفترة ، كانت تركستان قد اعتنقت الاسلام بفضل السامانيين (الفرس) ، وعندما ضعف هؤلاء أخذ الغزنويون الترك في فرض وجودهم على الخلافة العباسية ، ثم أخذ السلاجقة في شق طريقهم نحو السلطة ، وذلك عندما خرج سلجوق مقدم الغز مع عشيرته من بادية « **القيرغيز** » **إلى جَنْد** ، حيث يصب نهر سيحون في بحيرة خوارزم « آرال » في سنة ٣٦٠ هـ – ٩٧٠ م ، ومن ثم انتقلوا إلى « بخارى » . واعتنق هؤلاء المسلمون من الغزنويين (السلاجقة) مذهب السنة ، والتزموا به بكلّ ما توافر لديهم من قوة وحماسة .

وفي سنة ٤٢٢ هـ – ١٠٣٠ م ، توفي محمود الغزنوي ، فخرج السلاجقة على

طاعة الغزنويين، وشنّ السلاجقة هجمات في اتجاه الغرب وصلت بهم إلى السيطرة على أذربيجان ، وأصبح باستطاعتهم التوغل شمالاً للانتشار في أرمينيا .

وفي سنة ٤٣٢ هـ - ١٠٤٠ م ، انتزع حفيدا سلجوق ، وهما « طغرل بك محمد » و « جغري بك داود » إقليم خراسان من « مسعود بن محمود الغزنوي » ، واتخذ « داود » من مروٌ عاصمة له ، في حين اتخذ « طغرل بك » من نيسابور عاصمة له .

وفي سنة ٤٣٤ هـ - ١٠٤٢ م ، استولى طغرل بك على « خوارزم » ، وتابع جهوده لتوسيع حدوده ، وخاض صراعاً ضد الغزنويين وضد الأتراك المغول (غير المسلمين) .

وفي سنة ٤٤٦ هـ - ١٠٥٣ م ، توجه طغرل بك إلى أذربيجان التي خضعت له دون قتال ، فسار منها إلى أرمينيا وقصد ملازكرد وهي للروم ، فحصرها وضيّق على أهلها ونهب ما جاورها من البلاد وأخربها ، ثم تابع إلى أرزن فأبلى في الروم بلاءً حسناً . وفي طريق عودته دخل بغداد لتقديم الولاء للخليفة . ولما كان البلاط العباسي خاضعاً للعلويين ، فقد حدثت في بغداد فتنة كبرى ، سقط فيها عدد كبير من قتلى الجانبين . وأقام طغرل بك حرساً على بغداد . ولم يلبث الخليفة « القائم بأمر الله » أن تزوج بابنة داود أخي طغرل بك .

وفي سنة ٤٤٩ هـ - ١٠٥٦ م ، قـدِم طغرل بك لتقديم الولاء ، وحمل إلى الخليفة الهدايا الثمينة وقبّل يده ، فما كان من الخليفة إلا أن أقام حفلاً كبيراً للسلطان طغرل بك ، وخاطب فيه طغرل بقوله : « **إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك ، حامد لفعلك ، مستأنس بقربك ، وقد ولاك جميع ما ولاه الله من بلاده ، وردّ عليك مراعاة بلاده ، فاتـّقِ اللهَ فيما ولاك ، واعرف نعمته عليك في ذلك ، واجتهد في نشر العدل ، وكف الظلم وإصلاح الرعية** » . وخاطبه الخليفة أمير المؤمنين بلقب ملك المشرق والمغرب ، وأمر بإفاضة الخلع عليه .

وانصرف طغرل بك بعـد ذلك إلى معالجة دعاة الفاطميين ، فقطع خطبة

المستنصر العلوي الذي كان وزير القائم بأمر الله « البساسيري » من دعاته، فقام هذا بما يشبه الانقلاب . وتدخّل طغرل بك في الوقت المناسب ، وأعاد الخليفة إلى بغداد ، وسار لقتال أنصار العلويين الذين كان يقودهم البساسيري ، فقضى عليهم ، وقتل البساسيري (في منتصف ذي الحجة ٤٥١ هـ - ١٠٥٨ م) . **وخلال هذه الفترة توفي داود وملك ابنه ألب ارسلان خراسان**[١] .

وفي سنة ٤٥٥ هـ - ١٠٦٣ م ، توفي طغرل بك ، فخلفه ابن أخيه « ألب ارسلان » ، وكان عليه أن يقمع ثورة ابن عمه « قتلمش » الذي عارضه في الملك، حتى إذا تمّ له ذلك شرع في توسيع حدود مملكته من جهاتها جميعاً ، وأصبحت له السيطرة الكاملة على الامبراطورية العباسية .

٢ - الصراع في أرمينيا :

كانت أرمينيا مسرح الصراع بين المسلمين والامبراطورية البيزنطية ، ولكن

---

(١) اشتهر السلطان داود والد « ألب ارسلان » بالعدالة وحب الخير ، وقد حفظ التاريخ له رسالته التي بعث بها إلى أخيه « طغرل بك » مع قاضي سرخس « عبد الصمد » ، وجاء فيها : « بلغني إخرابك البلاد التي فتحتها وملكتها وجلا أهلها عنها ، وهذا ما لا خفاء به في مخالفة أمر الله تعالى في عباده وبلاده ، وأنت تعلم ما فيه من سوء السمعة وإيحاش الرعية ، وقد علمت أننا لقينا أعداءنا ونحن في ثلاثين رجلاً وهم في ثلاثمائة فغلبناهم ، وكنا في ثلاثمائة وهم في ثلاثة آلاف فغلبناهم ، وكنا في ثلاثة آلاف وهم في ثلاثين ألفاً فدفعناهم ، وقاتلنا بالأمس شاه ملك وهو في أعداد كثيرة متوافرة ، فقهرناه وأخذنا مملكته بخوارزم وهرب من بين أيدينا إلى خمسمائة فرسخ من موضعه، فظفرنا به وأسرفاه وقتلناه واستولينا على ممالك خراسان وطبرستان وسجستان وصرنا ملوكاً متبوعين بعد أن كنا أصاغر تابعين . وما تقتضي نعم الله علينا أن نقابلها هذه المقابلة » .

وكان رد طغرل بك إلى أخيه داود : « يا أخي ! أنت ملكت خراسان وهي بلاد عامرة فخربتها ووجب عليك مع استقرار قدمك عمارتها ، وأنا وردت بلاداً خربها من تقدمني واجتاحها من كان قبلي ، فما أتمكن من عمارتها والأعداء محيطة بها ، والضرورة تقود إلى طرقها بالعساكر ولا يمكن دفع مضرتها عنها ». الكامل في التاريخ - ابن الأثير - دار الكتاب اللبناني ٨ / ٨٨ .

الامبراطورية البيزنطية لم تتمكن من تخصيص جهدها وتركيزه لحماية أرمينيا ، بسبب انصرافها إلى معالجة التناقضات الداخلية والنزاع المستمر على السلطة من جهة ، وبسبب الحاجة لتخصيص جهد كبير لوقاية الحدود الغربية مع اوروبا وحمايتها ضد هجمات البرابرة من الغرب والتصدي لهجمات البلغار والروس وسواهم من جهة أخرى .

واستطاعت الامبراطورية أن تستخدم الأساليب الدبلوماسية للتحالف مع المسلمين أحياناً ، لتخصيص الجهد اللازم للحرب في الغرب ، أو التحالف مع الغرب لتخصيص الجهد من أجل الحرب ضد المسلمين في أرمينيا والجنوب (ضد إمارتي حلب وأنطاكية). واستطاعت بذلك الصمود والمحافظة على وجودها ، ولكنها اضطرت – مقابل ذلك – إلى الاعتماد بصورة متعاظمة على المتطوعين (المرتزقة) للعمل في قواتها المسلحة . وكان هؤلاء من جنسيات مختلفة ، إلا أن ولاءهم للامبراطورية لم يكن قوياً ، بالرغم مما كان لهم من دور كبير في التصدي للأعمال العدوانية المستمرة على تخوم الامبراطورية ، التي كانت تتقلص في بعض الأحيان حتى تكاد تقتصر على العاصمة (القسطنطينية) وضواحيها ، لتتسع في أحيان أخرى حتى تعود إلى سابق عهدها في الشرق والغرب .

وهكذا أصبحت أرمينيا في شرق الامبراطورية هي هامش التحرك للقوات البيزنطية التي أخذت في عهد باسيل الثاني تركز جهدها في محاولة لضم أرمينيا جزءاً بعد جزء .

على أن غارات السلاجقة ازدادت نشاطاً بعد فتح السلاجقة لفارس ، ولم يشترك طغرل بك ذاته في هذه الغارات إلا مرة واحدة (حينما قام سنة ١٠٥٣ م بتدمير الجهات الواقعة حول بحيرة وان ، غير أنه لم ينجح في الاستيلاء على حصن ملاز كرد). وتولى عادة قيادة جيوش الغزو ابنا عمه «أصان وابراهيم اينال » ، اللذان تعرضا للهزيمة على أيدي البيزنطيين (في سنة ١٠٤٧) عند أرضروم . وفي أثناء السنوات التالية ركزا هجومها على حلفاء الامبراطورية

البيزنطية (من الكرج) . ففي سنة ١٠٥٢ أغارا على « قارس » ، ثم ظهرا من جديد في أرمينيا (سنتي ١٠٥٦ و ١٠٥٧) فتعرضت ملطية (في سنة ١٠٥٧) للتدمير والنهب . وفي سنة ١٠٥٩ زحفت القوات التركية — لأول مرة — إلى جوف أملاك الامبراطورية ، حتى بلغت مدينة « سيواس » .

وعندما مات طغرل بك (في سنة ١٠٦٣) وتولى ابن أخيه « ألب ارسلان » مسؤولية قيـــادة الأمور في الامبراطورية الموحدة ، ركز جهده للعمل ضد التحالف بين البيزنطيين والفاطميين وحرص على حماية حدوده ضد البيزنطيين ، وذلك بالاستيلاء على أرمينيا قبل أن يمضي إلى تحقيق هدفه الأول وهو انتزاع بلاد الشام من الفاطميين . فاشتدت حدة الغـارات على أملاك الامبراطورية ، وتعرضت حاضرة أرمينيا القديمة « آني » للدمار في سنة ١٠٦٤ م .

وعرف أمير « قارس » آخر الأمراء الأرمن المستقلين، أنه لم يعد قادراً على الاستمرار في مجابهة الهجمات الجديدة ، بعـد أن استنزفت الصراعات المستمرة ما بقي للامارات الأرمنية من قوة ، فتقدم إلى الامبراطور البيزنطي وسلم إليه كل أراضيه مقـــابل الحصول على بعض القرى في جبال طوروس ، ووافق الامبراطور البيزنطي، ومضى أمير قارس إلى موطنه الجديد ومعه أعداد كبيرة من مواطنيه الأرمن .

ونتج عن ذلك أن أصبح « **حصن الرها** » عرضة للهجوم السنوي اعتباراً من سنة ١٠٦٥ م . وفي السنة التالية (١٠٦٦ م) احتلت القوات التركية — السلجوقية — **دروب جبال أمانوس**، وفي الربيع التالي نهبوا ودمّروا حاضرة قبادوقيا « **قيصرية** » . وفي الشتاء التالي حلّت الهزيمة بالجيوش البيزنطية في « **ملطية وسيواس** » . وبذلك سيطر السلاجقة سيطرة تامة على أرمينيـــا ، وأصبح بإمكانهم الانطلاق من هذه القاعدة القوية للانطلاق بهجماتهم نحو جوف الامبراطورية البيزنطية في السنوات التـالية ، فأغاروا على **نقصار وعمورية**

في سنة ١٠٦٨م ، ثم الى قونية في سنة ١٠٦٩ ، وإلى قونية القريبة من ساحل بحر إيجه في سنة ١٠٧٠ م .

٣ - وقعة ملازكرد

شهدت الامبراطورية البيزنطية تحولات حاسمة في هذه الفترة . فقد توفي الامبراطور قسطنطين العاشر في سنة ١٠٦٧م ، ولما كان ابنه «ميخائيل السابع» صغير السن ، فقد تولّت أمه « الامبراطورة ايدوسيا » الوصاية على ابنها . وفي السنة التالية (١٠٦٨ م) تزوجت الامبراطورة ايدوسيا من القائد الأعلى للجيش « رومانوس ديوجين » ورفعته إلى العرش . وكان رومانوس جندياً مقاتلاً من الطراز الأول ووطنياً صادقاً . وأدرك أن سلامة الامبراطورية تتطلب العمل قبل كل شيء لاسترداد أرمينيا . فانصرف لإعادة تنظيم الجيش الذي كان يتألف من ستين ألف فارس من الفرسان الأشداء الذين بقي واجبهم مجابهة الأعمال الهجومية على الطرف الشامي ، بالإضافة إلى رجال الحرس الامبراطوري الذين كانوا يجنّدون منخيرة أبناء آسيا الصغرى ويتلقون تدريباً بالغالقسوة والشدة. أما بقية الجيش فكان المرتزقة الأجانب يشكلون معظمه،وبينهم الشماليون الذين يؤلفون حرس الورنك والنورمان والفرنج من غرب أوروبا والصقالبة من الشمال والترك من براري جنوب روسيا ، فضلاً عن البجناك والكومان والغز .

وألّف رومانوس جيشه الذي وصل عدده إلى ١٠٠ **ألف رجل** [١] نصف عددهم من البيزنطيين . ونظراً لكثرة عدد الأتراك ، فقد نُظموا بصورة مستقلة عن بقية العناصر،وتولىقيادتهم **يوسف تارخانيوتس** [٢] التركي الأصل (المولد).

---

(١) جاء في « الكامل في التاريخ » لابن الأثير - دار الكتاب اللبناني ٨ / ١٠٩ أن جيش رومانوس كان يضم ٢٠٠ ألف وليس ١٠٠ ألف ، وأنه ضم الروم والفرنج والغرب والروس والبجناك وغيرهم .

(٢) يوسف تارخانيوتس : Tarchaniotes .

وأسندت قيادة العناصر المختارة من الفرسان الدارعين – من الفرنج والنورمان – إلى **روسل بايليل النورماني**[1]، في حين تولى قيادة البيزنطيين ابن أخ الامبراطور الراحل **اندرونيكوس دوكاس**[2].

وعندما أنهى الامبراطور « **رومانوس ديوجين** » استعداداته، غادر بجيشه عاصمة بلاده « القسطنطينية » في اتجاه أرمينيا. ولكنه لم يكد يغادر العاصمة، حتى وردته أنباء استيلاء النورمان على باري – في إيطاليا – وهي آخر ما تبقّى لبيزنطة من أملاك في شبه الجزيرة الإيطالية. وسلك « رومانوس » في مسيرته الطريق البيزنطي القديم الذي اجتازه الأباطرة في حروبهم. وجعل نصب عينيه أن يستولي على حصون أرمينيا، **وأن يشحنها بالعساكر قبل أن يقدم الترك من الجنوب**. ونفذ رومانوس إلى أرمينيا على امتداد الفرع الجنوبي للفرات الأعلى. وعندما اقترب من ملازكرد، قـام بتقسيم قواته. فمضى بنفسه إلى ملازكرد، بينما أرسل الفرنج والروس والكومان للاستيلاء على حصن « **خــلاط** » الواقع على شاطىء بحيرة وان. واعتقـد أن النصر سيؤاتيه على نحو ما حالفه في السنة السابقة عند هجومه على منبج[3].

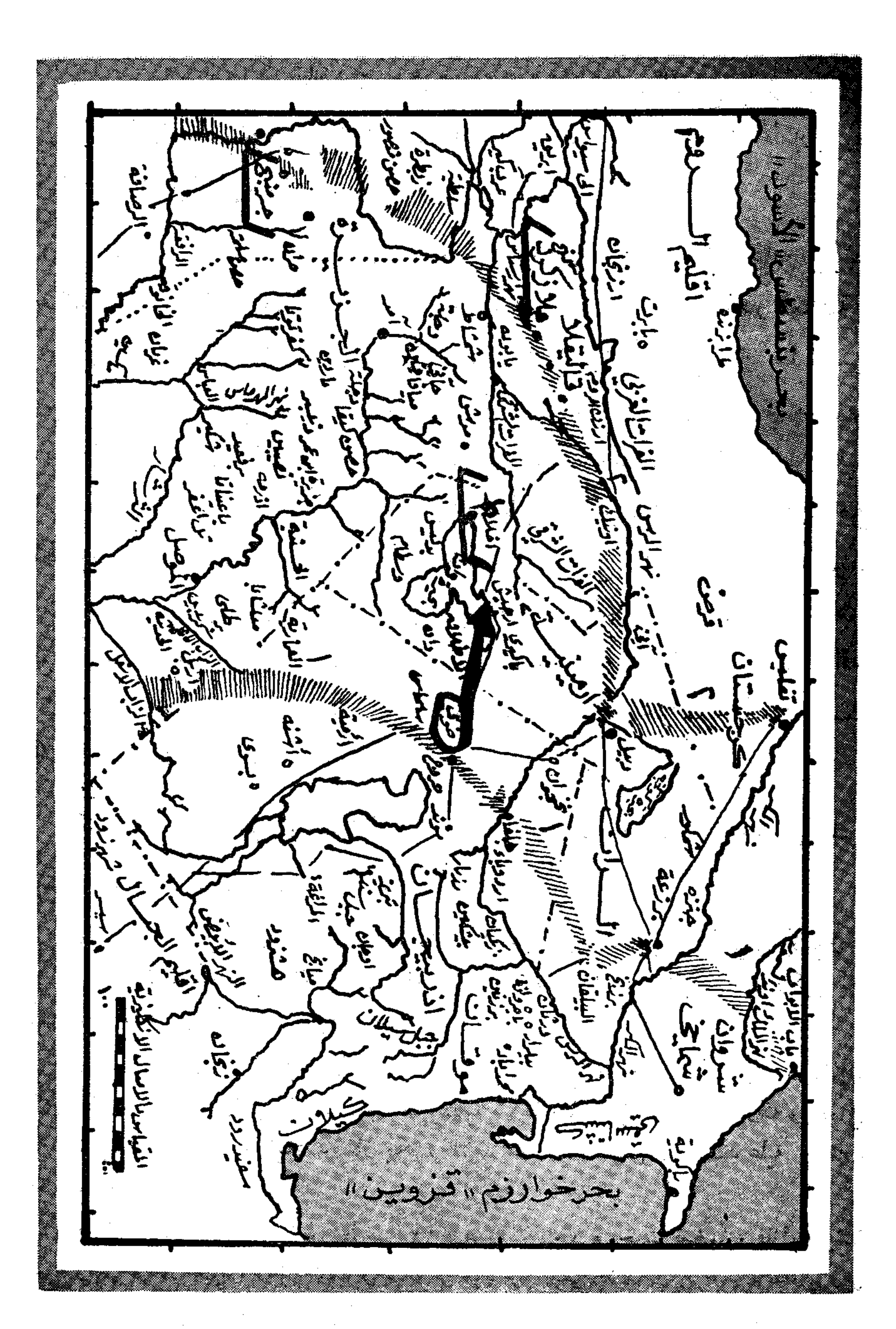
كان السلطان «**ألب ارسلان**» قد بدأ عملياته في هذه السنة بالتوجه إلى حلب

---

(١) بايليل روسل Roussel - Bailleul وجاء في تاريخ الحروب الصليبية – ستيفن رنسيمان – ١ / ٩٧ أنه تم تعيينه بعد إدانة القائدين اللذين سبقاه بالخيانة، وهما: هرفيه Hervé وكريسبين Crispin وكلاهما من الفرنج – الفرنسيين.

(٢) جاء في المصدر السابق أيضاً – تاريخ الحروب الصليبية: أن اندرونيكوس دوكاس، كان أكبر من يلي الامبراطور في القيـــادة البيزنطية، ولهذا فإنه لم يجرؤ على أن يتركه وراءه في القسطنطينية، وأن اندرونيكوس كان يكره الامبراطور رومـانوس ويحقـــد عليه ويعتبره مغتصباً للسلطة.

(٣) قاد الامبراطور رومانوس في سنة ٤٦٢ هـ – ١٠٧٠ م جيشاً ضخماً، فنزل مدينـة منبج ونهبها وقتل أهلها، وهزم محمود بن صالح بن مرداس وبني كلاب وابن حسان الطائي ومن معهما من جموع العرب، ثم عاد إلى بلاده.



ملازكرد

لإخضاعها والقضاء على النفوذ الفاطمي فيها . وكان أمير حلب « محمود بن صالح ابن مرداس » قد بدأ بالخطبة للخليفة العباسي ، وأمر خطباء المساجد بارتداء السواد – شعار العباسيين – وخلع الثياب الخضراء – شعار الفاطميين، ولكنهم استمروا وهم يؤذنون « **حي على خير العمل** » بدلاً من « **حي على الفلاح** »، فقرر ألب ارسلان إخضاعهم ودارت معركة انتصر في نهايتها ألب ارسلان ، فأعاد تنظيم الأمور ، وأبقى على الأمير « محمود » .

ثم رجع عن حلب، وعندما وصل إلى « **خوي – من – أذربيجان**» وصلته المعلومات عن تحرك الامبراطور البيزنطي إلى ملازكرد وخلاط ، وسمع ما فيه ملك الروم من كثرة الجموع ، فلم يتمكن من جمع الجند لبُعد مواقعهم وقرب العدو منه ، فسير الأثقال مع زوجته ونظام الملك إلى همذان ، وسار هو فيمن معه من الجند وعددهم لا يزيد على **١٥ ألف مقاتل** كلهم من الفرسان . وجدّ في السير وقال لهم: « **إنني أقاتل محتسباً صابراً ، فإن سلمت فنعمة من الله تعالى، وإن كانت الشهادة فإن ابني – ملك شاه – ولي عهدي** ». وساروا ، فلما قارب العدو جعل له مقدمة ، فصادفت مقدمته عند خلاط مقدم الروسية في نحو **١٠ آلاف من المقاتلين** ، فاقتتلوا فانهزمت الروسية وأسر مقدمهم وحمل إلى السلطان ، وجمعت الغنائم فأرسلها « ألب ارسلان » إلى نظام الملك وطلب إليه إرسالها إلى بغداد . فلما تقارب العسكران ، أرسل السلطان إلى ملك الروم – رومانوس – يطلب منه المهادنة ، فأجابه هذا : « **لا هدنة إلا بالري** »[1] ، فانزعج السلطان لذلك ، فقال له إمامه وفقيهه – أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي : « **إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره ، وإظهاره على سائر الأديان ، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح ، فالقَهم يوم**

---

(١) كانت الري على ما هو معروف عاصمة « ألب ارسلان » ، وكان الرد يتضمن التهديد بتدمير عاصمة السلاجقة .

الجمعة بعد الزوال في الساعة التي يكون فيها الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر ، والدعاء مقرون بالاجابة » .

عنـدما علم « رومانوس » باقتراب جيش المسلمين ، جمع جيشه وانحرف به إلى جهة الجنوب الغربي، في محاولة منه ليلحق بمقدمة جيشه قبل أن ينقضّ عليه ألب ارسلان ، **ولكنه أغفل تدابير الحيطة ، فـلم يرسل عناصر الاستطلاع لمسافة بعيدة . ولم يكن يعرف أنه بات شديد القرب من أعدائه . وعند ظهيرة يوم الجمعة (١٩ آب – اغسطس – سنة ١٠٧١) وبينما كان ينزل بالوادي على الطريق إلى خلاط ، انقضّ عليه ألب ارسلان [١] .**

وخاض رومانوس المعركة بشجاعة ، وقاد جنده بكفاءة عالية ، إلا أن ما تميّز به المقـاتلون المسلمون من القدرة القتالية والروح المعنوية ، ساعدت على رجحان الكفة لصالحهم . وعنـدما رأى **« اندرونيكوس دوكاس »** أن نتيجة المعركة قد تقررت في غير صالح البيزنطيين ، وأن العاصمة القسطنطينية ذاتها ، قد تصبح مهـدّدة لخلوّها من المقاتلين الذين يمكن لهم الدفاع عنها ، انسحب من ساحة القتال بمن كان تحت قيادته ، وسار بهم صوب الغرب .

« وتذكر المصادر البيزنطية أن السلاجقة – الكومان – انسحبوا في الليلة السابقة من صفوف قوات الروم وانضموا إلى جيش ألب ارسلان ، نظراً لأنهم

---

(١) وصف ابن الأثير مـا سبق المعركة فقال : « لما كانت تلك الساعة من يوم الجمعة ، صلى ألب ارسلان وبكى، فبكى الناس لبكائه ، ودعا ودعوا معه . وقال لهم : (من أراد الانصراف فلينصرف ، فما ههنا سلطان يأمر وينهى) . وألقى القوس والنشاب ، وأخـذ السيف والدبوس – الرمح – وعقد ذنب فرسه بيده ، وفعل عسكره مثله ، ولبس البياض وتحنط ، وقال : إن قتلت فهـذا كفني . وزحف إلى الروم وزحفوا إليه ، فلما قاربهم ترجل وعفر وجهه بالتراب ، وبكى وأكثر الدعاء ، ثم ركب وحمل وحملت العساكر معه ، فحصل المسلمون في وسطهم ، وحجز الغبار بينهم ، فقتل المسلمون فيهم كيف شاؤوا وأنزل الله نصره عليهم ، فانهزم الروم وقتل منهم ما لا يحصى حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى وأسر ملك الروم » – ابن الأثير – الكامل ٨ / ١١٠ – أحداث سنة ٤٦٣ هـ .

جميعهم من الترك – وهذا أمر محتمل – إلا أنه لا يشكل عنصراً حاسماً في تغيير الموقف » .

ومهما كان عليه الموقف ، فقد دارت الدائرة على البيزنطيين الذين غطّت جثث قتلاهم أرض المعركة . ولم يلبث الامبراطور رومانوس ذاته أن أصابته سيوف المسلمين بجراح غير قاتلة ، ثم سقط أسيراً في قبضة مقاتل كاد يجهز عليه لعدم معرفته به ، لولا أنْ تداركه أحد حراس الامبراطور البيزنطي ، فنهاه عن قتله وعرّفه به [1] ، فتمّ نقل الامبراطور البيزنطي إلى خيمة السلطان « ألب ارسلان » الذي أجرى حديثاً معه انتهى بالاتفاق على تحديد فدية للامبراطور مقدارها ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ، وأن يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها ، وأن يطلق كل أسير في بلاد الروم ، والاتفاق على هدنة مدتها خمسين سنة . ثم أنزله في خيمة ، وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها ، وأطلق له جماعة من البطارقة ، وخلع عليه من الغد .

ثم إن الامبراطور قام بزيارة للسلطان « ألب ارسلان » الذي أرسل معه عسكراً أوصله إلى مأمنه ، وشيّعه لمسافة فرسخ . وما كاد الامبراطور يصل إلى قلعة دوقية ، حتى بلغه استيلاء ميخائيل دوكاس – ابن زوجة رومانوس – على السلطة ، باعتبار أنه الوريث الشرعي وأنه بلغ سن الرشد .

---

(١) كان هذا المقاتل الذي أسر الامبراطور البيزنطي قد عرض على نظام الملك من قبل قائده « كوهرائين » ، ولكن نظام الملك رده استحقاراً له ، فأثنى عليه كوهرائين ، فقال نظام الملك عسى أن يأتينا بملك الروم أسيراً ، فكان كذلك ، إذ لم يلبث هذا المقاتل حتى قاد الامبراطور البيزنطي إلى قائده « كوهرائين » الذي حمله إلى السلطان « ألب ارسلان » الذي استقبله فضربه ثلاثة مقارع بيده وقال له : ألم أرسل إليك في الهدنة فأبيت ؟ فقال دعني من التوبيخ وافعل ما تريد ، فقال السلطان : ما عزمت أن تفعل بي لو كنت قد أسرتني ؟ فقال : أفعل القبيح . فقال له ألب ارسلان : فما تظن أنني فاعل بك ؟ وأجاب الامبراطور الأسير : إما أن تقتلني وإما أن تشهرني في بلاد الاسلام ، والثالثة البعيدة هي العفو وقبول الأموال واصطناعي نائباً عنك . قال ألب ارسلان : ما عزمت على غير ذلك .

وعندئذٍ أظهر «رومانوس» الزهد ولبس الصوف ، وأرسل إلى ميخائيل يعرّفه ما اتفق عليه مع السلطان وقال : « إن شئت أن تفعل مـا استقر ، وإن شئت أمسكت ». فأجابه ميخائيل بإيثار ما استقر وطلب وساطته وسؤال السلطان في ذلك . وجمع رومانوس ما عنده من المال فكان مائتي ألف دينار ، فأرسله إلى السلطان وطبقاً ذهباً عليه جواهر بتسعين ألف دينار ، وحلف له أنه لا يقـدر على غير ذلك[1] .

٤ – نتائج معركة « ملازكرد »

آ ـ **الانقلاب البيزنطي** : تعتبر معركة ملازكرد أشد ما وقـع في التاريخ البيزنطي من كوارث حاسمة ، ولم يحاول البيزنطيون أنفسهم إخفاء إحساسهم تجاهها وشعورهم نحوها. إذ أشار مؤرخوهم مرة بعد مرة إلى ذلك اليوم العصيب. وتراءى للصليبيين فيما بعـد أن البيزنطيين فقدوا على أرض ملازكرد ما اتخذوه من لقب حماة العالم المسيحي ، وأصبحت هذه المعركة ذريعة ما جرى من تدخل الغرب بعد ذلك .

وساعد البيزنطيون أنفسهم على تعزيز هذا الفتح ، فقد انصرفوا خـلال العشرين سنة التالية (من تاريخهم) إلى المؤامرات وأعمال التمرّد . وكان في طليعة أسباب التمرّد مـا أقدم عليه ميخائيل السابع من انتزاع للسلطة بمجرد علمه بنبأ الكارثة في ملازكرد ، ثم معـاملة رومانوس ديوجين بوحشية أثارت أقاربه الأقوياء وأصدقاءه الذين جذبهم إليه ما اشتهر به من المروءة والفروسية ، وارتاعوا واشتدّ سخطهم لِما تعرضت له خاتمته ، فعبّروا عن غضبهم وسخطهم بما لجأوا إليه من الخيانة .

---

(١) تذكر المصادر البيزنطية أن رومانوس ديوجين حاول بعد ذلك الاستيلاء على أرمينيا ، فأرسل ميخائيل السابع قوات بيزنطية ألحقت به الهزيمة وحملته إلى القسطنطينية ، حيث بلغت القسوة في اقتلاع عينيه أنه لم يلبث بعد ذلك سوى أياماً قليلة حتى قضى نحبه .

ب – **السلاجقة في الشام** : عندما كان « ألب ارسلان » يخوض معركته في ملازكرد – نظم ابنه – ملك شاه – جيشاً قوياً أسند قيادته إلى قائده « **اتسنر ابن أوق الخوارزمي** » ووجهه إلى الشام ، فسار هذا الجيش إلى فلسطين ، ففتح مدينة الرملة ، وسار منها إلى البيت المقدس وحاصره وفيه قوات الفاطميين وفتح بيت المقدس، وملك ما يجاورها ما عدا عسقلان، وقصد دمشق فحاصرها وتابع النهب لأعمالها حتى خربها وقطع الميرة عنها، فضاق الأمر بالناس، فصبروا ولم يمكنوه من فتحها . وفي سنة ٤٦٧ هـ – ١٠٧٥ م استولى – اتسنر – على دمشق ، وفي السنة التالية استرد الفاطميون بيت المقدس غير أن – اتسنر – طردهم منها بعد حصار استمر شهوراً عديدة . ولم يلبث الفاطميون أن هاجموا اتسنر بدمشق الذي استنجد بالأمير السلجوقي – تتش – شقيق الملك « ملك شاه » ، وأقام تتش بموافقة أخيه مملكة تشمل بلاد الشام ، وكان يعاونه في إدارتها نائبه « أرتق » .

لم يعمر « ألب ارسلان » بعد انتصاره في ملاذكرد ، إذ لقي مصرعه في السنة التالية « ٤٦٤ هـ – ١٠٧٢ م » عندما كان يتوجه لمواصلة القتال فيما وراء نهر سيحون. واستطاع ابنه ملك شاه المحافظة على وحدة الامبراطورية وقوتها، إلا أن وفاته في سنة ٤٨٥ هـ – ١٠٩٢ م فتحت المجال للصراعات الداخلية التي تفاقمت بموت « تتش » في سنة ١٠٩٥ م . ولم يستطع ولداه « رضوان صاحب حلب » و « دقاق صاحب دمشق » أن يسيطرا على الموقف . وانتقلت بيت المقدس إلى « الأراتقة » وأقام « بنو عمار من الشيعة – إمارة لهم في طرابلس » في حين شرع الفاطميون في إعادة الاستيلاء على جنوب فلسطين وكان هذا هو الوضع يوم اجتاحت جحافل الصليبيين بلاد الشام .

أما على مستوى العمليات. فقد كانت أخطاء الامبراطور رومانوس ديوجين هي سبب الفشل ، فقد كان التفوق لديه بما لا يقل عن سبعة الى واحد – وخمسة عشرة الى واحد بحسب رأي المؤرخين المسلمين وهو الأكثر صحة –

ولكن سوء ادارة المعركة ، وتوزيع القوات قبل حسم الصراع في المعركة الرئيسية وضعف الاستطلاع ، قد ساعد نقاط ضعف البيزنطيين على الظهور ، وابرزها ضعف القيادة وتمزقها وعدم وحدة المقاتلين. وكان يقابل ذلك ما تميزت به قوات السلاجقة من روح معنوية عالية وإيمان عميق وإرادة صلبة لانتزاع النصر وتطبيق ماهر لمبادىء الحرب وكفاءة قيادية عالية .. وكان في ذلك نصر المسلمين وهزيمة البيزنطيين .

« رعي الجمال خير من رعي الخنازير »

قالها المعتمد بن عباد لمن احتج عليه لاتصاله بابن تاشفين وطلب الدعم منه .

« والذي يكون ستراه »

قالها ابن تاشفين في رده على ألفونسو السادس الذي بعث اليه يتهدده ويتوعده .

٢
موقعة الزلاقة
(٤٧٩ هـ = ١٠٦٨ م)

١ – الوضع العام .

آ – الموقف على جبهة المسلمين .

ب – الموقف على جبهة نصارى الشمال .

٢ – ابن عباد وابن تاشفين .

٣ – معركة الزلاقة .

٤ – نتائج المعركة والدروس المستفادة .

وجيز الأحداث في يوم الزلاقة

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٣٩٢	١٠٠٢	وفاة الحاجب المنصور (أبو عامر) ونهاية الحكم الأموي في الأندلس (وتقسيم الأندلس بين ملوك الطوائف) .
٤٥٦	١٠٦٣	قام راميرو الأول – ملك أراغون – بالهجوم على المسلمين في « غرادوس » وقتله رجل من المسلمين ، فأعلن البابا الاسكندر الثاني أنه يبذل الغفران لكل مقاتل من أجل الصليب في اسبانيا. وبدأ البابا بتنظيم جيش لمتابعة مشروع « راميرو » وأخذ المقاتل النورماني «وليم مونتراي » في تطويع المقاتلين لخدمة البابا وجمعهم من شمال ايطاليا ، كما عمل ايليس كونت روسي شقيق فيليشيا ملكة أراغون على جمع المقاتلين النورمان من شمال فرنسا .

٤٦٦	١٠٧٣	أعاد ابلين كونت روسي تنظيم حملة من الفرنسيين ودعا البابا غريغوري السابع أنصار المسيحية جميعهم لدعم هذه الحملة والانضمام إليها واعداً المسيحيين باعطائهم الغنائم التي سيستولون عليها من الكفار المسلمين .
٤٧١	١٠٧٨	تولى هيو الأول — دوق برجنديا — قيادة الجيش لدعم صهره ألفونسو السادس — ملك ليون — قشتالة .
٤٧٣	١٠٨٠	أعلن البابا غريغوري السابع تأييده الشخصي ومباركته للحملة التي قادها « جاي — جفري » لحرب المسلمين .
٤٧٨	١٠٨٥	القشتاليون يستولون على طليطلة .
٤٧٩	١٠٨٦	المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين « المرابطون » ينتصرون في الزلاقة على قوات قشتالة التي كان يقودها ألفونسو السادس .
٤٨٩	١٠٩٥	مجمع كليرمونت يعلن الحروب الصليبية على المسلمين .
٤٩٣	١٠٩٩	الصليبيون يحتلون بيت المقدس .

بدأت الحملات الصليبية على مسرح عمليات الأندلس قبل أن تبدأ على مسرح عمليات المشرق . ثم استمرت بعد ذلك لمدة قرنين من الزمن بعد اخراج الصليبيين من الشام . وهذا يعني ببساطة أن الحرب الصليبية قد استمرت في الأندلس لأكثر من خمسة قرون ، ولم يكن بالمستطاع الصمود طوال هذه الفترة لو لم يتوافر للمسلمين قدرة قتالية رائعة ، ولو لم تحدث معارك حاسمة خلال مسيرة الصراع الطويلة والشاقة ، كان من شأنها المحافظة على وجود المسلمين في الأندلس. وتقف موقعة الزلاقة في قمة المعارك الحاسمة التي قادها المسلمون في الأندلس ، وقد حدثت هذه الموقعة بعد استيلاء القشتاليين على طليطلة بمدة سنة واحدة ، ولعل الأمر المثير هو عدم استثمار هذا النصر الحاسم لمعاودة الاستيلاء على طليطلة وانتزاعها من قبضة الاعداء. وحدثت بعد ذلك معارك حاسمة قد لا تقل في أهميتها عن الزلاقة « مثل معركة الارك في سنة ٥٩١ ه - ١١٩٤ م » والتي قادها الموحدون بعد ١٠٨ سنوات من معركة « الزلاقة » ، وتوافقت مع معركة حطين التي حدثت قبل ٧ سنوات تقريباً « ١١٨٧ م » ويبرهن ذلك على توافر القدرات القتالية للمسلمين على مسارح العمليات المختلفة ، بقدر ما يبرهن على ضراوة الصراع الذي خاضه المسلمون ضد الصليبيين في الشرق والغرب على حد سواء .

واذا كان مثل الحملات الصليبية قد وقع في المشرق على عاتق الترك والكرد والعرب ، فهنا وقع على العرب والبربر ، وكانت الوحدة الاسلامية

هي رباط المرابطين والمجاهدين في كل بقاع العالم الاسلامي، وفي البر والبحر. لقد كانت حرباً شاملة على مساحات جغرافية كبيرة وتلك هي أول الظواهر التي برزت على مسرح عمليات الأندلس ، ثم اتسعت لتشمل العالم الاسلامي. وعلى هذا فبالامكان اعتبار معركة الزلاقة هي البداية الحاسمة للحروب الصليبية .

١ – الوضع العام :

أ – الموقف على جبهة المسلمين :

كان المسلمون في اسبانيا يشكلون في القرن العاشر الميلادي قوة كبيرة في مواجهة العالم المسيحي . فما حازه المسيحيون من قبل من بلاد ، لم يلبث أن أضاعوه وفقدوه . ففي منتصف هذا القرن ، كان عبد الرحمن الثالث (٢٧٨ – ٣٥٠ هـ = ٨٩١ – ٩٦١ م) هو سيـــد شبه الجزيرة بلا منازع ، وأحدثت وفاته شيئاً من الراحة والهدوء، نظراً لما اشتهر به خليفته الحكم الثاني – المستنصر (٣٠٢ – ٣٦٦ هـ = ٩١٤ – ٩٧٦ م) من الانصراف لقتال الفاطميين والأدارسة في مراكش والمغرب » . على أنه سيطر على الموقف بعد وفاة الحكم الوزير محمد بن أبي عامر المعروف بالمنصور الذي كان يميل إلى القتال والجهـــاد « حتى بلغت غزواته نيف وخمسون غزوة ، وله فتوح كثيرة ، وكان في أكثر زمانه لا يخل بغزوتين في السنة ، وكانت غزوة « شنت ياقب » أكثر غزاته شهرة ، وقد ضم جيشه من المرتزقة فقط عشرين ألف مرتزق »[١] .

---

(١) مما يذكر عن المنصور أبو عامر أنه اعتنى بجمع مـا علق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده ، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازله حتى اجتمع له صرة ضخمة ، عهد بتصييره في حنوطه ، وكان يحملها حيث سار (معه أكفانه توقعاً لحلول منيته) ، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل نباته، وكان يسأل=

وكانت مملكة ليون أهم مملكة مسيحية في اسبانيا ، وقد تعرضت لهجمات المنصور . ففي سنة ٩٨١ استولى المنصور على سمورة [١] جنوب مملكة ليون وفي سنة ٩٩٦ دمر ليون ذاتها . وفي السنة التالية أشعل الحرائق في « شنت يعقوب في كومبوستيلا»[٢] إلا أنه حرص على عدم التعرض للأماكن المقدسة، وفي سنة ٩٨٦ استولى المنصور على برشلونة، وتراءى أنه لا يلبث أن يعبر البرانس « جبال البيرينه » بعد أن وحد الجزيرة وأعادها إلى ما كانت عليه أيام الفتح الأولى ، إلا أن المنية وافته سنة ١٠٠٢ م .

وأخذت قوة المسلمين في التداعي بعد وفاة المنصور ، ومع ذلك استطاعت

= الله تعالى أن يتوفاه في طريق الجهاد، فكان كذلك حيث توفي ودفن بمدينة سالم Medina Celi وكتب على قبره :

آثاره تنبيك عن أوصافه — حتى كأنك بالعيان تراه

تالله لا يأتي الزمان بمثله — أبداً ولا يحمي الثغور سواه

(نفح الطيب ١/٣٩٦ – ٤١٦ – الذخيرة ابن بسام المجلد الأول من القسم الرابع ٣٩ – ٥٨).

(١) Zamora .

(٢) شنت يعقوب في كومبوستيلا Santiago De Compostella . ويذكر أن شنت يعقوب أو القديس يعقوب في جيليقية Galicia شمال غرب الأندلس. وتذكر الأسطورة أنه أحد الحواري الاثني عشر « وكان أخصهم بعيسى عليه السلام وهم يسمونه أخاه للزومه إياه ... وكان أسقفاً ببيت المقدس فجعل يستقري الأرضين داعياً لمن فيها حتى انتهى الى هذه القاصية ثم عاد الى أرض الشام ، فمات بها وله مائة وعشرون سنة شمسية ، فاحتمل أصحابه رمته فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثره » وأخذ أهل الأندلس في إضفاء هالة حول مكانـة القديس بطرس – أو يعقوب – فتحولت مدينة شنت يعقوب إلى مدينة مقدسة يتوافد إليها الحجيج من أوروبا كلها وتحتل المرتبه الثالثة بعد القدس وروما. وعندما جاء ألفونسو الثاني أعاد بعث أسطورة القديس يعقوب على اعتباره حامي جزيرة ايبيريا وسيدهـــا . وتعلقت الآمال بحماية القديس . ووضعت طقوس خاصة وأناشيد حماسية لتمجيد القديس ودفع النصارى إلى التضحية والجهاد ضد الكفار - الذين هم المسلمون . ونظراً لوقوع شنت يعقوب في أقصى الشمال الغربي من الأندلس - في وسط مناطق صعبة ، فقد كان من المحال على قوات المسلمين الوصول إليها ، فبقيت معقل الثوار وموئل المتمردين حتى جاء المنصور ففتحها .

البحرية الإسلامية الإغارة على أنتيب – في الشاطىء اللازوردي – سنة ١٠٠٣، وبيزا في ايطاليا سنة ١٠٠٥ وناربون في فرنسا سنة ١٠٢٠ غير أن الهجوم المنظم من قبل المسلمين توقف فترة من الزمن ، وبذلك توافرت الفرصة للمسيحيين للقيام بالهجوم المضاد .

كان من أول ظواهر الضعف في الأندلس بعد وفاة المنصور انقسام الأندلس على نفسها واستقلال كل أمير بقطر أو إقليم وكل قائد بقلعة أو موقع منفصل ، فكان بنو حمود في ملقا . ودولة بني جهور في قرطبة ودولة بني عباد في اشبيليا ودولة بني الأفطس في بطليوس ودولة بني يحيى في لبلة. ودولة بني مزين في باجة وشلب ودولة بني البكري في ولبة وجزيرة شلطيش . ودولة بني هارون في شنتمرية . ودولة بني ذي النون في طليطلة ودولة بني مناد في غرناطة ودولة بني برزال في قرمونة ودولة بني دمر في مورور ودولة بني خرزون في أركش ودولة بني يغرن في رندة والدولة العامرية في المرية ومملكة دانية والجزائر ودولة بلنسية وإمارة البونت ومملكة سرقسطة « التجيبون » .

ولم تقف ظواهر الضعف والتفتت عند حدود الانقسام ، بل تحولت إلى صراعات بين مراكز القوى الإسلامية بعضها ضد بعض ، وأدار المسلمون « قادتهم » ظهورهم لقوى الصليبيين يطعنون كيف يشاؤون بل إنهم كانوا يستعينون بملوك النصارى في الشمال « مملكة ليون » مما أطمع نصارى الشمال ودفعهم إلى زيادة قوتهم .

ووصفت بعض المصادر الأندلسية الموقف في تلك الفترة ، وكان منها : « لم تزل جزيرة – الأندلس – منتظمة لمالكها في سلك الانقياد والوفاق إلى أن طما بمترفيها سيل العناد والنفاق . فامتاز كل رئيس منهم بصقع كان مسقط رأسه ، وجعله معقلاً يعتصم فيه من المخاوف بأفراسه ، فصار كل منهم يشن الغارة على جاره ، ويحاربه في عقر داره ، إلى أن ضعفوا عن لقاء عدو في الدين يعادي ، ويراوح معاقلهم بالعبث ويُفادي ، حتى لم يبقَ في أيديهم منها إلا ما هو في ضمان

هدنة مقدرة – محددة – وإتاوة في كل عام على الكبير والصغير مقررة »[1].

وفي هذا المناخ من التمزق حدثت وقعة بطرنة واستيلاء النورمان على بربشتر « سنة ٤٥٦ هـ أي قبل الاستيلاء على طليطلة بمدة ٢١ سنة » ، وكان من المفروض أن يعرف ملوك الأندلس وقادتهم ما ينتظرهم ، إلا أنهم تغافلوا عن ذلك وانصرفوا إلى أمورهم القريبة – يركزون عليها كل جهدهم – وقد حفظت المصادر الأندلسية لما حدث في بطرنة وبربشتر مما يشكل وثيقة عن الموقف في تلك الفترة ، ومن ذلك ما قيل في بطرنة : « انتدبت الفرنج منهم قطعة كثيفة ونزلت على بلنسية وأهلها جاهلون بالحرب مفترون بأمر الطعن والضرب ، مقبلون على اللذات من الأكل والشرب ، وأظهر الفرنج الندم على منازلتها ، والضعف على مقاومة من فيها ، وخدعوهم بذلك فانخدعوا ، وأطمعوهم فطمعوا وكمنوا في عدة أماكن جماعة من الفرسان ، وخرج أهل البلد بثياب زينتهم ، وخرج معهم أميرهم عبد العزيز بن أبي عامر. فاستدرجهم العدو ثم عطفوا عليهم فاستأصلوهم بالقتل والأسر »[2].

وفي بربشتر القريبة من سرقسطة : « تقدم جيش النورمان من سرقسطة ونازلها وحاصرها ، وقصر يوسف بن سليمان بن هود في حمايتها ، ووكل أهلها إلى نفوسهم ، فأقام العدو عليها أربعين يوماً ، ووقع فيما بين أهلها تنازع في القوت لقلته ، واتصل ذلك بالعدو ، فشدد القتال عليها والحصر لها حتى دخل المدينة الأولى في خمسة آلاف مدرع ، فدهش الناس وتحصنوا بالمدينة الداخلة ، وجرت بينهم حروب شديدة قتل فيها خمسمائة إفرنجي . ويئس أهل المدينة من الحياة

---

(١) نفح الطيب – دار صادر بيروت – ٤ / ٤٤٦ .

(٢) بطرنة : Paterna وجاء في ابن عذاري ٣ / ٢٥٣ وهو ينقل عن ابن بسام في الذخيرة يصف هذه الوقعة :

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم	حلل الحرير عليكم ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها	لو لم يكن ببطرنة ما كانا

فلاذوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصة دون مال وعيـال ، فأعطاهم العدو الأمان، فلما خرجوا نكث بهم وغدر، وقتل الجميع ، وحصل للعدو من الأموال والأمتعة ما لا يحصى ، حتى إن الذي خص بعض مقدمي العدو لحصنه – وهو قائد خيل روما – نحو ألف وخمسمائة جارية ابكاراً . ومن أوقار الأمتعة والحلي والكسوة خمسمائة جمل . وقدّر من قتل وأسر بمائة ألف نفس [1] .

كان المعتضد بن عباد ومن بعده المعتمد بن عباد أول من عرف الخطر القادم من الشمال ، فانصرف الجهد منهما لتوحيد الأندلس وزيادة قدرتها وأمكن لهما توحيد ممالك الجنوب – أكثرها – مثل قرطبة واشبيليا وبطليوس وشلب وولبة وشلطيش وشنتمرية وقرمونة ومورو وركش ورندة ، وأصبح سيد الأندلس . ولكنهما لم يتمكنا بالرغم من ذلك – من مجابهة طغيان ملوك النصارى في الشمال – واستمر أمراء المسلمين في دفع الجزية ، وزاد ذلك من طمـــع ألفونس (أو الاذفونش) كما تذكره المصادر العربية ، فتقدم إلى طليطلة ، ودمر كل ما حولها وعزلها عن كل ما يحيط بها ، وأميرها القادر بالله بن المأمون يحيى بن ذي النون منصرفاً عن مجابهة الخطر لبناء القصر الذي بدأ بتشييده المأمون [2] مطمئناً إلى

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة – ابن بسام – ٣ / ٥٨ وفيه عن بربشتر: « كان السبب في قتلهم أن العدو خاف من يصل لنجدتهم ، وشاهد من كثرتهم ما هاله ، فشرع في القتل حتى قتل منهم نيفاً وستة آلاف قتيل ، ثم نادى الملك بتأمين من بقي وأمر أن يخرجوا فازدحموا في الباب إلى أن مات منهم خلق عظيم ، وكان من أهل المدينة جماعة قد عاذوا برؤوس الجبـــال ، وتحصنوا بمواضع منيعة ، وكادوا يهلكون من العطش ، فأمنهم الملك على نفوسهم ، وبرزوا فأطلق سبيلهم ، فبينما هم في الطريق إذ لقيتهم خيل الكفر ممن لم يشهد الحادثة ، فقتلوهم . وكان الفرنج لما استولوا على المدينة يفتضون البكر بحضرة أبيها ، والثيب بعين زوجها وأهلها ، وجرى من هذه الأحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان. ومن لم يرض منهم أن يفعل ذلك في خادم أو ذات مهنة أعطاهن خوله – أتباعه – وغلمانه يعيشون فيهن عيثه . وبلغ الكفرة منهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة .

(٢) جاء في نفح الطيب ٤ / ٣٥٣ : « وانصرف المامون يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة لبناء قصر تأنق في بنائه وأنفق فيه مالاً كثيراً، ووضع فيه بحيرة ، وبنى في وسطها قبة،وسيق =

العهود والمواثيق والوعود التي قطعها له ألفونس . واستمر حصار طليطلة فترة سبع سنين، لم يحاول أحد من قادة المسلمين دعم أهلها أو رفع الحصار عنها حتى تمّ اقتحامها في منتصف محرم سنة ٤٨٧ هـ، وكان لسقوط طليطلة رد فعل عنيف أثار المسلمين في كل أنحاء الأندلس[(١)] .

ب – الموقف في جبهة نصارى الشمال :

لقد عرف المسيحي في الغرب بتعصبه، فلم يشارك البيزنطي فيما اشتهر به من التسامح والاحساس بالطمأنينة والأمن، وكان يفخر بأنه مسيحي وأنه فيما يزعم وريث روما ، إلا أنه كان يعرف في الوقت ذاته أن الحضارة الإسلامية تفوق حضارته في وجوه كثيرة ، إذ سيطر المسلمون على غرب البحر المتوسط من قطالونية حتى تونس ، وكانت بحرية المسلمين تسيطر على الطرق البحرية وتهاجم المدن ، وشيد المسلمون لهم قلاعاً في ايطاليا وبروفانس .

وقد حاول البابا يوحنا العاشر وبلاط القسطنطينية تأليف عصبة من الأمراء المسيحيين في سنة ٩١٥ بهدف إخراج المسلمين من قلعتهم على جبل جاريجليانو وفي سنة ٩٤١ انحاز البيزنطيون إلى هيو أمير بروفانس في شن هجوم على قلعة

= الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها محيطاً بها متصلاً بعضه ببعض فكانت القبة في غلالة من ماء سكب لا يفتر ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل » .

(١) انطلق الخطباء والشعراء في استثارة الهمم والتحريض على الجهاد والتحذير من تفاقم الخطر ومن ذلك ما قيل في سقوط طليطلة :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم ... فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عـــدو لا يفارقنا ... كيف الحياة مع الحيات في سقط

ومن ذلك أيضاً :

يا أهل أندلس ردوا المعار فما ... في العرف عارية إلا مردات
ألم تروا بيدق الكفار فرزنه ... وشاهنا آخر الأبيات شهمات

مزيوس (فريجوس) ولم ينجح هذا الهجوم وبقيت القلعة في قبضة المسلمين إلى أن تعاون الأمراء البروفنساليين والايطاليين على إخراج المسلمين من قلعة فريجوس سنة ٩٧٢ م .

على أن هذه العصابات لم تكن إلا عصابات محلية وطارئة غير دائمة. فاشتدت الحاجة إلى مزيد من التنسيق . وإلى ازدياد بذل الجهد . ولم يك ثمة ما هو أكثر من روما إدراكاً للحاجة الى الجهد والتنسيق . لا سيا بعد أن هدد المسلمون روما ذاتها عندما هاجموها ووصلوا الى كنيسة القديس بطرس سنة ٨٤٦ . وتولى أمر توجيه الجهد وتنسيق التعاون في تلك الفترة ديركلوني الضخم الذي امتدت رئاسة اثنين له نحو ١١٥ سنة وهما أوديلو الذي تولاه سنة ٩٩٤ ومات سنة ١٠٤٨ ، ثم خلفه على الرئاسة هيو الذي عاش حتى سنة ١١٠٩ ، ووجّه اهتماماً خاصاً نحو اسبانيا لتدبير الهجوم المضاد الكبير ضد المسلمين ، والذي تولى قيادته ملك نافار – سانكو أو سانشو الثالث – المعروف باسم سانشو الكبير .

وقد حاول سانشو تأليف عصبة من الأمراء المسيحيين لقتال المسلمين فطلب من زميليه ملكاليون وقشتالة أن يساعداه. كما أنه وجد في«وليم»دوق غسكونيا حليفاً متحمساً. أما روبرت ملك فرنسا فلم يستجب لدعوته. غير أن هذه الجهود لم تسفر عن نتائج هامة . إلا أن ديركلوني استمر في إظهار حرصه على الاهتمام براحة الحجاج وسلامتهم ، وتابع جهده لإظهار استعداده بأن يكون له وزنه في أمر ضمان طريق الحجاج المؤدي إلى كومبوستيللا ، والمساعدة في المحافظة على اسبانيا المسيحية .

والظاهر أنه كان للدير الكلوني تأثيره في استقدام روجر توسني من نورمنديا[1] بعد أن ظهرت حماسة النورمان وحبهم للمغامرة عندما أقدموا على

---

(١) روجر توسني : Roger of Tosni .

مساعدة كونتيسة برشلونة « ايرسلندة »[1] في سنة ١٠١٨ لمجابهة المسلمين. وقد اشتدت سيطرة الكلونيين على الكنيسة الاسبانية زمن سانشو وأخلافه بأن جعلوها في مقدمة ما تأثر بالحركة الاصلاحية .

ولم يسع البابوية إلا أن تقر كل محاولة لمد أطراف العالم المسيحي في اسبانيا ، وحلت البركات الكلونية والبابوية بأمير غسقونية – سانشو وليم – حين انحاز إلى سانشو ملك نافار لشن الهجوم على أمير سرقسطة . وقد شجع هذا التأييد الكلوني أمير برشلونة « ريموند برنجار » على المضي في دفع المسلمين نحو الجنوب .

وهكذا بدأ القتال ضد المسلمين في اسبانيا يتخذ صفة الحرب الصليبية ، ولم يلبث البابوات حتى صار لهم دور في توجيهها . ففي سنة ١٠٦٣ لقي راميرو الأول ملك أراغون مصرعة في غرادوس[2] على يد أحد المسلمين عندما قام بهجوم على المسلمين . فأثار موته خيال أوروبا، وبادر البابا – الاسكندر الثاني – إلى أن يعد ببذل الغفران لكل من يقاتل من أجل الصليب في اسبانيا . وشرع البابا في تأليف جيش لمواصلة عمل راميرو . وقام وليم مونتروي[3] وهو جندي نرماني بخدمة البابا في تجنيد المقاتلين من شمال ايطاليا . كما تولى جمع المقاتلين من شمال فرنسا إبلس كونت روسي[4] شقيق فليشيا ملكة أراغون[5] .

على أن أضخم جيش كان ذلك الذي جمعه جفري كونت أكيتانيا الذي تولى قيادة الحملة ، ومع ذلك لم يتحقق شيء يذكر . ذلك أنه على الرغم من الاستيلاء على بربشتر والحصول منها على غنيمة وفيرة[6]،فإن المسلمين لم يلبثوا أن عاودوا

---

(١) ايرسلندة : Erslinde .

(٢) غرادوس : Grados .

(٣) وليم مونتروي : William of Montreuil .

(٤) كونت روسي : Ebles of Roucy .

(٥) فليشيا : Flicia .

(٦) تجدر الاشارة هنا إلى أن البابا اسكندر الثاني وجه رسالة إلى الأساقفة في اسبانيا عند=

الهجوم واستردوها . غير أن الفرسان الفرنسيين أخذوا منذئذ يهرعون لاجتياز جبال البيرينيه « البرتات » لمواصلة هذا العمل . ولم يلبث إبلس كونت روسي حتى أعدّ حملة جديدة في سنة ١٠٧٣ ودعـــا البابا غريغوري السابع كل أمراء المسيحية للانضمام إليها ، وأعلن عند تذكيره العالم أن مملكة اسبانيا تنتمي إلى المقر المقدس . وأن المسيحيين سوف ينعمون بما يفتحونه من أيدي الكفار من الأراضي .

وفي سنة ١٠٧٨ تولى هيوم الأول دوق برغنديا قيادة جيش لمساعدة صهره ألفونسو السادس ملك قشتالة . وفي سنة ١٠٨٠ أعلن البابا غريغوري السابع تأييده الشخصي للحملة التي قادها جاي جفري . وجرت الأمور على خير وجه في السنوات التالية ، إذ استولى القشتاليون على طليطلة سنة ١٠٨٥ م. وأفاد ملك قشتالة ألفونسو (الأذفونس) من انتصاره لدعم مكانته في قيادة الحرب الصليبية .

ولما كان المعتمد بن عباد هو أعظم ملوك الأندلس والمتملك لأكثر بلادها مثل قرطبة واشبيلية ، فقد ركز ألفونسو السادس جهده لاستثارته وخوض الحرب ضده « رغم أن المعتمد كان يدفع الجزية السنوية للملك ألفونسو » ولهذا فما إن أتم ألفونسو الاستيلاء على طليطلة حتى بعث إلى المعتمد يطلب فيه تسليم جميع الحصون المنيعة وإبقاء السهل للمسلمين . وعندمـــا أرسل إليه المعتمد الضريبة

=توجيه الحملة لفتح بربشتر: « Barbastro » ذكرهم فيها «بما بين المسلمين واليهود من اختلاف تام وضرورة أخذ اليهود بالعطف والرحمة بخلاف ما يجب أن تكون عليه معاملتهم للمسلمين » إلا أن جيوش المسيحية أظهرت نزوعها لاضطهاد اليهود وإساءة معاملتهم . فقد اعتبر الصليبيون أن المسلمين في الأندلس هم الأعداء الموجودين في البلاد ، وانهم هم الذين يضطهدون أتباع المسيح بالبلاد غير أن اليهود هم أشد عداء ونكراً لأنهم هم الذين اضطهدوا المسيح نفسه ، وعلاوة على ذلك فقد كان اليهود يعملون في خدمة المسلمين ، وانهم يحظون بعطف المسلمين ، مما حمل الغزاة المسيحيين على عدم الثقة باليهود واضطهادهم ، وعدم الالتزام بتوجيهات البابا .

(تاريخ الحروب الصليبية ١ / ١٩٧)

المعتادة لم يقبلها منه . وأرسل ألفونسو إلى المعتمد سفارة من خمسمائة فارس على رأسها رجل يهودي . وحمل معه رسالة يطلب فيها « السماح لامرأته القمطيجة — أو القمجيطة — بدخول جامع قرطبة لتلد فيه — إذ كانت حاملاً — وذلك تنفيذاً لما أشار عليه بذلك القسيسون والأساقفة . لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم عمل عليها المسلمون الجامع الأعظم ، وسأل أن تنزل امرأته المذكورة بالمدينة الزهراء غربي مدينة قرطبة ، وهي التي أنشأها الناصر لدين الله وأمعن في بنائها وأغرب في حسنها ، وجلب إليها الرخام الملون والمرمر الصافي والحوض المشهور من البلاد والأقطار ، وأنفق فيها الأموال العظيمة .

واستدعى المعتمد السفير لمناقشته في موضوع نصيحة الأطباء والقسوس وما أشاروا إليـه أن تكون المرأة المذكورة ساكنة بالزهراء ، وتتردد إلى الجامع المذكور حتى تكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة من الجـامع المذكور ، وأظهر المعتمد امتناعه ورفضه لطلب ألفونسو . فراجعه اليهودي — وزير ألفونسو — وأغلظ له في القول وواجهه بما لم يحتمله ابن عباد فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودي ، فأنزل دماغه في حلقه ، وأمر به فصلب منكوساً بقرطبة . وفرق أصحاب السفير « الخمسمائة فارس » على قواعد عسكره ، ثم أمر قواده أن يقتل كلا منهم من عنده من الكفرة . وسلم من الجماعة ثلاثة نفر فعادوا إلى ألفونسو وأخبروه الخبر . وكان ألفونسو متوجهاً إلى قرطبة ليحاصرها، فرجع إلى طليطلة ليجمع آلات الحصار وليكثر العدد والعدة ، بعد أن ظهر له تصميم المعتمد على حربه،ورفض الخضوع والاذعان [1] .

---

(١) جاء في نفح الطيب ٤ / ٣٥٨ « لما سكن غضب المعتمد ، استفتى الفقهاء عن حكم ما فعله باليهودي فبادره الفقيه محمد بن الطلاع بالرخصة في ذلك لتعدي الرسول حدود الرسالة إلى ما استوجب به القتل ، إذ ليس له ذلك . وقال للفقهاء : إنما بادرت بالفتوى خوفاً أن يكسل الرجل عما عزم عليه من منابذة العدو ، وعسى الله أن يجعل في عزيمته للمسلمين فرجاً » .

٢ – ابن عباد وابن تاشفين :

اهتاج المسلمون في الأندلس لسقوط طليطلة ، وتطلعوا بأبصارهم إلى نصرة اخوانهم المسلمين في عدوة المغرب ، واجتمع منهم رؤساء ، وساروا إلى القاضي « **عبيد الله بن محمد بن أدهم** » ، وقالوا له : « ألا تنظر إلى ما فيه المسلمون من الصغار والذلة وإعطائهم الجزية بعد أن كانوا يأخذونها ، وقالوا : قد غلب على البلاد الفرنج ، ولم يبقَ إلا القليل ، وإن طال هذا الأمر عادت نصرانية كما كانت أولاً . وقد رأينا رأياً نعرضه عليك ، قال : وما هو ؟ قالوا : نكتب إلى عرب أفريقية ،ونبذل لهم إذا وصلوا إلينا شطر أموالنا ونخرج معهم مجاهدين في سبيل الله . فقال لهم : إنا نخشى إن وصلوا إلينا أن يخربوا بلادنا كما فعلوا بافريقية ويتركوا الافرنج ويبدؤا بنا ، والمرابطون أصلح منهم وأقرب إلينا ، فقالوا له: فكاتب أمير المسلمين ، واسأله العبور إلينا أو إعانتنا بما تيسر من الجند .

وبينما هم كذلك كان المعتمد بن عباد قد عزم أمره ، فأرسل إلى صاحب بطليوس ،المتوكل عمر بن محمد وإلى صاحب غرناطة عبد الله بن حبوس الصنهاجي أن يبعثا إليه كل منهما قاضي حضرته . ففعلا ، واستحضر قاضي الجماعة بقرطبة « **عبيدالله بن محمد بن أدهم ، ولقبه أبو بكر** » وكان أعقل أهل زمانه . فلما اجتمع عنده القضاة باشبيلية أضاف إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون ،وعرفهم أربعتهم أنهم رسله إلى يوسف بن تاشفين وترغيبه في الجهاد ، وأسند إلى وزيره ما لا بد منه في تلك السفارة من إبرام العقود السلطانية .

وكان يوسف بن تاشفين لا تزال تفد عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين ، مجهشين بالبكاء ، ناشدين الله والإسلام ، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته ، فيسمع إليهم ، ويصغي لقولهم ، وترق نفسه لهم . وكان يوسف بن تاشفين يحاصر سبتة ، فأرسل المعتمد أسطوله من اشبيلية لدعم ابن تاشفين وإخضاع سبتة ، وما أن تم ذلك ، حتى أخذ في الاستعداد للعبور [١] .

---

(١) أرسل المعتمد بن عباد مع الوفد الذي بعث به إلى ابن تاشفين رسالة جاء فيها : « أما =

أما في الأندلس ،فقد فشا توقيع ابن عباد ، وما أظهر من العزيمة على جواز يوسف بن تاشفين ، والاستظهار به على العدو ، فاستبشر الناس ، وفرحوا بذلك وفتحت لهم أبواب الآمال .

وأما ملوك طوائف الأندلس ، فلما تحققوا عزم ابن عباد وانفراده برأيه في ذلك ، اهتموا منـه ، ومنهم من كاتبه ، ومنهم من كلمه مواجهة ، وحذروه عاقبة ذلك، وقالوا له: **الملك عقيم والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد،** فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة مثلاً: **رعي الجمال خير من رعي الخنازير،** ومعناه أنه كونه مأكولاً ليوسف بن تاشفين أسيراً يرعى جماله في الصحراء خير من كونه ممزقاً للأذفونش - ألفونسو - أسيراً له ، يرعى خنازيره في قشتالة .وقال لعزّاله ولوامه : « **يا قوم ! إني من أمري على حالتين : حالة يقين وحالة شك ، ولا بد لي من احداهما . أما حالة الشك فاني ان استندت الى ابن تاشفين أو الى الأذفونش ـ ألفونسو ـ ففي الممكن أن يفي لي ويبقى على وفائه ، ويمكن أن لا يفعل ، فهذه حالة الشك . أما حالة اليقين فاني ان استندت الى ابن تاشفين ، فأنا أرضي الله وان استندت الى الأذفونش أسخطت الله تعالى. فاذا كانت حالة الشك فيها عارضة فلأي شيء أدع ما يرضي الله وآتي ما يسخطه ؟** » **فحينئذ قصر أصحابه عن لومه .**

عندما أنهى يوسف بن تاشفين استعداداته ، أمر بعبور الجمال فعبر منها ما

= بعد ، فإنك إن أعرضت عنا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز. وإن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم تنسب إلى وهن، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا ، فاختر لنفسك أكرم نسبتيك ، فإنك بالمحل الذي لا يجب أن تسبق فيه إلى مكرمة . وإن في استبقائك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت . والسلام » . وكان في رد ابن تاشفين : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من يوسف بن تاشفين سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . تحية من سالمكم وسلم عليكم ، وإنكم مما في أيديكم من الملك في أوسع إباحة ، مخصوصين منـــا بأكرم إيثار وسماحة . فاستديموا وفاءنا بوفائكم واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم والله ولي التوفيق لنا ولكم والسلام » .

(نفح الطيب ٤ / ٣٥٥ - ٣٥٦)

أغص الجزيرة ، وارتفع رغاؤها الى عنان السماء ، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملاً قط . ولا خيلهم فصارت الخيل تجمح من رؤية الجمال ومن رغائها ، وكان ليوسف في عبور الجمال رأي مصيب،فكان يحدق بها عسكره ، ويحضرها للحروب . ثم عبر يوسف البحر عبوراً سهلاً حتى أتى الجزيرة الخضراء ، ففتحوا له ، وخرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات . وأقاموا له سوقاً جلبوا إليه ما عندهم من سائر المرافق ، وأذنوا للغزاة في دخول البلد والتصرف فيه ، فامتلأت المساجد والرحبات بالمتطوعين ، وتواصوا بهم خيراً .

وأعاد يوسف بن تاشفين تنظيم قواته ووجهها إلى اشبيلية على أحسن الهيئات جيشاً بعد جيش ، وأميراً بعد أمير ، وقبيلاً بعد قبيل ، وبعث المعتمد ابنه إلى لقاء يوسف . وأمر عمال البلاد بجلب الأقوات والضيافات ، ورأى يوسف من ذلك ما سره ونشطه ، وتواردت الجيوش مع أمرائهـــا على اشبيلية ، وخرج المعتمد إلى لقاء يوسف من اشبيلية في مائة فارس ووجوه أصحابه . وكان اللقاء بين القائدين حاراً حمل كل آمالهما وتطلعاتها للنصر . ثم افترقا وعاد يوسف لمحلته ، وابن عباد لجهته [١] .

وألحق ابن عباد ما كان أعده من هدايا وتحف وضيافات أوسع بها على محلة يوسف بن تاشفين ، وباتوا تلك الليلة ، فلما أصبحوا وصلوا الصبح ، ركب الجميع وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم ففعل ، ورأى الناس من عزة سلطانه مـا سرهم ، ولم يبقَ من ملوك الطوائف بالأندلس الا من بادر أو أعان وخرج أو أخرج ، و كذلك فعل الصحراويون مع يوسف ، كل صقع من أصقـاعه رابطوا

---

(١) جاء في الروض المعطار ٨٧ وصفاً للقاء القائدين فيه :« لما أتى المعتمد محلة يوسف ركض نحو القوم وركضوا نحوه ، فبرز إليه يوسف وحده ، والتقيا منفردين، وتصافحا وتعانقا ، وأظهر كل منهما لصاحبه المودة والخلوص ، وشكرا نعم الله تعالى ، وتواصيا بالصبر والرحمة ، وبشرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر ، وتضرعا إلى الله تعالى في أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه، مقرباً إليه ، وافترقا » .

وصابروا (بالقرب من بطليوس) .

بدأ ألفونسو السادس (الأذفونش) بالإعداد للحرب منذ أن جابهه المعتمد بردّه الحاسم، فاستنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما وراءها، ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم ، ونشروا أناجيلهم ، فاجتمع لهم من الجلالقة والإفرنجة ما لا يحصى عدده . وجمع ألفونسو خاصته وأهل مشورته وقال لهم : **« إني رأيت أني إن مكنتهم من الدخول إلى بلادي ، فناجزوني فيها وبين جدُرها وربما كانت الدائرة عليَّ يستحكمون البلاد ويحصدون من فيها غداة واحدة ، ولكني أجعل يومهم معي في حوز بلادهم ، فان كانت عليّ اكتفوا بما نالوه ، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلا بعد أهبة أخرى فيكون في ذلك صون لبلادي وجبر لمكاسري ، وإن كانت الدائرة عليهم مني فيهم وفي بلادهم ما خفت أنا أن يكون فيّ وفي بلادي إذا ناجزوني في وسطها » .**

ثم برز بالمختار من جنوده ، وأنجاد جموعه على باب دربه، وترك بقية جموعه خلفه ، وقال حين نظر إلى ما اختاره منهم: **بهؤلاء أقاتل الجن والأنس وملائكة السماء** : فالمقلل يقول: **المختارون أربعون ألف دراع ولكل واحد أتباع** . وأما **النصارى** فيعجبون ممن يزعم ذلك ويرون أنهم أكثر من ذلك كله . **واتفق الكل أن عدد المسلمين أقل من الكفرة** [١] .

ونظم ألفونسو قواته ، فجعلها في جيشين ، وجه أحدهما إلى كورة باجة من غرب الأندلس ويغير على تلك التخوم والجهات ثم يمر على لبلة إلى اشبيلية ، وجعل موعده إياه طريانة للاجتماع معه ، ثم زحف – ألفونسو – بنفسه في جيش آخر عرمرم ، فسلك طريقاً غير الطريق التي سلكها الآخر، وكلاهما عاث

---

(١) جاء في الكامل في التاريخ – لابن الأثير ٨ / ١٤٢ أن جيش الفرنج ٥٠ ألفاً – . وفي الروض المعطار ٨٧ ما سبق ذكره عن حجم القوى – في صدر البحث – .
(نفح الطيب ٤ / ٣٦٢)

في البلاد وخرّب ودمّر ، حتى اجتمعا لموعدهما بضفة النهر الأعظم قبالة قصر ابن عباد ، وفي أيام مقامه هنالك كتب إلى ابن عباد زارياً عليه : «**كثر بطول مقامي في مجلسي الذبان ، واشتد عليّ الحر ، فأتحفني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسي ، وأطرد بها الذباب عن وجهي » فوقع له ابن عباد بخط يده في ظهر الرقعة : قرأت كتابك ، وفهمت خيلاءك وإعجابك ، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية تروح منك لا تروح عليك إن شاء الله تعالى فلما وصلت ألفونسو رسالة ابن عباد وقرئت عليه ، وعلم مقتضاها أطرق إطراق من لم يخطر له ذلك ببال .**

ما لبث يوسف بن تاشفين ، عندما نظم قواته في اشبيليا ، أن أرسل إلى ألفونسو كتاباً يعرض عليه فيه : « الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب كما هي السنة »، ومن جملة ما في الكتاب : بلغنا يا أذفونش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا ، وتمنيتَ أن تكون لك سفن تعبر بها البحر إلينا . فقد عبرنا إليك ، وقد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك (**وما دعاء الكافرين إلا في ضلال**) [١] .

وأرسل ألفونسو رسالة إلى المعتمد بن عباد، جاء فيها : « إن صاحبكم يوسف قد تعنّى من بلاده ــ وخاض البحور ، وأنا أكفيه العناء فيما بقي ، ولا أكلفكم تعباً ــ أمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقاً بكم وتوفيراً عليكم » . كما أنه كتب رسالة ثانية إلى يوسف بن تاشفين ، كتبها له بعض غواة أدباء المسلمين ، أعلمه فيها رفضه لمقترحاته ــ الإسلام أو الجزية ــ « وأغلظ له في القول ، ووصف ما معه من القوة والعُدَد والعَدَد ، وبالغ في ذلك » .

فلما وصلت الرسالة إلى يوسف ، أمر كاتبه ــ أبا بكر بن القصيرة ــ أن يجيبه ، وكان كاتباً مفلقاً، فكتب وأجاد. فلما قرأه على أمير المسلمين ــ يوسف ــ

---

(١) سورة غافر : ٥٠ .

قال : هـــذا كتاب طويل ... أحضر كتاب الأذفونش ، واكتب في ظهره : « **الذي يكون ستراه** » . وأرسله إليه . فلما وقف عليه ألفونسو ارتاع له ، وعلم أنه بُلي برجل لا طاقة له به .

٣ – معركة الزلاقة

خرج ألفونسو بجيوشه ، واتجه بها نحو الغرب من بلاد الأندلس حتى وصل بطليوس الواقعة على نهر يانه – أو – آنه . وتقـدم السلطان يوسف فقصده . وسار ابن عباد بجيش فيه حماة الثغور ، ورؤساء الأندلس ، وجعل على مقدمته ابنه عبدالله[١] . ووافت الجيوش كلها بطليوس ، فأناخوا بظاهرها ، وخرج إليهم صاحبها المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس ، فلقيهم بمـــا يجب من الضيافات والأقوات وبذل المجهود . **ولمـا ازدلف بعضهم إلى بعض ، أذكى المعتمد عيونه في محلات الصحراويين خوفاً عليهم من مكائد ألفونسو ، إذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد** ، وجعل يتولى ذلك بنفسه ، حتى قيل: « إن الرجل من الصحراويين لا يخرج على طرف المحلة لقضاء أمر أو حاجة ، إلا ويجـــد ابنَ عباد بنفسه مطيفاً بالمحلة » .

ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما . وقام الفقهاء والصالحون مقام الوعظ ، وحضّوهم على الصبر والثبات ، وحذروهم من الفشل والفرار . وجاءت الطلائع

---

(١) كان المعتمد بن عباد شاعراً كبيراً على ما هو معروف . وكان في مسيرته للزلاقة متفائلاً فأخذ ينشد لنفسه مكملاً البيت المعروف :

لا بد من فرج قريب	يأتيك بالعجب العجيب
غـزو عليك مبـارك	سيعود بالفتح القريب
لله سعـــدك إنه	نكس على دين الصليب
لا بد من يوم يكو	ن له أخاً يوم القليب

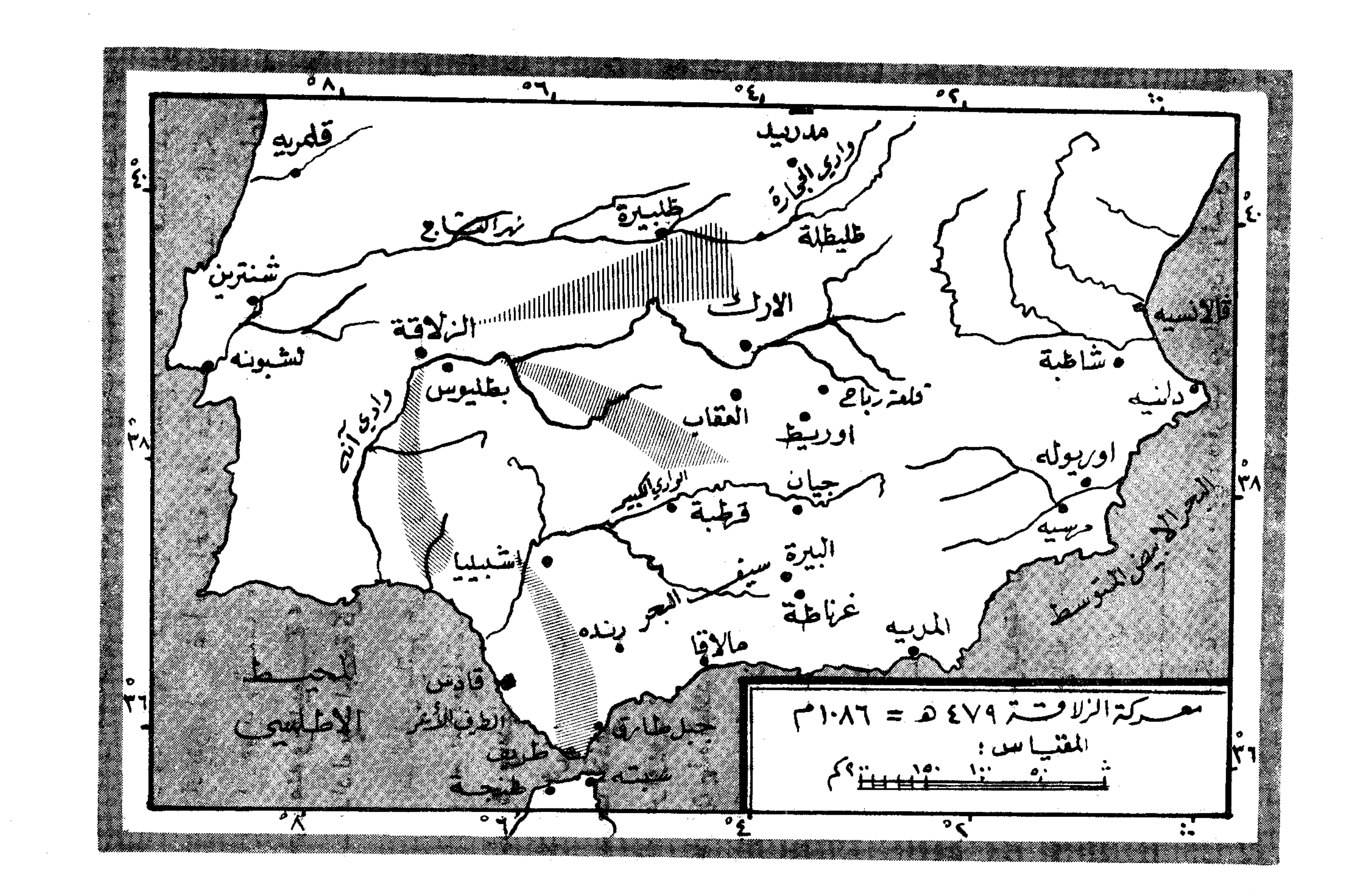
ويقصد بيوم القليب – في البيت الأخير – معركة بدر الكبرى التي انتصر فيها المسلمون بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم .

تخبر أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم، وهو يوم الاربعاء، فأصبح المسلمون وقد أخذوا مصافّهم، وتراجع ألفونسو بهدف استخدام المكر والخديعة. فعاد النـاس إلى محلاتهم، وباتوا ليلتهم. ثم أصبح يوم الخميس، فبعث ألفونسو إلى ابن عباد يقول له: غداً يوم الجمعة وهو عيدكم، والأحد عيدنا، فليكن لقاؤنا بينهما، وهو يوم السبت « **فعرّف المعتمد بذلك السلطان يوسف، وأعلمه أنها حيلة منه وخديعـــة، وإنما قصده الفتك بنا يوم الجمعة، فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار** ».

وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس. وبعـــد مضي جزء من الليل جاء فارسان من طلائع المعتمد يخبران **أنهما أشرفا على محلة الأذفونش، وسمعا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة، ثم تلاحق بقيـــة الطلائع متحققين من تحرك الأذفونش، ثم جاءت الجواسيس من داخل محلتهم تقول: « استرقنا السمع، فسمعنا الأذفونش يقول لأصحابه: ابن عباد مسعر هـذه الحروب، وهؤلاء الصحراويون، وإن كانوا أهل حفـاظ وذوي بصائر في الحروب، فهم غير عارفين بهذه البلاد، وإنما قادهم ابن عباد، فاقصدوه واهجموا عليه، واصبروا، فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة** ».

عنـد ذلك بعث ابن عباد الكاتب أبا بكر ابن القصيرة إلى السلطان يوسف يعرّفه بإقبال ألفونسو ويستحث نصرته. فمضى ابن القصيرة يطوي المحلات في ظلمة الليل، حتى جـــاء يوسف بن تاشفين، فعرّفه بجليّة الأمر. فقال له: قل له: « **إني سأقرب منه إن شاء الله تعالى** ». وأمر يوسف بعض قواده أن يمضي بكتيبة رسمها له، حتى يدخل محـــلة النصارى فيضرمها ناراً ما دام الأذفونش مشتغلاً مع ابن عباد [1].

(١) جاء في ابن خلكان ٦ / ١١٦ ما يلي: « فركب أمير المسلمين، وأحدق به أنجاد خيله ورجله من صنهاجة رؤساء القبائل، وقصدوا محلة الأذفونش فاقتحموها ودخلوها، وفتكوا بها =



معركة الزلاقة ٤٧٩ هـ = ١٠٨٦م
المقياس :
قلمريه
مدريد
وادي الحجارة
طلبيرة
نهر التاجه
طليطلة
شنترين
الارك
الزلاقة
لشبونه
قالانسيه
شاطبة
بطليوس
وادي آنه
العقاب
اوريط
دانيه
اوريوله
جيان
الوادي الكبير
قرطبة
مرسيه
اشبيليا
البيرة
سيف البحر
غرناطة
البحر الابيض المتوسط
رنده
مالاقا
المريه
المحيط الاطلسي
قادس
الطرف الأغر
جبل طارق
طريف
سبتة
طنجة

وانصرف ابن القصيرة إلى المعتمد ، فوصله مع السحَر من يوم الجمعة منتصف رجب ٤٧٩ هـ . ومع وصوله غشيته جنود الطاغية ، فصُدم ابن عبـــاد صدمة قطعت آماله. ومال الأذفونش عليه بجموعه، وأحاطوا به من كل جهة،فهاجت الحرب، وحميَ الوطيس، واستحرَّ القتل في أصحاب ابن عباد . وصبر ابن عباد صبراً لم يُعهـــد مثله لأحد ، واستبطأ السلطان يوسف وهو يلاحظ طريقه ، وعضّته الحرب ، واشتدَّ عليه وعلى مَن معه البلاء . وأبطأ عليه الصحراويون وساءت الظنون. وانكشف بعض أصحاب ابن عباد وفيهم ابنه عبدالله،وأُثخن ابن عباد جراحات ، وضُرب على رأسه ضربة فلقت هـامته حتى وصلت إلى صدغه ، وجُرحت يمنى يديه ، وطُعن في أحد جانبيه ، وعُقرت تحته ثـلاثة أفراس ، كلما هلك واحد قُدِّم له آخر ، وهو يقـاسي حياض الموت ، ويضرب يميناً وشمالاً [١] .

= وقتلوا ، وضربت الطبول وزعقت البوقات ، فاهتزت الأرض ، وتجاوبت الجبال والآفاق ، وتراجع الروم إلى محلاتهم بعـد أن علموا أن أمير المسلمين فيها ، فصدموا أمير المسلمين ، فأفرج لهم عنها ، ثم كر عليهم فأخرجهم منها ، ثم كروا عليه فخرج لهم عنها ، ولم تزل الكرات بينهم تتوالى إلى أن أمر أمير المسلمين حشمه السودان، فترجل منهم زهاء أربعة آلاف ودخلوا المعترك بدرق اللمط وسيوف الهنـــد ومزاريق الزان ، فطعنوا الخيل فرمحت بفرسانها وأحجمت عن أقرانها » . وهذا يعني أن المعركة دارت في معسكر ألفونسو الذي كان يبعـد مسافة فرسخ عن معسكر المسلمين (نفح الطيب ٤ / ٣٦٧) أو مسافة ثمانية عشر ميلاً (كما جـاء في ابن الأثير ٨ / ١٤٢) . وهذا يعني أن الاغارة على معسكر الأعداء والعودة لدعم المعتمد تتطلب لا أقل من ساعتين للذهاب والإياب وتنفيذ المهمة ، وهذا ممـا يؤكد ما جاء في البحث من أن يوسف قـد أرسل كتيبة للإغارة على معسكر ألفونسو ، في حين توجه هو بمعظم جيشه لنصرة المعتمد بن عباد ودعمه .

(١) نقل عن المعتمد بن عباد أنه تذكر وهو في تلك الحالة ابناً له صغيراً كان مغرماً به تركه في اشبيلية عليلاً – وكنيته أبو هاشم – فقال :

أبا هـاشم هشمتني الشفار فلله صبري لذاك الأوار
ذكرت شخيصك تحت العجاج فلم يثنني ذكره للفرار

وفي تلك اللحظة الصعبة التي وصلت فيهـا القلوب إلى الحلوق وزاغت فيها الأبصار ، ظهرت طلائع قوات الصحراء . وكان أول مَن وافى ابن عباد من قواد ابن تاشفين « داود بن عائشة » ، وكان بطلاً شجاعاً شهماً ، فنفّس بجيشه عن ابن عباد . ثم أقبل يوسف بعد ذلك ، وطبوله تصعد أصواتها في الجو . فلما أبصره ألفونسو وجّه حملته إليه وقصده بمعظم جنوده ، فبـادر إليهم السلطان يوسف وصدمهم بجمعه فردّهم إلى مركزهم . وانتظم شمل ابن عباد واستنشق ريح الظفر وتباشر بالنصر .

كانت معركة مريرة ، تناوب الطرفان فيها حمل راية النصر مرات عديدة ، وخاضت قوات ألفونسو معركتها بين مطرقة ابن عباد وسندان ابن تاشفين . ثم صدقوا جميعاً الحملة ، فتزلزلت الأرض بحوافر خيولهم ، وأظلم النهار بالعجاج والغبار ، وخاضت الخيل في الدماء ، وصبر الفريقان صبراً عظيماً . ثم تراجع ابن عباد إلى يوسف وحمل معـه حملة جاء معها النصر ، وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين وصدقوا الحملة ، فانكشف الطاغية ، ومرّ هارباً منهزماً وقد طُعن في إحدى ركبتيه طعنة بقي يخمع بها طيلة عمره[1] وبدأ جند ألفونسو بالفرار ، فولوا ظهورهم وأعطوا أعناقهم والسيوف تصفعهم والرماح تطعنهم ، إلى أن لحقوا ربوة لجأوا إليهـا واعتصموا بها ، وأحدقت بهم الخيل .

---

(١) جاء في ابن خلكان ٦ / ١١٦ وصف لتأثير المباغتة على معسكر المعتمد بن عباد كما يلي: « نزل ابن تاشفين على أقل من فرسخ من معسكر العدو في يوم الاربعاء، وكان الموعد في المناجزة في يوم السبت ، فغدر الأذفونش ومكر . فلما كان سحر يوم الجمعة منتصف رجب ، أقبلت طلائع ابن عباد والروم في أثرها ، والناس على طمأنينة ، فبادر ابن عبـاد للركوب ، وبث الخبر في العساكر فماجت بأهلها ، ووقع البهت ، ورجفت الأرض، وصار الناس فوضى على غير تعبئة ولا أهبة ، ودهمتهم خيل العـدو ، فأحاطت بابن عباد ، وحطمت ما تعرض لها ، وتركت الأرض حصيداً، وجرح ابن عباد جرحاً أشواه، وفر رؤساء الأندلس وتركوا محلاتهم وأسلموها، وظنوا أنه وهي لا يرقع ، ونازلة لا تدفع ، وظن الأذفونش أن السلطان يوسف في المنهزمين ولم يعلم أن العاقبة للمتقين » .

وتجمع حول ألفونسو نحو خمسمائة فارس كل واحد منهم مكلوم . وأباد القتل والأسر من عداهم من أصحابهم . وعمل المسلمون من رؤوسهم مآذن يؤذن عليها والمخذول ألفونسو ينظر إلى موضع الوقيعة ومكان الهزيمة ، فلا يرى إلا نكالاً محيطاً به وبأصحابه . فقد كان موضع المعترك على اتساعه وليس فيه موضع قدم إلا على ميت أو دم ،وعندما أظلم الليل انساب الأذفونش — ألفونسو السادس — بأصحابه وغادروا الربوة ، ووصلوا إلى طليطلة . وأخذ ألفونسو في السؤال عن أبطاله وشجعانه وأصحابه ففقدهم ، ولم يسمع إلا نواح الثكلى عليهم ، فاهتم ولم يأكل ولم يشرب حتى هلك غماً وهماً ، ولم يخلف إلا بنتاً واحدة جعل الأمر إليها فتحصنت بطليطلة .

أما بالنسبة للمعتمد ابن عباد ، فقد أقبل على السلطان يوسف ، وصافحه وهنأه وشكره وأثنى عليه ، وشكر يوسف صبر ابن عباد ومقامه وحسن بلائه وجميل صبره ، وسأله عن حاله عندما أسلمته رجاله بانهزامهم عنه . فقال له : « هم هؤلاء قد حضروا بين يديك فليخبروك » .

استولى المسلمون على ما كان في محلة الفرنج من الآلات والسلاح والمضارب والأواني وغير ذلك ، وأمر ابن عباد بضم رؤوس قتلى المشركين . فاجتمع من ذلك تل عظيم . وأقام المسلمون في موضع المعركة أربعة أيام حتى جمعت الغنائم واستؤذن في ذلك السلطان يوسف ، فعفّ عنها وآثر بها ملوك الأندلس وعرفهم أن مقصده الجهاد والأجر العظيم ، وما عند الله في ذلك من الثواب المقيم ، فلما رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف لهم بالغنائم استكرموه وأحبوه وشكروا له ذلك ، ورحل المعتمد إلى اشبيلية ومعه السلطان يوسف بن تاشفين ، فأقام السلطان يوسف بظاهر اشبيلية ثلاثة أيام،ووردت عليه من الغرب أخبار تقتضي العزم فسافر ، وذهب معه ابن عباد يوماً وليلة ، فحلف ابن تاشفين وعزم عليه في الرجوع ، وكانت جراحاته تورمت عليه ، فسير معه ولده عبد الله إلى أن وصل البحر وعبر إلى المغرب .

ورجع « المعتمد » إلى اشبيليـا التي كانت تحتفل بالنصر [1] ، ومضت قوة المرابطين والتي تركها يوسف بن تاشفين قبل رحيله بقيادة أسير بن أبي بكر أحد قواده المشاهير [2] لمتابعة الجهاد بعد أن أخذت لها قسطاً من الراحة . ودخلت بلاد الأذفونش ، وأطلق أسير بن أبي بكر الغارة ونهب وسبى ، وفتح الحصون المنيعة والمعاقل الصعبة العويصة وتوغل في البلاد،وحصل أموالاً وذخائر عظيمة ورتب رجالاً وفرساناً في جميع ما أخذه .

٤ – نتائج المعركة والدروس المستفادة :

كانت معركة الزلاقة انتصاراً رائعاً على مستوى العمليات ، ورداً حاسماً على تحديات ملك قشتالة ألفونسو السادس ، ممـا ترك شعوراً عميقاً في نفوس قادة ممالك الشمال ، فلم يعودوا يتهورون في تحدياتهم ، وصاروا أكثر حذراً في تنفيذ مخططاتهم . كما أن هذه المعركة استنزفت قدرة الشمال ، بحيث أنه ستمضي فترة غير قصيرة قبل أن تعاود ممالك الشمال جهدها ضد المسلمين في الأندلس . إلا أن هــذه المعركة بالرغم من أهميتها الكبرى على مستوى العمليات ، وبالرغم من النتيجة الحاسمة على مستوى الصراع المسلح ، فإنها كانت محدودة النتائج – أو سلبية – في أفق السياسة الاستراتيجية ، إذ أنها لم تستثمر لتطوير الصراع من أجل استعادة طليطلة أو متابعة التقدم لتهديد ممالك الشمال على نحو ما كان يفعله أمراء الأندلس من قبل « في زمن عبد الرحمن الثالث والحاجب المنصور مثلاً » ،

---

(١) لما رجع ابن عباد إلى اشبيلية، جلس للناس ، وهنيء بالفتح ، وقرأت القراء ، وقام على رأسه الشعراء ، فأنشدوه . قال عبد الجليل بن وهبون : حضرت ذلك اليوم وأعددت قصيدة أنشدها بين يديه ، فقرأ القارىء : (إلا تنصروه فقـد نصره الله) – التوبة ٤٠ – فقلت : بعداً لي ولشعري ، والله ما أبقت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به .

(٢) جاء في تاريخ الشعوب الإسلامية – كارل بروكلمان – دار العلم للملايين (ص – ٣٢١) أن عدد أفراد هذه القوة لا يزيد على ثلاثة آلاف بربري .

ويمكن تلخيص المعركة بأنها « **انتصار في العمليات وهزيمة على مستوى السياسة الاستراتيجية** » .

ولعل عدم استثمار النصر في العمليات لتحويله الى نصر استراتيجي — على نحو ما كان يفعله قادة المسلمين أكثرهم — إنما يعود إلى ظهور أحداث تطلبت عودة ابن تاشفين بسرعة إلى المغرب ، وإلى ما نزل بقوات المعتمد من خسارة فادحة أثناء المرحلة الأولى من المعركة ، مما جعله عاجزاً عن تطوير الأعمال القتالية واستثمار النصر .

وكان من نتائج هذه المعركة أيضاً **رفع الروح المعنوية للمجاهدين في سبيل الله ، واستعادة الثقة بالذات ، والقدرة على هزيمة الخصم والتحرر من الهيمنة التي فرضها ألفونسو وملوك الشمال على أمراء المسلمين .**

وقد كان من نتائج هذه المعركة أيضاً ،القضاء على التمزق بين ملوك الطوائف وتوحيد الأندلس ، إلا أن أسلوب تنفيذ هذا العمل جاء مغايراً للهدف ، مما أدى إلى نتائج سيئة على مستقبل الصراع ، إذ حلت الفرقة بعدئذ بين الأندلسيين « المقيمين في البلاد » والمرابطين « القادمين إلى الأندلس برسم الجهاد » وكان المعتمد بن عباد أول ضحية لهذه الفرقة التي لم تلبث أن اتسعت حتى قسمت الأندلس إلى قسمين متمايزين . وتعتبر هذه الظاهرة نموذجاً واضحاً للهدف النبيل الذي لا يصل إلى غايته عندما تستخدم فيه أساليب ووسائل غير نبيلة ..

الدروس المستفادة :

كانت معركة الزلاقة رائعة من الناحية العسكرية وغنية بدروسها المستفادة ولعل أبرز ما فيها « التصميم على انتزاع النصر » و « العناد في خوض الصراع المسلح » كمخرج وحيد للموقف المتدهور في العلاقات بين مسلمي الأندلس ودول الشمال . ويظهر هذا التصميم على مستوى جماهير المسلمين بقدر ما يظهر على مستوى القيادات ، فقد أظهر المسلمون استعدادهم للتنازل عن نصف ما

يتلكونه مع أولئك القادمين من المغرب ، إخوانهم في الدين من أجل حماية الإسلام والمسلمين. ولعل في ما تركه الأدباء والشعراء والكتّاب من أوابد بعد سقوط طليطلة ، مـا يبرهن على توافر الوعي التام لطبيعة الصراع وأهدافه . وتبرز بصورة واضحة أيضاً اتجاهات الحكام – ملوك الطوائف – المضادة لتطلعات المسلمين عند اتصال ابن عباد بابن تاشفين نتيجة خوف الحكام على مواقعهم القيادية . وقد تأكدت صحة هذه المخاوف بعدئذ عندما عمل أتباع يوسف ابن تاشفين على تحريضه للقضاء على ملوك الطوائف . وقد كان بالمستطاع إزالة السلبيات الناجمة عن هذا التعاون لو توافرت القدرة على إقـامة التحالف فوق أرضية من الأسس الواضحة . بحيث يؤدي هـذا التعاون إلى زيادة القدرة العسكرية لا من أجل معركة الزلاقة فحسب ، بل من أجل متـابعة الصراع المسلح في الحرب طويلة الأمد .

تأتي بعد ذلك دروس مسرح العمليات . وأبرزها :

١ – تنسيق التعاون الرائع بين ابن عباد وابن تاشفين ، وتنسيق التعاون بين مختلف الأوساط المقاتلة .

٢ – الحرص على أمن العمل العسكري بفضل مـا اتخذه ابن عباد من اجراءات أمن مشددة ، حتى أنه كان يسهر بنفسه على مراقبة المعسكر نظراً لعدم معرفة مقاتلي ابن تاشفين القادمين حديثاً من الصحراء بطبيعة مسرح عمليات الأندلس .

٣ – تنظيم أعمال الاستطلاع والجاسوسية من قبل المعتمد ابن عباد والوصول بها إلى قلب معسكر قائد العدو – ألفونسو السادس – بحيث توافر له سيل من المعلومات الدقيقة والمستمرة ، فما أعاق ألفونسو عن تحقيق المباغتة التامـة ، حيث ظهر أن ابن عباد كان على أهبة الاستعداد لمناجزة خصمه . وصحيح أن المباغتة كانت متوافرة بالنسبة لموعد الهجوم واتجاهه – إلا أنها كانت مباغتة جزئية وغير كاملة ، مما ساعد على تطويقها وإحباط نتائجها السلبية .

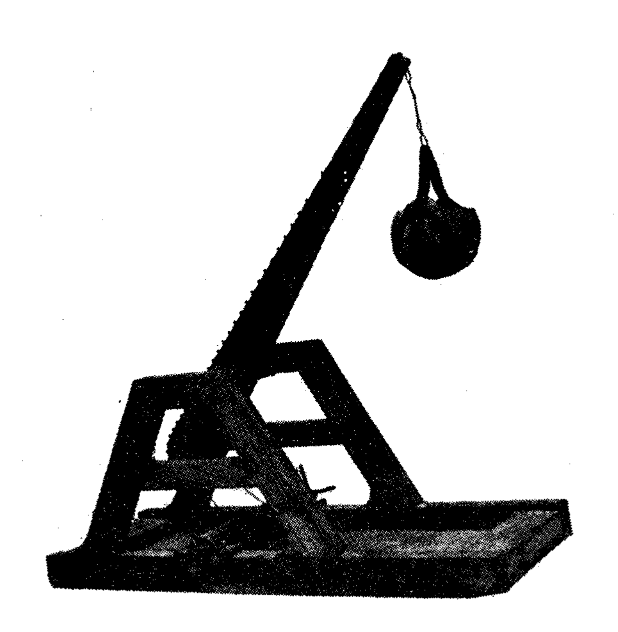
٤ – معرفة المعتمد ابن عباد بنوايا الخصم ، بدليل معرفته للخطة الخداعية التي حاول ألفونسو استخدامها لمباغتة المسلمين في تحديد يوم الهجوم .

٥ – استخدام ابن تاشفين لأسلوب ضرب المؤخرات وتطبيق استراتيجية الهجوم غير المباشر – تماماً كمثل خطة شارل مارتل في ضرب مؤخرات طارق ابن زياد – ثم دخول المعركة في وسط تظاهرة عسكرية – الطبول والأبواق – مما كان له وقع نفسي أثر على مقاتلي جيش ألفونسو .

٦ – الروح المعنوية العالية للمجاهدين في سبيل الله، مقابل التدهور في الروح المعنوية لألفونسو وفقاً لمـا تبرزه النصوص التاريخية من حلم رآه ألفونسو ليلة المعركة أو في الليلة السابقة لها. ويشير ذلك إلى تدهور في روحه المعنوية ، وعدم توافر الثقة بكسب المعركة ، ولا ريب هنا أن ما أظهره المعتمد وابن تاشفين من ردود قاسية كانت عاملاً في إحباط إرادة القتال لدى ألفونسو وإضعاف روحه المعنوية .

٧ – التأمين الإداري للقوات بمـا قام به المعتمد بن عباد من إيماز لأمراء الأقاليم « بفتح الأسواق » لضمان إمداد القوات باحتياجاتها وبما تتطلبه .

٨ – الإخلاص في القول والعمل على مستوى قيـــادة العمليات – إدارة الحرب – وصحيح أن القوات خاضت معركتها متساندة – بقيادتين منفصلتين – إلا أن الإخلاص للهدف المشترك قد ساعد على تنسيق الجهد أثناء إدارة المعركة.



« وأحيط بالفرنج من حواليهم ، ودارت الدوائر عليهم فترجلوا عن الخيل، وجرفهم السيف جرف الـ ـيل، وملك عليهم الصليب الأعظم. وذاك مصابهم الأعظم. ولما شاهدوا الصليب سليباً ، ورقيب الردى قريباً ، أيقنوا بالهلاك ، وأثخنوا بالضرب الدراك . فما برحوا يؤسرون ويقتلون ويخمدون ويخملون ، وللوثوب يخفون وبالجراح يثقلون ، وفي مصارع القتل إلى معاصر الأسر ينقلون . وأسر من نجا من القتل من الداوية ومقدمها ، ومن الاستبارية معظمها... وأسر الشيطان وجنوده ، وملك الملوك وكنوده ، وجبر الإسلام بكسرهم ، وقتلوا وأسروا بأسرهم . فمن شاهد القتلى قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل ، وقـد استولى الفرنج على ساحل الشام ، ما شفى للمسلمين كيوم حطين غليل » .

(رواية عماد الدين الأصفهاني – عن حطين. الروضتين أبو شامة ٢ / ٧٥ – ٨٠)

٣
يوم حطـــين

(السبت لخمس بقين من ربيع الآخرة ٥٨٣ هـ = ٤ تموز - يوليو - ١١٨٧ م)

١ – الوضع العام قبل حطين .

أ – الموقف على جبهة الفرنج .

ب – الموقف على جبهة المسلمين .

٢ – الوضع الخاص قبل المعركة .

أ – رينالد شاتيون .

ب – صلاح الدين الأيوبي .

٣ – يوم حطين .

٤ – نتائج يوم حطين .

أ – النتائج السياسية .

ب – النتائج العسكرية .

وجيز الأحداث

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٤٨٩	١٠٩٥	مجمع كليرمونت، الذي ضم ثلثمائة من رجال الدين، يعلن الحرب الصليبية. والبابا اربان الثاني يطلق صيحته الشهيرة: « فلينطلق المسيحيون بالغرب لنجدة الشرق »[١].
٤٩٣	١٠٩٩	الصليبيون يستولون على القدس.
٥٤٩	١١٥٤	نور الدين زنكي (١١٤٦ – ١١٧٣) يستولي على دمشق ويوحد الشام.
٥٥٩	١١٦٣	أسد الدين شيركوه يقود الجيش الموجه لدعم مصر ويصطحب صلاح الدين – ابن أخيه – وفشل الحملة في تحقيق أهدافها وتعرضها للصعوبات.
٥٦٢	١١٦٦	نور الدين زنكي يوجه أسد الدين شيركوه

(١) كان اربان فصيحاً فاستولى على مشاعر الحضور واستثارها فأخذوا يرددون: هكذا أراد الله: (Deus - Le - Volt).

		من جديد إلى مصر. وأسد الدين يصطحب ابن أخيه صلاح الدين ويكرهه على مرافقته إلى مصر ..
٥٦٤	١١٦٨	أسد الدين شيركوه يحكم مصر ، ويقتل حاكمها شاور ، ثم يقضي نحبه ، وصلاح الدين يصبح حاكماً لمصر بدلاً من عمه .
٥٦٥	١١٦٩	الفرنج يهاجمون دمياط، ونور الدين يحاصر الكرك والموصل .
٥٧٦ — ٦٢٢ = ١١٨٠—١٢٢٥		(الناصر العباسي آخر دهاة بني العباس).
٥٦٧	١١٧١	إقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض دولة الفاطميين — العلويين — والوحشة بين نور الدين وصلاح الدين .
٥٦٩	١١٧٣	وفاة نور الدين محمود بن زنكي فيما كان يهم بمهاجمة مصر لإخضاع صلاح الدين وأسطول صقلية يهاجم الاسكندرية . وصلاح الدين يحتل دمشق وحمص وحماه ويتبعها لسلطته ويحاصر حلب .
٥٧٢	١١٧٦	انهزام صلاح الدين بالرملة وحصر الفرنج مدينة حماه .
٥٧٧	١١٨١	الإغارة على الكرك .
٥٧٨	١١٨٢	إغارة المسلمين على الغور وغيره من بلاد الفرنج .
٥٧٩	١١٨٣	صلاح الدين يقوم بغزو الكرك وبيسان ثم يعيد غزو الكرك في السنة التالية .

٥٨٢	١١٨٦	البرنس أرناط «رينالد دوشاتيون» يهاجم الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية ويغدر بقوافل المسلمين ، ويهاجم مدن المسلمين في البحر الأحمر .
٥٨٣	١١٨٧	حصار الكرك ، وصلاح الدين يهاجم عكا ويفتح طبريا ، ويقود معركة حطين ، ثم يفتح عكا ومجدل يابا وفتح عدة حصون ويافا وتبنين وصيدا وجبيل وبيروت وعسقلان وما يجاورها وفتح بيت المقدس وهونين .
٥٨٤	١١٨٨	فتح جبلة واللاذقية وصهيون وعدة حصون بكاس وفتح سرمينية – برزية – ودرك ساك وبفراس والكرك وما يجاورها وقلعة صفد وفتح كوكب .
٥٨٩	١١٩٣	وفاة صلاح الدين بطل حطين في دمشق (٥٣٢ – ٥٨٩ هـ = ١١٣٧ – ١١٩٣).

« ما أسرع ما ينتقل النبأ السيء . فما كاد القتال ينتهي في معركة حطين وتتحقق خسارة الفرنج لها ، حتى هرعت الرسل صوب الغرب لينهوا خبرها إلى أمراء أوروبا . ولم يلبث رسل آخرون أن اقتفوا أثرهم ينبئون بسقوط بيت المقدس . وذعر العالم المسيحي في الغرب لما علمه عن الكارثتين . فما من أحد في الغرب – باستثناء المجلس البابوي فيما يبدو – كان يدرك الخطر الدائم على الرغم من الاستغاثات التي جاءت من مملكة بيت المقـــدس في السنوات الأخيرة. إذ أن الفرسان والحجاج الذين ارتحلوا نحو الشرق صادفوا في امارات الفرنج من ترف الحياة ما يفوق في الأبهة والمرح كل ما كان يعرفه هؤلاء في أوطانهم بالغرب .

لقد سمعوا الحكايات عن البسالة العسكرية ، وشهدوا ما أصاب التجارة من ازدهار ، ولم يدركوا ما يتعرض له كل هذا الرخاء من خطر . على أنه حدث فجأة أن سمعوا أن كل ذلك قـد زال ، إذ تحطم الجيش المسيحي ، وأضحى صليب الصلبوت الذي يعتبر أقدس المخلفات الدينية في أيدي المسلمين ، بل إن القدس ذاتها أخذها المسلمون ، وفي خلال بضعة أشهر ، انهار كل البناء الذي أقامه الفرنج في الشرق ، فاذا كان لشيء أن ينجو من هذه الخرائب فلا بد من إرسال نجدة والتعجيل بايفادها »[1] .

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية – ستيفن رنسيمان – دار الثقافة ٣ / ١٩ – ٢٠ .

« والواقع ، ان سقوط القدس أحيا في اوروبا فكرة الحرب الصليبية من جديد. فحمل الصليب كل من فريدريك الأول – بربروسا – امبراطور ألمانيا وفيليب – أوغست – ملك فرنسا – وريكاردوس – ريشارد – قلب الأسد ملك انكلترا . بعد أن أصلح البابا ما بينهم . وفي آب – أغسطس سنة ١١٨٩ طوق الصليبيون عكا ، وبدأت الحملة الصليبية الثالثة التي قدر لصلاح الدين مجابهتها واحباطها » [١] .

١ – الوضع العام قبل حطين

آ – الموقف على جبهة الفرنج

لم تكن صيحة البابا اربان الثاني في مجمع كليرمونت :« فلينطلق المسيحيون بالغرب لنجدة الشرق » هي أول صيحة تنطلق بالدعوة للحرب الصليبية . كما أن مجمع كليرمونت الذي عقد بين ١٨ تشرين الثاني – نوفمبر – حتى ٢٨ منه سنة ١٠٩٥ هو أول مجمع كنسي يحاول توحيد الجهد لتنظيم الحملات الصليبية وتنسيق الجهد بين الكنائس الشرقية والغربية ، إلا أن الجهد الكنسي في هذه الفترة وصل إلى مرحلة مناسبة في فترة مناسبة .

ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى أخذت الحملات تتدفق من كل أنحاء المغرب وهي متوجهة إلى الشرق ، فاجتازت آسيا الصغرى حتى وصلت انطاكية ، فاستولت عليها ثم اتجهت على محورين الساحلي والداخلي (الروج – معرة النعمان – شيزر – مصياف – الأكراد) لتعود فتلتقي في طرابلس لتتابع طريقها إلى بيروت فصيدا حتى قيسارية ومنها إلى القدس . وانصرف الصليبيون لتنظيم دولهم فأقاموا مملكة القدس وإمارة انطاكية وإمارة الرها ، مع استقلال كل مدينة بحكم ذاتها .

---

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية – كارل بروكلمان دار العلم للملايين ٣٥٧ .

وفي أواخر سنة ١٠٩٩ بلغ غرب أوروبا نبأ استعادة المسيحيين للقدس ، فتلقاه الناس بالحماسة والسرور ، وحدث في الشتاء التالي أن عاد كثير من القادة الصليبيين بجيوشهم إلى بلادهم . واتفقت أحاديث العائدين إلى أوروبا بأن الشرق في حاجة إلى محاربين ومستعمرين ليواصلوا عمل الله . وأن بالشرق من الثروة والضياع الكبيرة ما ينتظر قدوم المغامرين وألحوا في إثارة حرب صليبية جديدة يباركها رجال الكنيسة .

وهكذا بدأ العمل للحملة الصليبية الثانية التي ضمت إليها اللومبارديين والألمان والفرنسيين . ولكن هذه الحملة اصطدمت بمقاومة الأتراك المستمرة ، ولا سيما بعد أن غادرت أنقرة . ثم حدثت المعركة الحاسمة بين المسلمين الأتراك والقوات الصليبية في مرسيفان في سنة ١١٠١ وأمكن للأتراك تدمير قوات هذه الحملة. ولم يكن نصيب الحملتين التاليتين من الألمان والفرنسيين أفضل من سابقتهما حيث أمكن للأتراك تدمير هذه القوات في هرقلة . وضمن الأتراك لأنفسهم السيطرة على الأناضول . وأدى ذلك إلى زيادة قوات الأتراك الذين عملوا على توحيد قواهم بقيادة سكمان أمير ماردين وجكرمش أمير الموصل . وأمكن بذلك تحرير إمارة الرها من حكم الصليبيين بعد معركة حاسمة على شاطىء نهر البليخ[1] عرفت باسم معركة حران سنة ١١٠٤ . وحطمت هذه المعارك المتتالية أسطورة « أن الفرنج لا يقهرون » ، وتحررت إمارة حلب من خطر التهديد الصليبي .

وتحول الصراع من الشمال إلى الجنوب حيث تابع الصليبيون توطيد سلطتهم

---

(١) تجدر الاشارة إلى أن هذه المعركة حدثت بالقرب من ساحة معركة كارهيه Carrhae القديمة والتي نجح فيها البارثيون – الفرس – باستئصال جيش الرومان الذي كان يقوده كراسوس وتميزت معركة الأتراك ضد الصليبيين في سنة ١١٠٤ بأنها كانت مجموعة من الكمائن والاغارات المنظمة بأحكام والذي أظهر فيها الأتراك كفاءه تعبوية – تكتيكية – رائعة ساعدتهم على تدمير جيوش الرها وانطاكية التي ضمت ٦ آلاف فارس و ١٨ ألف راجل .

وتوسيع ممالكهم ، فاستولوا على صيدا سنة ١١١٠ . ثم قاموا بمهاجمة مصر سنة ١١١٨ « بقيادة الملك بلدوين ملك القدس » ونظموا الإغارات على مـا وراء الأردن سنة ١١١٩ . وفي الشمال استمر الصراع حول حلب وإمارة الرها التي كانت السيطرة عليها هدف الصليبيين الأول لقطع الاتصال مع المشرق الإسلامي وتأمين الحماية لإمارتي أرمينيا وأنطاكية .

وفي سنة ١١٤٦ دمر نور الدين زنـكي قوات الصليبيين التي اقتحمت الرها . وأدى ذلك إلى استنفار الغرب من جديد « للحملة الصليبية الثانية » التي وصلت بلاد الشام سنة ١١٤٨ وهاجمت دمشق (٢٤ حزيران – يونيو – سنة ١١٤٨)، ولكن شجاعة حامية دمشق وإسراع نور الدين زنـكي بالتقـدم من حلب إلى دمشق أرغم الصليبيين على الانسحاب . ولم تحقق هذه الحملة أي نتيجة لمصلحة الفرنج بل على النقيض من ذلك . فقد أدت الانتصارات التي أحرزها المسلمون إلى زيادة قوتهم، كما أفاد نور الدين زنـكي من انتصاراته لتوحيد بلاد الشام، فدخل دمشق سنة ١١٥٤ .

ولم تكن العلاقة بين إمارات الصليبيين وممالكهم علاقة جيدة باستمرار ، وكثيراً ما كانت تسود المنازعات بينهم ، كما أن علاقة الصليبيين بالامبراطورية البيزنطية لم تكن بدورها علاقة ودية باستمرار . ولو أن إمارة أنطاكية كانت على الأغلب خاضعة للامبراطور البيزنطي .

ولعل أبرز تلك التناقضات هي التي برزت بعد فشل الحملة الصليبية الثانية حيث غادر كونراد الامبراطور الألمـاني عكا في ١٨ أيلول – سبتمبر – ١١٤٨ متوجهاً إلى سالونيك حيث نزل في ضيافة الامبراطور البيزنطي – مانويل – وعقد الامبراطوران حلفاً ضد روجر ملك صقلية وحليفه لويس السابع ملك فرنسا . وتم تتويج الحلف الألماني – البيزنطي بزواج هنري دوق أوستريا – شقيق كونراد – على ابنـــة أخ الامبراطور البيزنطي مانويل – واسمها –

ثيودورا -[1]. وفي الوقت ذاته فعندما غادر لويس السابع فلسطين في أوائل صيف سنة ١١٤٩ نزل في كالابريا حيث استقبله الملك الصقلي روجر وعقدا معاهدة لمناهضة خيانة البيزنطيين وغدرهم.

وقد حاول الكاردينال تيودوين وبطرس المبجل والقديس برنارد إقناع كونراد لدعم الحملات الصليبية بعد ذلك وتوسلوا إليه للتخلي عن عدائه لملكي فرنسا وصقلية، إلا أنه رفض الوقوع في الفخ مرة أخرى بعد أن فشل في حملته السابقة. وهكذا فإن المقاومة الضارية للمسلمين أخذت في تحويل الموقف في غير صالح الصليبيين في المشرق.

ويعتبر المؤرخون أن فشل الحملة الصليبية الثانية في الوصول إلى أهدافها كان نقطة تحول في تاريخ الفرنج بالشرق، إذ أن سقوط الرها أتم المرحلة الأولى في الإفاقة الإسلامية وما جناه المسلمون من أرباح أكدها الانهيار الفاجع الذي تعرضت له الحملة الكبيرة التي ما جاءت إلا من أجل فرض سيادة الفرنج على البلاد الإسلامية.

ولعل من أهم أسباب هذا الفشل، ما ظهر من التباين والاختلاف في العادات والاتجاه بين الفرنج النازلين بالشرق وبين بني عمومتهم القادمين من الغرب، إذ أن الصليبيين في الحملة الثانية صدمهم ما اكتشفوه في فلسطين من قيام مجتمع غيَّر

---

(١) لقد كانت التناقضات بين البيزنطيين وهؤلاء الغزاة القادمين من الغرب أكبر - في بعض الأحيان - من تلك القائمة بين البيزنطيين والأتراك المسلمين بحيث أنه تم اتفاق أثناء الحملة الثانيه بين الامبراطور مانويل والأتراك على عدم الاعتداء فيما بينهما، وتفرغ الترك لقتال الصليبيين، وقد أثار هذا الاتفاق اللاتين الذين اتهموا البيزنطيين بالخيانة والتعاون مع أعداء الدين. ولعل ما تمت إشاعته عند زواج الألماني هنري دوق أوستريا بثيودورا البيزنطية كافياً لتصوير مشاعر الكراهية بين البيزنطيين - المتحضرين - والألمان - البرابرة المتوحشين. وذكر أنه عندما أعلن الزواج: « جزع البيزنطيون وبكوا حينما شهدوا أميرتهم الصغيرة الجميلة، تبذل لمصير بالغ الوحشية والهمجية - أو تقدم قرباناً لحيوان من الغرب ».
(تاريخ الحروب الصليبية ٢ / ٤٥٨ - ٤٥٩)

أفراده في جيل واحد أسلوب حياتهم وطرائق معيشتهم وأصبحوا يتحدثون باللهجة الفرنسية ، غير أنهم ظلوا أوفياء للكنيسة اللاتينية . أما بالنسبة للتنظيم العسكري ، فقد ادعى ملك القدس لنفسه السيادة على سائر إمارات الفرنج بالشرق . ورأى أن من حقه أن يطلب من أمرائها أن يرسلوا العساكر للانحياز إليه في حملاته ، إلا أن هذه السيادة لم تظهر في الواقع إلا حينما كان لدى الملك من القوة ما يكفي لفرضها ، بل إن أنطاكية أو طرابلس لم تعتبر من الناحية النظرية جزءاً من بيت المقدس .

ب – الموقف على جبهة المسلمين :

وصلت الدولة السلجوقية إلى أوج قوتها عندما خاضت معركة ملازكرد (سنة ١٠٧١ م) ، ولكن هذه الدولة أخذت في التدهور بعد موت « ملك شاه » سنة ١٠٩٢ ،واضطر الترك إلى خوض صراع فيما بينهم استمر عشر سنوات إلى أن تم الاتفاق على اقتسام المملكة .

وفي تلك الفترة كانت العراق مسرحاً للاضطرابات والثورات التي قادها العرب والترك . أما في الشام فقد مات تتش سنة ١٠٩٥ ولم يتمكن ولداه – رضوان ملك حلب ودقاق ملك دمشق من السيطرة على الموقف إلا بعد جهد كبير . وانتقلت القدس إلى حكم الأراتقة . أما طرابلس فكانت تحت حكم بني عمار من الشيعة . وأفاد الفاطميون في مصر من هذا الاضطراب فبسطوا نفوذهم على فلسطين وأخضعوا القدس لحكمهم. أما الموصل فكانت تحت حكم « كربوقا» وقد حاول هؤلاء جميعاً التصدي للصليبيين عندما وصلوا إلى أنطاكية ، إلا أن استيلاء الصليبين – بالخيانة – على أنطاكية [1] فت من عضد المسلمين وأوهن قواهم .

---

(١) كانت أنطاكية تحت حكم ياغي سيان التركماني والذي عينه ملك شاه السلجوقي أميراً عليها وعندما علم ياغي سيان بزحف الصليبيين استنفر المسلمين.فأسرع دقاق أمير دمشق بجيشه،كما =

وقــد قاومت المدن الإسلامية زحف الصليبيين – على نحو ما فعلته معرة النعمان – غير أن مدناً أخرى فضلت تجنب الحرب وعقد صلح مع الغزاة – على نحو ما فعله أمراء حماة وحمص وشيزر وطرابلس. ولكن المذابح التي ارتكبها الصليبيون على امتداد الطريق الذي سلكوه منذ وصولهم إلى آسيا الصغرى ومروراً بمذابح أنطاكية ونهاية بمذابح القدس وغيرها من مدن فلسطين، هذه المذابح فجرت غضب المسلمين. كما أن استمرار التحدي وَلَّدَ لدى المسلمين الاستجابة المناسبة (١).

ولقد ظهر في تلك الفترة أن إمارات الشام الممزقة أضعف من أن تقوى على مجابهة التحدي الصليبي، أما في الشمال فكان قلج ارسلان زعيماً قوياً للسلاجقة، إلا أنه لم يتمكن من الصمود، وانتزع الصليبيون عاصمته نيقية، ممـــا زاد من

= أسرع كربوقا أمير الموصل كما وعد الخليفة العباسي بإرسال جيش لنجدة انطاكية غير أن فيروز الأرمني الذي كان مسيحياً ثم أسلم ووصل إلى مرتبة معاون لحاكم أنطاكية ياغي سيان – اتصل سراً ببوهمند قائد الصليبيين وباعه أنطاكية سراً، وسهل له دخول الفرنج إليها. وعندما وصل كربوقا إلى أنطاكية خاض معركة فاشلة، ثم انسحب دقاق بجيش الشام، وحقق الصليبيون انتصارهم الحاسم الذي مهد لهم الوصول إلى الأماكن المقدسة.

(١) يذكر – على سبيل المثال – أنه بعد استقرار الصليبيين في القدس، أخذوا في الإغارة على المناطق المجاورة لهم. وفي ١٨ حزيران – يونيو – ١١٠٠، قامت قوات كبيرة وأغارت على الأردن ووصلت حتى جوف الجولان، وأثناء عودتها انقض على مؤخرتها جيش دمشق بقيادة الأمير دقاق ودمرها وأوقع فيها خسائر فادحة. وحاول الصليبيون الانتقـــام، فقاموا بإغارة أقوى من الأولى وصلت إلى دمشق، مما دفع ملكها الأمير دقاق إلى طلب عقد هدنة، فبعث قائد قوات الصليبيين «تانكرد» إلى دمشق بستة فرسان يحملون رسالة تتضمن أنه ينبغي على دقــاق إما أن يصير مسيحياً أو أن يغادر دمشق. فهـاج دقاق لهذه الاهانة ورد على الرسل بأنه ينبغي عليهم أن يعتنقوا الاسلام وإلا لقوا مصرعهم. فلم يتخل عن دينه غير فارس واحد وتعرض الخمسة الباقون للقتل. وأراد الصليبيون الانتقـــام فجردوا قوات كبيرة، واستمروا في تدمير الجولان مدة أسبوعين، ولزم المسلمون مواقعهم خلف أسوار مدنهم. وانتهت هذه الاغارة بنتيجة واحدة، هي تدمير الموارد الغذائية التي حرمت منها قوات الصليبيين أكثر ممـــا حرمت منها قوات المسلمين.

ضعفه . غير أن كثرة المهاجرين التركمان إلى الأناضول هيّأت له الوسيلة التي يعيد بها تأليف جيشه ، ودبّرت له من السكان مَن يضايقون المسيحيين .

وفي الأناضول أيضاً ، كانت هناك إمارة دانشمند التي هي أقوى إمارات السلاجقة المسيطرة على الشطر الشمالي لشبه جزيرة آسيا الصغرى ، والتي أحرز أميرها أنوشتكين شهرة كبيرة بانتصاره على الصليبيين وأخذ بوهمند أسيراً ، وبذلك كان أول زعيم مسلم انتصر على جيش من فرسان الفرنج. وأخذ يزداد قوة بما تدفّق من هجرات التركمان . أما في جنوب الشام ، فقد بقيت مصر هي الكتلة الوحيدة التي لا زالت متماسكة وقوية عسكرياً، كما كان لديها بحرية جيدة.

وعلى الرغم من محاولات الفاطميين التفاهم مع الصليبيين في بداية الأمر ، إلا أن استيلاء الصليبيين على القدس التي كانت تحت حكم الفاطميين ، ثم تدمير الجيش المصري ، دفع الفاطميين للانتقام من هزيمتي القدس وعسقلان . ودفع الوزير الفاطمي – الأفضل – حملة قوية أسند قيادتها لمملوكه سعد الدولة الطواشي . وبلغت هذه الحملة عسقلان في منتصف أيار – مايو – سنة ١١٠١ ، وخاضت معارك متتالية في الرملة،تناوب فيها المسلمون والصليبيون النصر أكثر من مرة. وفي أيار – مايو – من سنة ١١٠٢ ، حشد الفاطميون جيشاً يضم ٢٠ ألفاً من العرب والسودانيين ، بقيادة شرف المعالي ابن الوزير الأفضل . وانتصر هذا الجيش على الصليبيين الذين حشدوا قواتهم في الرملة . ثم انتزع الصليبيون من المصريين النصر في يافا .

وفي صيف سنة ١١٠٥ قام الوزير الأفضل بآخر محاولة لاسترداد فلسطين ، فاحتشد في عسقلان جيش كثيف من خمسة آلاف من فرسان العرب ورجالة السودانيين بقيادة ابنه سناء الملك . وإذ أفاد المصريون من الدروس السابقة ، عزموا على أن يطلبوا التعاون من أمراء دمشق الترك. غير أن دقاقاً أمير دمشق كان قد توفي سنة ١١٠٤ ، وأدّى ذلك إلى صراعات داخلية ممـا حرم الجيش المصري من دعم جيش دمشق دعماً كاملاً ، فقد أسرعت بعض قوات دمشق

للالتحاق بالجيش المصري عنـد وصوله إلى الرملة . والتقى المسلمون والصليبيون يوم الأحد ٢٧ آب – اغسطس – سنة ١١٠٥، ودارت معركة طاحنة استمرت طوال النهار ، حيث ظهر في المساء أنه من الصعب على المسلمين انتزاع النصر ، فتراجع سناء الملك وانسحب إلى القاهرة .

غير أن الصراع لم يتوقف ففي سنة١١٠٦ أغار فرسان المصريين على معسكر صليبي بين أرسوف ويافا وأبادوا النازلين به . وفي سنة ١١٠٧ قام المصريون بهجوم وصلوا به إلى حبرون . وفي سنة ١١١٠ وصلت قوات المصريين حتى أسوار القدس .

ومقابل ذلك شدد الصليبيون هجماتهم على المدن الساحلية التي لا زالت خارج قبضتهم ، فاحتلوا صيدا سنة ١١١٠ ولم يبقَ في قبضة المسلمين على الساحل سوى عسقلان ومدينة صور ، ثم تابع الفرنج توسيع مملكتهم في اتجاه الجنوب فقاد بلدوين ملك القدس قوات الصليبيين واستدار نحو البحر الميت واجتاز وادي العرابة في سنة ١١١٥ وهو الوادي الأجرد الصلد الممتد من البحر الميت إلى خليج العقبة ، فوصل إلى إحدى البقاع القليلة الخصيبة المتناثرة في ذلك الإقليم الموحش وهذه البقعة هي المعروفة بالشوبك وتقع في منطقة غابات بين المنخفض وبلاد العرب . وفي تلك البقعة التي تبعد نحو مائة ميل عن أقرب مكان ينزل به الفرنج شيّد قلعة ضخمة ، أنزل بها حامية عسكرية ، وشحنها بالذخائر ، وأطلق عليها اسم « جبل الملك »[١] .

---

(١) عاد الملك بلدوين في السنة التالية – ١١١٦ – فقاد جيشاً يتبعه قطار من البغال التي تحمل المؤن ، وأوغل في مجاهل بلاد العرب، وزار من جديد حصن الشوبك ، ثم مضى في طريقه صوب الجنوب مخلفاً وراءه جبل الملك Le Krak De. Montréal حتى بلغ آخر الأمر العقبة على ساحل البحر الأحمر . واحتل بلدوين البلدة التي أطلق عليهـا الفرنج اسمه – ايله أو إلين – وحصنها بأن أنشأ قلعة بها ثم أقلع إلى جزيرة صغيرة اسمها جزيرة فرعون وعرفها الفرنج باسم Le Graye فشيد بها قلعة أخرى.وترك بهذين المعقلين حاميتين عسكريتين . وبفضلها أضحى =

وأثناء ذلك تابع الفاطميون صراعهم فوجهوا جيش مصر سنة ١١١٣ لمهاجمة الصليبيين ووصلوا بهجومهم حتى أسوار القدس . وفي سنة ١١١٥ كادت القوات المصرية تحقق نصراً حاسماً على الصليبيين قرب يافا . ومقابل ذلك قام بلدوين بقيادة قوة صغيرة أغار بها على مصر ، فوصل الفرما وأوغل في تقدمه على امتداد نهر النيل ،وإذ دهمه المرض عاد في اتجاه فلسطين حيث دهمه الموت أثناء الطريق وفي ١٤ نيسان – ابريل – سنة ١١١٨ تم انتخاب بلدوين لي بور ملك الرها وابن عم الملك الراحل ملكاً على القدس باسم « بلدوين الثاني » .

واستمر الصراع بعد ذلك في الشمال والجنوب ، في البر والبحر . لقد جاء الفرنج إلى فلسطين للسيطرة والاستيطان ، ولم تكن موارد فلسطين كافية لهم ، فكان لا بد لهم من تطوير الأعمال العدوانية باستمرار ، ولم يكن باستطاعة المسلمين التسليم لأعدائهم بالسيادة على أرضهم وثرواتهم . ولما لم يكن باستطاعة الفرنج إتقان عمل غير الحرب ، فقد كان لا بد لهم من نهب كل ما يحيط بهم والإغارة على القوافل الإسلامية ، مما كان يزيد من حدة الصراع . ومن خلال هذا الصراع ظهر الزنكيون في الموصل ليأخذوا على عاتقهم واجب قيادة الجهاد .

وعندما قتل عماد الدين زنكي سنة ١١٤٦ ، كان قد وضع الأسس الكفيلة بتطوير الصراع لمصلحة المسلمين . وجاء نور الدين ليتابع طريق أبيه ، حيث توجه إلى حلب التي كانت تحت حكم أسد الدين شيركوه الكردي – شقيق نجم الدين أيوب – وهناك حصل نور الدين على الدعم الذي مكنه من شق طريقه نحو السلطة [١] .

= الفرنج يتحكمون في الطرق التي تصل بين دمشق والجزيرة العربية ومصر. وصار من اليسير عليهم أن يغيروا على القوافل الاسلامية كيفما شاؤوا ، بينما تعذر على أي جيش إسلامي أن يصل إلى مصر من بلاد الشام .

(١) عندما قتل عماد الدين زنكي على يد خادمه الذي كان ينتمي أصلاً إلى الفرنج وذلك في ليلة ١٤ أيلول – سبتمبر – سنة ١١٤٦ ، ظن الفرنج أن باستطاعتهم الافادة من الموقف =

وحاول الفرنج الإفادة من الموقف فوجه أمير أنطاكية – ريموند – قواته للإغارة على حلب . بينما أعد – جوسلين – جيشاً لاستعادة الرهاء . واستطاع نور الدين تدمير جيش جوسلين في الرهاء يوم ٢٧ تشرين الأول – أكتوبر – وفي الجنوب ، أعلن أمير بصرى وصلخد – التونتاش – تمرده على « أنر » ملك دمشق وخرج الصليبيون لدعم تونتاش الذي انضم إليه في حين طلب « أنر » دعم نور الدين من حلب ، وأسرع نور الدين لنصرة دمشق ودعم جيشها [١] ، وتمّ الاستيلاء على بصرى التي سلمتها زوجة التونتاش للقائدين نور الدين وأنر . وفي مساء اليوم الذي احتل فيه المسلمون بصرى اقتربت قوات الصليبيين فعملت على تدميرها وإرغامها على الانسحاب .

ولم يفد من هذه الحملة إلا نور الدين الذي عاد إلى حلب ليتابع ما كان قد صمم على تنفيذه ، وهو انتزاع كل بلاد أنطاكية الواقعة شرقي نهر العـــاصي

= المتدهور الذي نشأ عن غياب أكبر أعداء الصليبيين. ذلك أنه ما إن أشيع نبأ مقتل عماد الدين حتى أسرع أكبر أبنائه سيف الدين غازي إلى الموصل وبرفقته الوزير جمال الدين الأصفهاني فتولى الحكم بها ، في حين توجه نور الدين إلى حلب . وفي الجنوب احتلت قوات معين الدين أنر ملك دمشق مدينه بعلبك التي كانت تابعة للزنكيين ، كما أن جيش دمشق أرغم أمير حمص وأمير حماه على إعلان التبعية لدمشق ، أما في الشرق فتطلع ألب ارسلان السلجوقي لفرض سلطته – غير أنه باء بالفشل – بينما استرجع أراتقة دياربكر المدن التي كان عماد الدين زنكي قد انتزعها منهم .

(١) كان التونتاش أمير بصرى وصلخد أرمني الأصل اعتنق الاسلام، وفي أوائل سنة ١١٤٧ خرج على أنر، وأعلن استقلاله عن دمشق وقدم إلى بيت المقدس يلتمس المساعدة . وقرر الفرنج دعمه ، فخرج جيش صليبي في أيار – مايو – سنة ١١٤٧ بقيادة الملك بلدوين الثالث ، فعبر نهر الأردن وزحف على إقليم الجولان، وكان « أنر » قد استعد لذلك ، واستنفر التركمان والعرب النازلين في المنطقة من أجل مضايقة الفرنج أثناء معاناتهم لالتماس الطريق بوادي اليرموك إلى درعا . كما كان – أنر – قـد أرسل سفارة إلى حلب يلتمس العون والمساعدة من نور الدين . وفرح نور الدين عندما تلقى هذا الطلب ، فانعقد التحالف بينهما ، وخطب نور الدين لنفسه ، ابنة أنر لتكون زوجة له ، ووعد بأنه سوف ينهض على الفور لنجدته ، وتقرر أن تعود مدينة حمـاة إلى حكم نور الدين . وأسرع نور الدين نحو الجنوب حيث انضمت إليه قوات دمشق وأمكن لهما الاستيلاء على بصرى وتدمير الصليبيين الذين كانوا قد تجاوزوا درعا .

« الأورنت » فلم تنته سنة ١١٤٧ حتى أضحى في يديه ارتاح و كفرلاثا والبلاط وبسرفوت ، وعلى هذا النحو ظهر نور الدين على أنه أكبر عدو للصليبيين .

وإذ ظهرت قوه نور الدين وأخذت في التعاظم ، أسرع ملك بيت المقدس (وكانت الملكة ميليسند تمارس دور الملك في تلك الفترة) لاستنفار قوى الغرب وترغيبهم في إرسال حملة صليبية جديدة . وكان الملك كونراد – أو كنراد – ملك ألمانيا هو أول من استجاب للدعوة وتبعه ملك فرنسا،وما إن وصل الجيش الالمـاني إلى قرب دوريليوم حتى انقضّ عليه السلاجقة ودمّروه تدميراً شبه كامل ، وأرغموا العُشر البـاقي على الفرار إلى نيقية يوم ٢٥ تشرين الأول – اكتوبر – سنة ١١٤٧ .

وعندما وصل الجيش الفرنسي في أول تشرين الثاني – نوفمبر – علم بما تعرّض له الجيش الالماني من كارثة مروعة ، والتقى الملكان كنراد ولويس ووضعا خطة للتحرك المشترك . غير أن كنراد اضطرّ للعودة إلى القسطنطينية ، في حين صمّم الجيش الفرنسي على متابعة تقدُمه ، بالرغم من نصيحة الامبراطور البيزنطي له بتجنب الاشتباك مع الأتراك . وكانت مسيرة الجيش الفرنسي شاقة ، إذ لم تتوقف إغارات الأتراك السلاجقة على مؤخرات الجيش وتدمير عناصره المنعزلة بصورة مستمرة ، بحيث أنه لم يصل إلى السويدية إلا نذر يسير من بقايا هذا الجيش .

وفي هذه الفترة ، كان نور الدين يتابع تحرير الشمال . ووجد ريموند ، أمير أنطاكية ، أنه أمام خطر مزدوج : خطر السلاجقة الذين كان يقودهم مسعود سلطان قونية ، ونورالدين الذي كان يتحالف مع مسعود في حربه ضد الصليبيين. فتحالف ريموند – بدوره – مع زعيم الحشاشين – الاسماعيلية – واسمه علي بن وفا الكردي ،وقام هؤلاء بهجوم مباغت على نورالدين في تشرين الثاني – نوفمبر – سنة ١١٤٨ ، في أفامية الواقعة على الطريق المتــد من أنطاكية إلى مرعش ، ولكن هذا الهجوم لم يحقق أهدافه .

وفي ربيع سنة ١١٤٩ ، قام نور الدين بقيادة المسلمين وأنزل الهزيمة بريموند

في بغراس . ثم توجه جنوباً لينازل حصن إنب ، وهو من الحصون القليلة التي بقيت في قبضة الفرنج شرقي نهر العاصي ، فنهض ريموند في جيش صغير لنجدة الحصن، ومعه حلفاؤه الباطنيون بزعامة علي بن وفا. وفي ٢٨ حزيران – يونيو– عسكر الجيش الصليبي في منخفض قرب عين مراد ، في السهل الواقع بين إنب ومستنقع الغاب. وفي أثناء الليل، زحف جند نور الدين وطوّقوا جيش الفرنج. وفي صبيحة اليوم التالي ، أدرك ريموند أنه لا سبيل للنجاة إلا باقتحام صفوف المسلمين. ودارت معركة طاحنة قُتل فيها رينالد سيد مرعش وعلي بن وفا زعيم الحشاشين ، وريموند الذي قتله شيركوه .

وتابع نور الدين طرد الصليبيين من حصون الشمال ، فاستولى في سنة ١١٥٠ على حصون ارزجان وتل كشفان، ثم تغلب على حاميتي أرتاح وحارم . ثم توجه نحو الغرب حيث ظهر أمام أسوار أنطاكية ذاتها . وامتدت غاراته حتى بلغت السويدية . وفي تلك الفترة ، وقع جوسلين كونت الرها في كمين نصبه بعض جند التركمان – السلاجقة – فأرسل نور الدين ثلة من الفرسان لانتزاعه من أيدي الذين أسروه ، وأمر بسمل عينيه وبإلقائه في الحبس بحلب ، حيث ظل فيه إلى أن مات بعد تسع سنوات (سنة ١١٥٩) .

وبذا لم يحل صيف سنة ١١٥٠حتى فقدت كل من إمارة انطاكية– وما تبقى من كونتية الرها – القادة الذين كانوا يحكمونها . وأصبح نور الدين سيد الشمال دون منازع ، وأدّت زيادة قوة نور الدين إلى قيام تحالف بينه وبين السلطان مسعود السلجوقي – وكان ذلك غداة أسر جوسلين – وأكده نور الدين بزواجه من ابنة مسعود – ولم يكن المهر سوى تل باشر – غير أن مسعود لم ينضم إلى صهره نور الدين حين هاجم بياتريس، بينما اكتفى بالاستيلاء على كيسوم وبهسنا بشمال كونتية الرها ، ثم بذلها لابنه قلج ارسلان .

على أنه حدث في ربيع سنة ١١٥١ أن اشترك مسعود مع نور الدين في شن الهجوم على الحاميات البيزنطية ، وهرع إليها أمراء الأراتقة ليأخذوا بنصيبهم

في هذا الهجوم . فسقطت عين تاب ودلوك في قبضة مسعود ، بينما استولى أمير ماردين – تمرتاش الأرتقي – على سميساط والبيرة . ووقعت راوندان في يدي نور الدين ، واستسلمت حامية تل باشر في تموز – يوليو – سنة ١١٥١ إلى حسان صاحب منبج – نائب نور الدين – فزال بذلك كل ما تبقى من أثر لكونتية الرها. ولجأت الكونتيسة بياتريس بطفليها جوسلين وأجنس إلى القدس بعد أن فقدت كل ممتلكاتها .

٢ – الوضع الخاص قبل المعركة

آ – رينالدشاتيون

كان بين الفرسان الذين تبعوا ملك فرنسا – لويس السابع – في الحملة الصليبية الثانية ، شاب اسمه « رينالدشاتيون » الابن الأصغر لجيوفري كونت جيين وسيد إقطاع شاتيون سيرلوانج ، ولما عاد ملك فرنسا تخلف عنه رينالدشاتيون وبقي في فلسطين لأنه ما من حافز يدفعه للعودة إلى فرنسا . ودخل « رينالد » في خدمة الملك الشاب بلدوين ملك القدس الذي صحبه إلى انطاكية سنة ١١٥١ . ولم تلبث الأميرة الأرملة « أميرة انطاكية » أن لحظته فتزوجته في أيار – مايو – سنة ١١٥٣ . بعد أخذ موافقة ملك القدس « بلدوين » وموافقة الامبراطور البيزنطي « مانويل » وأصبحت الأميرة كونستانس زوجاً لرينالدشاتيون الذي أصبح أميراً على انطاكية [١] .

---

(١) تذكر بعض المصادر التاريخية أن كونستانس تزوجت سراً بالأمير رينالدشاتيون قبل إعلان زواجها الرسمي ، وقبل الحصول على الموافقة من ملك القدس والامبراطور البيزنطي وفقاً لما ذكره المؤرخ وليم الصوري William of Tyre , XVII , 26. P 802 وساد اعتقاد بين الأسرات الكبيرة في انطاكية أن هذا الزواج هو زواج غير متكافىء وان الأميرة قد انحدرت وانحطت بأن وهبت نفسها لهذا الحدث .

ويمكن بعد ذلك إيجاز حياة هذا القائد الذي كان سبباً مباشراً لمعركة حطين والذي تذكره المصادر العربية إسم « البرنس أرناط » :

في سنة ١١٥٤ ، وبناء على اتفاق مع الامبراطور البيزنطي قام رينالد بمهاجمة توروس ملك الأرمن وألحق به الهزيمة وأعاد الأرمن إلى قيليقية ومنح الداوية المواقع التي طرد الأرمن منها ، وجعل لهم السيطرة على الاسكندرونة وقلعتي قسطون وبغراس ،ثم عاد فتحالف مع الأرمن لمهاجمة الحصون البيزنطية في قيليقية بعد أن رفض الامبراطور البيزنطي مساعدته بالمال .

في سنة ١١٥٥ ،أقدم رينالد على حبس بطريرك أنطاكية – ايمري – وتعذيبه وضربه بقسوة على رأسه ثم دهن جراحه بالعسل ووضعه بالشمس يوماً كاملاً حتى دفع له ما يريده من أموال ضخمة ، وجاءت سفارة من القدس حملت ايمري معها.

في سنة ١١٥٦ ، قاد رينالد إغارة من الداوية – الطائفة الدينية الفرنسية – وهاجم بها قبرص التي كانت تابعة للامبراطور البيزنطي ، وقام رينالد بنهب قبرص وتدميرها تدميراً تاماً واستباحتها بحيث لم تقم لها بعد ذلك قائمة .

في سنة ١١٥٨ ، توجه الامبراطور البيزنطي – مانويل – بجيش ضخم إلى انطاكية ، فما كان من رينالد إلا أن ارتدى ثوب التوبة ، وعجل بالمسير إلى معسكر الامبراطور ، وعفى عنه الامبراطور بشروط ثلاثة : ١ – أن يبادر بتسليم قلعة انطاكية إلى حامية الامبراطور . ٢ – أن يمد الجيش الامبراطوري بكتيبة من عنده . ٣ – أن يكون بطريرك انطاكية يونانياً لا لاتينياً ، وأقسم رينالد على احترام هذه الشروط ، ثم أذن له الامبراطور بالانصراف (١) .

---

(١) ورد في تاريخ الحروب الصليبية ٥٦٨/٢ – ٥٦٩ وصفاً لاستقبال الامبراطور لرينالد جاء فيه : « حرص مانويل على ألا يسمح لرينالد بالمثول بحضرته إلا بعد أن انتظر فترة من الزمن ليجعل منه تابعاً ذليلا ، وفي جلسة حافلة بالاتزان والوقار ، جلس فيها الامبراطور على عرشه بالسرادق الكبير ، وحف به رجال البلاط والسفراء الأجانب ، واصطف رجال الكتائب =

في سنة ١١٦٠ ، قاد رينالد قواته للإغارة على قطعان الأغنام في وادي نهر الفرات،وعند عودة رينالد من إغارته وقع في كمين نصبه له والي حلب مجد الدين – الذي نشأ وتربى مع نور الدين زنكي – وأسره المسلمون وأرسلوه مع رفاقه إلى سجن حلب حيث بقي فيه لمدة ستة عشر عاماً لم يحاول خلالها أحد افتداءه.

في سنة ١١٧٥ ، أطلق المسلمون سراح رينالدشاتيون ، ولم تمض بضعة شهور على اطلاق سراحه حتى تزوج من وريثة إقطاع بلاد ما وراء نهر الأردن «ستيفاني أرملة مايلز بلانسي» .

في سنة ١١٨١ ، نقض رينالد الهدنة التي عقدها الفرنج مع صلاح الدين في السنة السابقة ، فقاد قواته صوب الشرق حتى وصل إلى واحة تيماء ، الواقعة على الطريق الممتد من دمشق إلى مكة . وقرب الواحة انقضّ على قافلة كانت تسير مطمئنة إلى مكة [1] واستولى على كل ما تحمل من السلع التجارية . غير أن صلاح الدين الذي كان وقتذاك في مصر – بادر إلى إرسال حملة عاجلة بقيادة فروخشاه – ابن أخيه – من دمشق فنفذت إلى إقليم ما وراء الأردن ، فلم يسع رينالد إلا أن يسرع بالعودة إلى إقطاعه .

في سنة ١١٨٢ ، قام رينالد بالتوجه إلى أيلة الواقعة على رأس خليج العقبة ، وحمل إليها السفن التي أعدها من أخشاب اتخذها من غابات مؤاب وجرّبها في مياه البحر الميت ، وسقطت ايلة في يده بعد أن ظلت في حوزة المسلمين منذ سنة ١١٧٠ . وأقام رينالد بأيله لينازل جزيرة فرعون بسفينتين ، بينما انطلقت بقية

=بأسلحتهم على الطرق المؤدية إلى مجلسه،أعلن رينالد خضوعه وإذعانه إذ سار هو وحاشيته حفاة الأقدام ، حاسري الرؤوس ، مخترقين المدينة إلى المعسكر الواقع خارجها ، فانبطح على وجهه في التراب أمام منصة الامبراطور ، بينما رفع رجاله أيديهم متضرعين ، ولم يحفل مانويل بالالتفات إليه إلا بعد لحظات عديدة » .

(١) كانت اتفاقيات الهدنة تنص على حرية التنقل للتجار المسلمين والمسيحيين ، وأن يجتاز كل من الجانبين بلاد الجانب الآخر ، على أن رينالد ساءه أن يرى القوافل التجارية الاسلامية الوافرة الثروة تسير مطمئنة قرب اقطاعه فقام بإغارته هذه بدون أن يحفل بما يترتب عليها من نتائج .

سفن الأسطول يسيرها قراصنة محليون . فالتزموا في سيرهم الساحـل الأفريقي للبحر الأحمر ، وأخذوا يغيرون على كل مـــا صادفهم في طريقهم من البلدان الصغيرة، فهاجموا ونهبوا عيذاب وهي ميناء كبير للنوبة يقع قبالة مكة المكرمة وبها استولوا على سفن تجارية زاخرة بالسلع قدمت من عـدن ومن الهند وهبطت إلى البر جماعة هاجمت قافلة ضخمة لا مدافع عنها كانت قادمة عـبر الصحراء من وادي النيل، ثم اجتاز القراصنة البحر الأحمر من عيذاب إلى ساحل بلاد العرب، فأشعلوا الحرائق في السفن الراسية بالحوراء وينبع مينائي المدينة ، ثم أوغـلوا حتى بلغوا غابر من موانىء مكة المكرمة ذاتهـا ، وأغرقوا بالقرب منها سفينة كان يستقلها الحجاج وتتجه إلى جدة . وارتاع العالم الاسلامي لما حدث ، بل إن أميري حلب والموصل اللذين التمسا مساعدة الفرنج ، خجلا لاتخاذهما حلفـــاء دبروا انتهاك حرمة الدين. ونذر صلاح الدين أنه لن يغفر لرينالد محاولة انتهاك حرمة الدين [1] .

---

(١) أورد ابن الأثير في الكامل في التاريخ مصير هذه الحملة بما يلي : « بغت الناس في بلادهم على حين غفلة ، ذلك أنهم لم يعهدوا بهـذا البحر فرنجياً ولا تاجراً ولا محارباً . وكان بمصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب ينوب عن أخيه صلاح الدين ، فعمر اسطولاً وسيره وفيه جمع كثير من المسلمين ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو متولي الاسطول بديار مصر . وكان مظفراً فيه شجاعاً كريماً . فسار لؤلؤ مجـداً في طلبهم فابتدأ بالذين على أيلة ، فانقض عليهم انقضاض العقاب على صيده فقاتلهم، فقتل بعضهم وأسر الباقي . وسار من وقته بعد الظفر يقص أثر الذين قصدوا عيذاب ، فلم يرهم ، وكانوا قد أغاروا على ما وجدوه بها ، وقتلوا من لقوه عندها. وساروا إلى غير ذلك المرسى ليفعلوا كما فعلوا فيـــه ، وكانوا عازمين على الدخول إلى الحجاز مكة والمدينة حرسها الله تعالى ، وأخذ الحاج ومنعهم عن البيت الحرام والدخول بعد ذلـــك إلى اليمن ، فلما وصل لؤلؤ إلى عيذاب ولم يرهم ، سار يقفوا أثرهم فبلغ رابغ وساحل الجوزاء وغيرهما فأدركهم بساحل الجوزاء ، فأوقع بهم هناك ، فلما رأوا العطب وشاهدوا الهـلاك ، خرجوا إلى البر واعتصموا ببعض تلك الشعاب . فنزل لؤلؤ من مراكبه اليهم وقاتلهم أشد قتال ، وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هناك فركبها وقاتلهم فرساناً ورجالة ـ مشاة ـ فظفر بهم وقتل أكثرهم وأخـــذ الباقين أسرى، وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها (!) ـفي عيد الأضحىـ عقوبة لمن رام إخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم . وعاد بالباقين إلى مصر فقتلوا جميعهم .

ب - صلاح الدين الأيوبي

كانت الدولة الفاطمية قد وصلت إلى نهاية عهدها في سنة ٥٥٩ هـ = ١١٦٣ م وأصبح العاضد لدين الله العلوي مستضعفاً يتحكم به وزراؤه المتنافسون، وحدث في هذه السنة أن تغلب ضرغام على شاور، وطرده من مصر، فتوجه الوزير شاور إلى نور الدين زنكي يستنصره، فوجه نور الدين جيشاً بقيادة أفضل أمرائه - أسد الدين شيركوه - الذي استطاع قتل ضرغام وإعادة شاور إلى الوزارة، ولكن هذا نكث بعهده [١] وأرسل إلى أسد الدين يأمره بالعودة إلى الشام. لكن أسد الدين طالبه بما كان قد وعد به، ولما رفض شاور ذلك استولى شيركوه على بلبيس والبلاد الشرقية، فأرسل شاور إلى املريك ملك بيت المقدس يستنصره، وقاد املريك جيشاً وصل به إلى مصر وانضمت إليه قوات شاور وحاصروا أسد الدين شيركوه ببلبيس لمدة ثلاثة أشهر ولما لم يظفروا به، وبلغهم قيام نور الدين بانزال الهزيمة بالصليبيين واستيلائه على حارم ومسيره إلى بانياس فت ذلك في عضدهم وقرروا مفاوضة أسد الدين الذي وافق على الجلاء، ورحل عن مصر مقابل جلاء الفرنج. ووفى شاور للفرنج ما وعدهم به [٢]. وبدأت

---

(١) كان شاور قد تعهد لنور الدين: «بأن يؤدي له ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر، ويكون شيركوه مقيماً بعساكره في مصر، ويتصرف هو بأمر نور الدين» ابن الأثير - الكامل في التاريخ ٩ / ٨٤.

(٢) كان شاور قد وعد املريك بان يؤدي الف دينار عن كل مرحلة من مراحل الرحلة من بيت المقدس إلى نهر النيل التي يبلغ عددها سبعاً وعشرين مرحلة، ووعد أيضاً بان يبذل هدية أخرى لمن يصحبه من فرسان الاستبارية. وأن يتكفل بنفقات علف أفراسهم - (تاريخ الحروب الصليبية ٢ / ٥٩٥) - وفي ابن الأثير ٩ / ٨٥ وصفاً لمغادرة أسد الدين شيركوه لمصر وفيه: «أخرج أسد الدين أصحابه بين يديه، وبقي في آخرهم وبيده - لت من حديد - قضيب - يحمي ساقتهم - مؤخرتهم - والمسلمون والفرنج ينظرون اليه، قال: فأتاه فرنجي من الغرباء الذين خرجوا من البحر. فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج. وقد أحاطوا بك وباصحابك ولا يبقى لكم بقية. فقال شيركوه: يا ليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله. =

بعد ذلك الأحداث التي أدت إلى حطين وأبرزها في حياة صلاح الدين على النحو التالي :

في سنة ٥٦٢ هـ = ١١٦٦ م – وجـه نور الدين قوة جديدة إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه الذي اصطحب معـه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي . وتقدم الفرنج إلى مصر وانضمت إليهم قوات شاور . وخاض أسد الدين معركة حاسمة ضد قوات العدو المتفوقة – بالبابين في اتجـاه صعيد مصر – وقاد صلاح الدين قوات القلب في هذه المعركة وأظهر كفاءة قتالية عالية ممـا حمل عمه أسد الدين على تعيينه قائداً لحامية الاسكندرية التي لم تلبث أن تعرضت للحصار الطويل ، وتم الاتفاق على جلاء أسد الدين والفرنج عن مصر ، إلا أن شاور اتفق سراً مع الفرنج على إبقاء حامية في القاهرة لمنع نور الدين في المستقبل من التفكير في إرسال قوات إلى مصر [١] .

=كنت والله أضع السيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين ، وقد ضعفوا وفني شجعانهم فيتملك بلادهم ونهلك من بقي . والله لو أطاعني هؤلاء لخرجت اليكم من أول يوم . فصلب الرجل على وجهه وقال لأسد الدين : كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك . والآن فقد عذرناهم ، ثم رجع عنه ، وسار شيركوه إلى الشام » فوصل سالماً . وكان الفرنج قـد وضعوا له على مضيق في الطريق رصداً – كميناً – ليأخذوه ، فعلم بهم وعاد عن ذلك الطريق ففيه يقول عمارة :

أخـذتم عن الإفرنج كل ثنية ... وقلت لأيدي الخيل مري على (مرى)

لئن نصبوا في البر جسراً فانكـم ... عبرتم ببحر من حديد على الجسر

ومري في آخر البيت الأول مقصود منها اسم ملك الفرنج (امليك) .

(١) ممـا يذكر في هذه المعركة أن أسد الدين جمع قادته قبل المعركة ليستشيرهم ، فاشار اكثرهم بالانسحاب والعودة إلى الشام نظراً لمـا كانت عليه قوات الفرنج وقوات شيركوه من التفوق الساحق، إلا أن شرف الدين برغش قائد حامية شقيف وأميرها وقف وقال: « من يخاف القتال والأسر فلا يخدم الملوك بـل يكون في بيته مع امرأته ، والله لئن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه ليأخذن ما لنا من اقطاع وجامكيه ، وليعود علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه إلى يومنا هذا، ويقولون: تاخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم وتسلمون=

في سنة ٥٦٤ هـ = ١١٦٨ م . حدثت ثورة في مصر ضد حاميــة الفرنج — الذين تسلموا أبواب القاهرة ، وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم وحكموا على المسلمين حكماً جائراً وركبوهم بالأذى العظيم ، فلما رأوا ذلــك ، وأن البلاد ليس فيها من يردهم أرسلوا إلى ملكهم (المري) يستدعونه ليملكها ، وتحرك ملك القدس بقوات كبيرة ، وفي هــذه الفترة أرسل الخليفة العاضد إلى نورالدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج ، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال : هــذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج . وكان الكامل شجاع بن شاور قد أرسل إلى نور الدين مع بعض الأمراء ينهي محبته وولاءه ويسأله الدخول في طاعته ، وضمن على نفسه أنه يفعل هذا ، وبذل مالاً يحمله كل سنة . وعند ذلــك جهز نور الدين جيشاً قوياً تولى قيادته أسد الدين شيركوه ، وأرغم ابن أخيه صلاح الدين على مرافقته [١] ، وانتصر

= مثل مصر إلى الكفار ، والحق بيده » فقال أسد الدين هــذا الرأي وبه أعمل . وقال ابن أخيه صلاح الدين مثل قوله وكثر الموافقون لهم واجتمعت الكلمة على القتال . ثم ان أسد الدين نظم قواته وجعل صلاح الدين في القلب ، وقــال له ولمن معه : ان المصريين والفرنج يحملون حملتهم على القلب ظناً منهم أني فيه ، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ، ولا تهلكوا نفوسكم ، واندفعوا قدامهم بــين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم ، واختار هو من شجعان عسكره جمعاً يثق بهم ويعرف صبرهم في الحرب ووقف بهم في الميمنة ، فلما تقاتل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره وحملوا على القلب فقاتلهم من به قتالاً يسيراً ، وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين ومعهم الفرنج ، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معــه على من تخلف من الذين حملوا من المسلمين والفرنج الفارس والراجل ، فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن وأكثر القتل والأسر . فلما عــاد الفرنج من أثر المسلمين رأوا عسكرهم مهزوماً والأرض منهم قفراً فانهزموا أيضاً . وكان هذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل .

(١) كان صلاح الدين كارهاً العودة إلى مصر بعد تجربته السابقة ، ومما يحكى عنه أنه قال : « لما وردت كتب العاضد على نور الدين يستغيث بــه من الفرنج ، ويطلب إرسال العساكر ، أحضرني وأعلمني الحال ، وقــال : تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه ليحضر . وتحثه أنت على الاسراع ، فما يحتمل الأمر التأخير . ففعلت وخرجنا من حلب ، فما كنا على ميل من حلب حتى لقيناه قادماً في هذا المعنى ، فأمره نور الدين بالمسير ، فلما قال له نور الدين ذلك =

أسد الدين على الفرنج، ثم قتل شاور، وخلع عليه العاضد ألقاب « الملك المنصور أمير الجيوش » لكن – أسد الدين لم يعمر بعد ذلك طويلاً فتوفي في مصر – وتم تعيين صلاح الدين وزيراً للسلطان الفاطمي العاضد .

٥٦٥ هـ = ١١٦٩ م قـام الصليبيون بمهاجمة مصر واحتلوا دمياط بهدف إضعاف موقف نور الدين زنكي في الشام وصلاح الدين الأيوبي في مصر ، ونجح صلاح الدين في تدمير الحملة الصليبية بفضل دعم نور الدين المستمر بالقوات ، كما استطاع صلاح الدين الأيوبي القضاء على (مؤتمن الخلافـة) وإعدامه لاتصاله بالصليبيين وأعدم كذلك كل أفراد البلاط الفاطمي الذين كانوا على علاقة بالفرنج أو من أنصار المؤتمن .

٥٦٧ هـ = ١١٧١ م أزال صلاح الدين الدولة الفاطمية ، وأعـاد الخطبة للخليفة العباسي بناء على طلب نور الدين زنكي . ولكن بدأت الوحشة بـين نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي الذي أصبح ثابت السلطان في مصر .

٥٧٠ هـ = ١١٧٤ م توفي نور الدين زنكي في الفترة التي كان يهم فيها بالهجوم على مصر لإخضاع صلاح الدين وتوحيد قوة المسلمين في مجابهـة الخطر الصليبي . وفي السنة التالية (١١٧٥ توفي ملك بيت المقدس املريك) وكان من أقوى ملوك الصليبيين وأكثرهم كفاءة . وأسرع صلاح الدين فدخل دمشق وحمص وحماه وحاصر حلب واتخذ لنفسه لقب مصر والشام . وأقر الخليفة – في بغداد ما قام به صلاح الدين وأرسل إليه الخلع الخليفية التي وصلت صلاح الدين وهو في حماه

= التفت عمي إلي فقال لي : تجهز يا يوسف. فقلت : والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت اليها، فلقد قاسيت بالاسكندرية وغيرها ما لا أنساه أبداً . فقال لنور الدين : لا بد من مسيره معي ، فتأمر بـه . فأمرني نور الدين وأنا أستقيل . وانقضى المجلس وتجهز أسد الدين ولم يبق غير المسير قال لي نور الدين : لا بـد من مسيرك مع عمك . فشكوت اليه الضائقة وعـدم البرك ، فاعطاني ما تجهزت بـه ، فكأنما أساق إلى الموت ، فسرت معه ، وملكها ، ثم توفي ، فملكني الله تعالى ما لا كنت أطمع في بعضه » . (الكامل في التاريخ – ابن الأثير ٩ / ١٠٢)

(في شهر ايار – مايو – ١١٧٤) ثم عاد إلى مصر .

٥٧٣ هـ = ١١٧٧ م . قــاد صلاح الدين جيش مصر ، وألحق بالصليبيين الهزيمة في عسقلان ثم مضى إلى القدس . وحشد الصليبيون كل قواتهم ، ونجحوا في إلحاق الهزيمة بقوات صلاح الدين يوم ٢٥ تشرين الثاني – نوفمبر – سنة ١١٧٧ بينما كان الجيش المصري يجتاز وادياً قرب قلعة (تل الجزار) على مسافــة بضعة أميال إلى الجنوب الشرقي من الرملة. وعاد صلاح الدين إلى مصر بسرعة للسيطرة على الموقف وإعادة التنظيم .

٥٧٦ هـ = ١١٨٠ م ، أرسل الملـك بلدوين – ملك بيت المقدس – يطلب عقد هدنة مع صلاح الدين ، وذلك بعد أن قـــام الاسطول المصري في تشرين الأول – اكتوبر – بغارة موفقة على السفن الراسية في ميناء عكا ، وبعد أن شن المسلمون في مستهل السنة الجديدة – ١١٨٠ – إغارة عنيفة على الجليل ، فوافق صلاح الدين على الهدنة لمدة سنتين . ومضى صلاح الدين لإعادة تنظيم الدولة فيما انصرف بلدوين لإعادة تشكيل جبهة صليبية .

٥٧٧ هـ = ١١٨١ م ، قــام أمير الكرك رينالد شاتيون بالإغارة على قافلة للمسلمين في واحة تيماء . وعندما بلغ ذلــك صلاح الدين أرسل احتجاجاً إلى بلدوين لنقض الهدنة ، وطلب التعويض، فأقر بلدوين عدالة دعوى صلاح الدين إلا أن رينالد شاتيون رفض أن يؤدي كل مـــا يدعو إلى إصلاح الخطأ . ولقي رينالد من التأييد من أصدقائه بالبلاط الملكي ما حمل الملك الضعيف على أن يغفل الموضوع . غير أن صلاح الدين حرص على متابعته إذ حدث بعد بضعة شهور ان الأحوال الجوية أرغمت قافلة من السفن تقل ألفاً وخمسمائة حاج على أن تجنح إلى الأراضي المصرية قرب دمياط . فأمر صلاح الدين بتكبيلهم جميعاً بالاغلال . ثم أرسل إلى بلدوين يعرض عليــه استعداده لإطلاق سراحهم عند رد المتاجر التي نهبها رينالد. غير أن رينالد رفض للمرة الثانية أن يعيد شيئاً ، فأضحت الحرب أمراً لا مفر منه .

٥٧٨ هـ = ١١٨٢ م – نظم صلاح الدين قواته ، وبرز من القاهرة وأقام بخيمته حتى تجتمع العساكر ، والناس عنده وأعيان دولته والعلماء وأرباب الآداب [١] ثم إنه غادر القاهرة إلى الشام في الخامس من المحرم ٥٧٨ هـ (١١ أيار – مايو – سنة ١١٨٢) واجتاز صحراء سيناء إلى العقبة ثم توجه صوب الشمال، وأخذ يتلف كل ما صادفه في طريقه من محصولات ، ولما بلغ دمشق علم أن فرخشاه – حاكم دمشق – قد أغار على الجليل ، ونهب القرى الواقعة على منحدرات جبل الطور ، فظفر بعشرين ألف رأس من الماشية ووقع في أسره ألف رجل ، وهاجم فروخشاه أثناء عودته حصن – حبيس جلدك – المنحوت في الصخرة التي تطل على نهر اليرموك وراء نهر الأردن . وشق فروخشاه نفقاً في الصخرة التي تطل على نهر اليرموك وراء نهر الأردن فأضحى الحصن تحت رحمته ، ولما لم تكن حامية الحصن المؤلفة من السوريين المسيحيين ، حريصة على أن تموت من أجل الفرنج ، فإنها بادرت إلى التسليم ، ومضى صلاح الدين ثلاثة أسابيع في دمشق ، ثم غادرها مع فروخشاه في جيش كثيف فنفذ إلى فلسطين جنوبي بحر الجليل . ودارت بين المسلمين والفرنج مجموعة من الاشتباكات لم تصل إلى مرحلة الحسم . كما حاصر مدينة بيروت براً وبحراً ولكنه لم يتمكن من اقتحامها بصورة مباغتة . فرفع الحصار عنها وتوجه إلى الجزيرة ومعه – مظفر الدين كوكبري – أمير حران – فملك الخابور وقرقيساء وماكسين وعرابان ونصيبين ، وهناك أتاه الخبر أن الفرنج قصدوا دمشق ونهبوا القرى ووصلوا إلى داريا، وأرادوا تخريب جامعها، فأرسل النائب بدمشق إليهم جماعة من النصارى

---

(١) مما يذكر انه عندما أنهى صلاح الدين استعداداته ، وفيما هو يودع الأمراء والحكام في مصر ، برز معلم لبعض أولاده ، فاخرج رأسه من بين الحاضرين ، وأنشد :

تمتع من شميم عرار نجد   فما بعد العشية من عرار

فانقبض صلاح الدين بعد انبساطه ، وتطير وتنكد المجلس على الحاضرين ، فلم يعد إلى مصر – إلى أن مات .

يقول لهم : إن أخربتم الجامع جددنا عمارته وأخربنا كل بيعة لكم في بلادنا ولا نمكن احداً من عمارتها فتركوه . ولما وصل الخبر إلى صلاح الدين بذلك ، أشار عليه بعضهم بالعودة إلى دمشق. لكن صلاح الدين رفض ذلك ، وقال : يخربون قرى ونملك عوضها بلاداً ونعود نعمرها ونقوى على قصد بلادهم . ولم يرجع بل توجه إلى الموصل فحاصرها ولما لم يتمكن من انتزاعها من الزنكيين توجه إلى سنجار فاحتلها ورجع إلى حرّان . وفي هـــذه السنة أغار رينالد شاتيون على المسلمين في البحر الأحمر مما أثار صلاح الدين .

٥٧٩ = ١١٨٣ ، غادر صلاح الدين دمشق على رأس جيش كثيف بعد أن انتهى من توحيد الشمال باستيلائه على أمد وانتزاع حلب من عماد الدين زنكي ابن مودود زنكي [١] وسار إلى بيسان،وتجمع أمراء الصليبيين وقواتهم واتخذوا مواقع دفاعية ، وحاول صلاح الدين إخراجهم من مواقعهم والاشتباك معهم في معركة مكشوفة فلم ينجح في ذلك، فعمل على الانسحاب ، وتوجه إلى الكرك، وأقام عليها ٩ منجنيقات ، إلا أنه عندما أدرك صعوبة فتحها ، رفع الحصار عنها [٢] ، وفي السنة التالية أغار على الكرك أيضاً إلا أنها امتنعت عليه. فأغار على بعض مدن فلسطين وقراها .

---

(١) وفي ذلك يقول قاضي دمشق « محي الدين زنكي » في مدح صلاح الدين :

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر ... مبشر بفتوح القدس في رجب

(٢) تصادف أن هاجم صلاح الدين قلعةالكرك أثناء عقد قران الأميرة ايزابيلا التي بلغت وقتذاك عشرة من عمرها على همفري سيد تبنين الذي كان يناهز سبع عشرة سنة من العمر. وعزم رينالد شاتيون على أن يهيء كل ما يستطيع من مظاهر الفخامة والأبهة للاحتفال بالعرس في قلعته بالكرك التي تعتبر العروس وريثة لها . فحضر الحفل معظم الملوك والأمراء وتبعهم أرباب الملاهي من الراقصات والحواة والموسيقيين من سائر أنحاء المشرق. ولما كان من أول الأهداف التي يتطلع إليها صلاح الدين هو أن يدمر حصن الكرك وسيده الجاحد، فقد عمل على حشد الوسائط والقوى الكافية للقتال. وكان مما يحفز صلاح الدين هو وقوع حصن الكرك الضخم على طريق القوافل التجارية مـا بين الشام ومصر، وتهديد رينالد شاتيون لهذه القوافل بعد أن ظهر أنه ما من معاهدة كبحت جماحه. وهكذا فقد حشد صلاح الدين جيشي مصر والشام أمام الكرك في ٢٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر=

٥٨١ هـ = ١١٨٥ م ، أصيب صلاح الدين بمرض وصل به إلى حافة الموت . فنزل في قلعة حران حيث اهتم مظفر الدين كوكبري بتأمين العناية اللازمة له ، وتماثل صلاح الدين للشفاء .

٥٨٢ هـ = ١١٨٦ م، عاد – رينالد شاتيون – للغدر بالمسلمين. وكان رينالد هذا – صاحب الكرك – من أعظم الفرنج وأخبثهم وأشدهم عداوة للمسلمين وأعظمهم ضرراً عليهم ، فلما رأي صلاح الدين ذلك منه قصده بالحصر مرة بعد مرة وبالغارة على بلاده كرة بعد أخرى فـذل وخضع وطلب الصلح من صلاح الدين ، فأجابه إلى ذلك وهادنه وتحالفا وترددت القوافل من الشام إلى مصر ومن مصر إلى الشام ، فلما كان هذه السنة اجتاز به قافلة عظيمة غزيرة الأموال كثيرة الرجال ومعها جماعة صالحة من الجند فغدر اللعين بهم ، وأخذهم عن آخرهم . وغنم أموالهم ودوابهم وسلاحهم. وأودع السجون من أسر منهم. فأرسل إليه صلاح الدين يلومه ويقبح فعله وغدره ويتوعده إن لم يطلق الأسرى والأموال ، فلم يجب إلى ذلك وأصرّ على الامتناع ، فنذر صلاح الدين نذراً أن يقتله إن ظفر به .

= سنة ١١٨٣ ، وبادر على الفور إلى مهـاجمة المدينة السفلى ، وشق لنفسه منفذاً إليها . ولم يستطع رينالد شاتيون أن يفلت إلى القلعة إلا بفضل بطولة أحد فرسانه الذي ظل يقاتل بمفرده للدفاع عن الجسر المقام على الخندق الذي يفصل بين المدينة السفلى والقلعة ، حتى تم تدمير ما يقع من الجسر وراء ظهره . واستمرت احتفالات العرس تجري داخل القلعـة ، فلم ينقطع الرقص والغناء بداخل القلعة بينما كانت الأسوار تتعرض للقذف بالأحجار.وأعدت ستيفاني والدة العريس صحوناً من طعام العرس وبعثت بها إلى صلاح الدين . وأرسل صلاح الدين مقابل ذلك يسأل بأي الأبراج ينزل العروسان ثم أصدر الأوامر بألا يتعرض هذا البرج للقذف من أدوات الحصار . وفيما عدا ذلك لم يخفف جهوده ، فما زالت مجانيقة التسعة الضخمة تواصل قذف الحجارة ، وطم رجاله كل الخندق على وجه التقريب.ولكن استمرار تقدم النجدات وصمود القلعة حمل صلاح الدين على رفع الحصار عن حصن الكرك في ٤ كانون الأول – ديسمبر – ١١٨٣ . وتأجيل اقتحام القلعة إلى فرصة أخرى .

وما حدث من نقض الهدنة بهذه الصورة الوقحة جعل الحرب أمراً لا مفرّ منه ، ونظراً لما كان بين أمراء الصليبيين من تناقض ، فقد أسرع بوهمند أمير انطاكية إلى تجديد الهدنة مع صلاح الدين. وعقد ريموند كونت طرابلس هدنة لصالح كونتيته ، وأمدها حتى شملت إمارة زوجته بالجليل على الرغم من أن ملك بيت المقدس – جاي – الذي ليس له سلطة على الجليل قد يتورط في هذه الحرب مع المسلمين . وقام جيرار مقدم الداوية بتحريض الملك على حرب ريموند والاستيلاء على الجليل قبل أن يصل إليه المسلمون . وفي تلك الفترة وصل باليان ابلين شقيق – ريموند – وسأله الملك جاي في خشونة عما يفعله. ولما أجاب الملك جاي أنه في طريقه لمنازلة طبرية ، أشار باليان إلى حماقـة الخطة ، لأن ريموند يتفوق على الملك بقوة عساكره ، وبفضل مساعدة المسلمين له ، وطلب باليان إلى الملك أن يرسله إلى ريموند للتحدث إليه ، ولكن هذه المحاوله انتهت بالفشل ، والتزم ريموند باتفاقه مع المسلمين [1] .

٣ – يوم حطين

لم يدخل اليأس « باليان » من إمكانية إقناع « ريموند كونت طرابلس » بالعودة عن تحالفه مع صلاح الدين وأقنع الملك جاي بذلك فتمّ تكوين سفارة

---

(١) رفض ريموند دعوة باليان للوحدة وأعلن عن عدم استعداده للخضوع للملك جاي إلا إذا أعيدت إليه بيروت . واعتقد جاي أن الثمن باهظ فرفض عرض ريموند ، ولما جاءت الأنباء عن استعدادات صلاح الدين للحرب المقبلة . تحدث باليان مرة أخرى مع الملك في الوفاق مع ريموند . إذ قال له : « لقد خسرت بمقتل بلدوين سيد الرملة خير فارس عندك » مشيراً بذلك في اعتزاز إلى أخيه « فإذا خسرت أيضاً مساعدة الكونت ريموند ونصيحته انتهى أمرك » ، وإذ درج – الملك جاي – على أن يوافق كل من يشتد في الحديث معه ، سمح لباليان أن يتوجه مع – جوزياس – رئيس أساقفة صور – ومقدمي الاستبارية والداوية في سفارة أخرى إلى طبرية وكان لا بد أن يشترك مقدم الداوية ، ألد أعداء ريموند، في كل ما يمكن الوصول إليه من تسوية سلميـة ، وهكذا خرج مبعوثو الملك من القدس يوم ٢٩ نيسان – ابريل – سنة ١١٨٧ في حراسة عشرة من فرسـان الاسـتبارية لمفاوضة ريموند والاتفاق معه .

توجهت إلى طبرية لمقابلة « ريموند » . ولكن بينما كانت هذه السفارة في طريقها، كان الكونت ريموند يستقبل في طبرية رسولاً من قبل المسلمين في بانياس . ذلك أن الأفضل – وهو ابن صغير لصلاح الدين وقائد المعسكر في بانياس – تلقى أمراً من والده بأن يرسل قوة استطلاعية إلى فلسطين ، فرأى من الصواب أن يستأذن لرجاله لاجتياز أراضي الكونت في الجليل .

ونظراً لما ارتبط به ريموند من معاهدة خاصة مع صلاح الدين، فإنه لم يكن بوسعه رفض هذا الطلب ، إلا أنه اشترط بأنه يجب على المسلمين اجتياز الحدود بعـد طلوع نهار يوم غد وأن يعودوا قبل حلول الظلام ، وألا يلحقوا أضراراً بكل مدينة أو قرية في البلاد التي يجتازونها . ثم أرسل ريموند من قبله مبعوثين يطوفون بأقطاعه ليحذروا السكان أن يبقوا مع قطعانهم بداخل الأسوار طوال اليوم وألا يتطرق إليهم الخوف .

وفي الصباح المبكر من **أول أيار – مايو – سنة ١١٨٧** شاهد ريموند من قلعته الأمير مظفر الدين كوكبري في سبعة آلاف من مماليكه يجتازون القلعة مبتهجين . وحوالي ضحى ذلك اليوم ، وصل إلى الفولة باليان ورفاقه وشاهدوا من مسافة بعيدة خيام الداوية مضروبة تحت الأسوار ، فلما اقتربوا منها ألفوها خالية والسكون يخيم على القلعة . ولم تمض أكثر من ساعتين والسفارة في حيرة من أمرها حتى ظهر فارس من الداوية أشعث الشعر وتنزف دماؤه ، يركض بحصانه ، ويصيح بأعلى صوته بمـا حلّ من فاجعة كبيرة مروعة . وفي تلك الساعة شهد ريموند بطبرية ، العساكر المماليك راكبين عائدين إلى قلاعهم وقـد التزموا بالعهد . إذ جرى كل شيء على وجه سليم قبل حلول الظلام ، ولم يلحقوا ضرراً بأي بنـــاء في الاقليم ، غير أن فرسان المقدمة رفعوا على أسنة رماحهم رؤوس فرسان الداوية . وأسرع « جيرار « مقدم الداوية فبادر على الفور إلى استدعاء الداوية من الجهات المجاورة للحاق به في الفولة . وكان لدى مارشال الداوية – جيمس مايلي – تسعون فارساً بقرية قاقون على مسافة خمسة أميال من

الفولة ، فتقدم وأمضى ليلته أمام القلعة .

وفي صبيحة اليوم التالي ركب الحشد إلى « النـــاصرة » حيث انضم إليهم أربعون فارساً علمانياً . وبقي رئيس أساقفة صور بالناصرة — وهو أحد أعضاء سفارة باليان — بينما لم يتوقف جيرار عن السير إلا ليهتف بأهل المدينة أن المعركة وشيكة الوقوع ، وينبغي عليهم أن يقدموا ليجمعوا الغنائم .

وبينما كان الفرسان يجتازون التل الواقع وراء الناصرة ، شهدوا المسلمين يوردون خيولهم عيون « كريستون والواقعة بين صفورية وكفركفتة قرب حطين » في الوادي الواقع أسفل التل . وعند رؤية هذه الأعداد الضخمة نصح كل من روجر وجيمس مايللي بالارتداد ، واستبدّ الغضب بجيرار مقدم الداوية الذي انصرف في شيء من الازدراء والاحتقار عن زميله مقـدم الاستبارية ، وأخذ يوجه اللوم إلى مارشاله جيمس مايللي ، إذ قـــال له في زراية : « إن تعلقك برأسك الأشقر بلغ من القوة ما جعلك تحرص على ألا تفقده » على أن جيمس مايللي رد في كبرياء : « سوف أموت في المعركة رجلاً باسلاً ، أما أنت ، فسوف تلوذ بالهرب شأن كل خائن » .

وإذا اشتدت ثائرة الداوية لمـا لحق جيرار من إهانات ، حملوا على العساكر المماليك الذين تلقوا الصدمة بشجاعة وتحولت المعركة إلى مذبحة سقط فيها رأس مارشال الداوية — جيمس مايللي — كما سقط إلى جانبه رأس مقدم الاستبارية . ولم يلبث أن لقي كل فرسان الداوية مصرعهم ما عدا ثلاثة كان أحدهم جيرار مقدم الداوية ، إذ ركضوا بجراحاتهم عائدين إلى الناصرة . وتوجه أحدهم يبحث عن باليان . أما الفرسان العلمانيون فوقعوا في الأسر أحياء . وخرج بعض سكان النـــاصرة إلى ساحة المعركة يلتمسون الغنيمة التي وعدهم بها جيرار ، فجرى تطويقهم وسوقهم إلى الأسر .

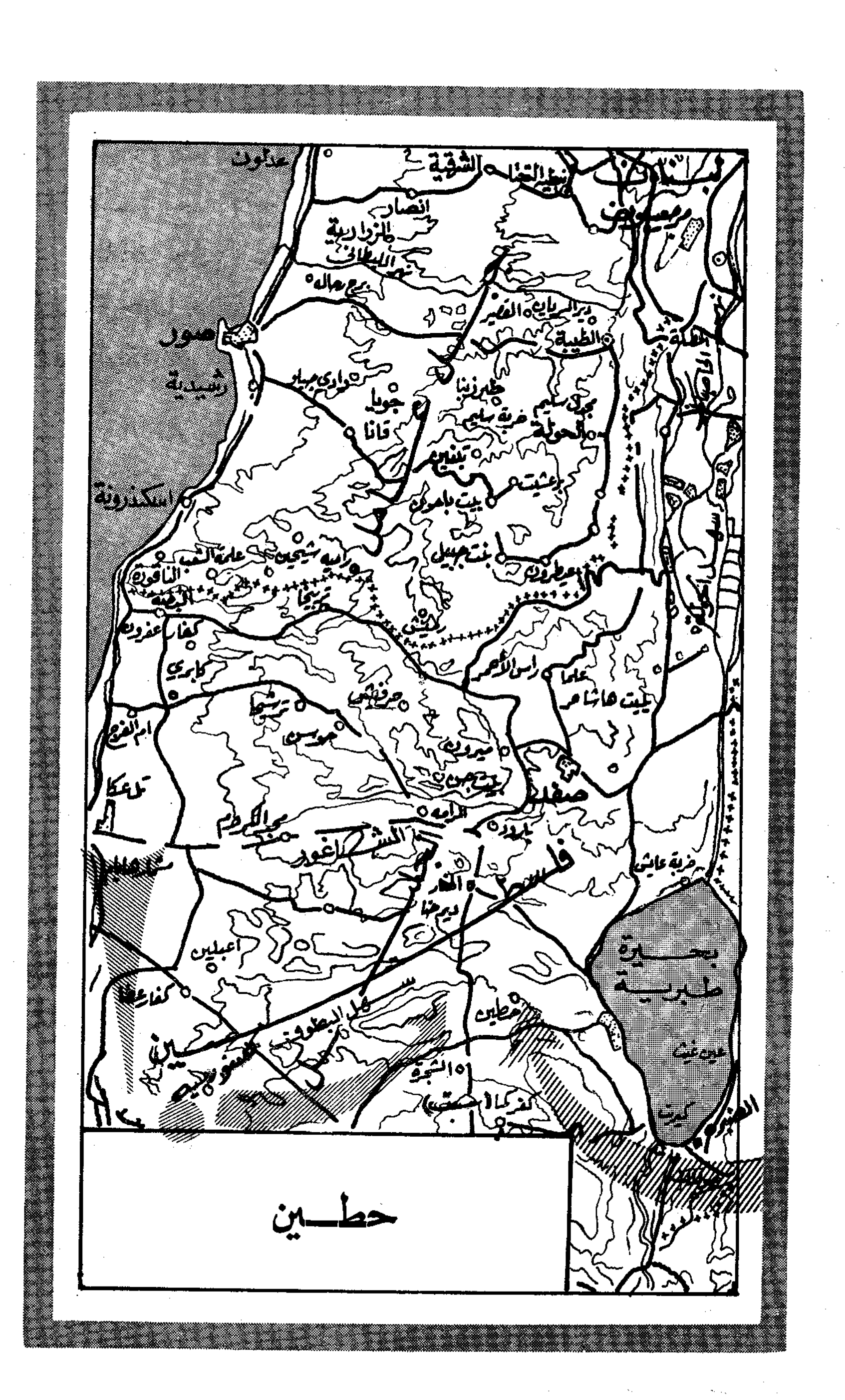
ولحق باليان بجيرار في الناصرة ، بعد أن أرسل إلى زوجته يحثها على حشد كل فرسانها ، وحاول أن يقنع جيرار بالقدوم إلى طبرية ، غير أن جيرار اعتذر

بجراحة بالغة السوء . فمضى باليان مع رئيس الأساقفة إلى طبرية ، فألفيا ريموند في ذهول شديد من هول الكارثة التي أحس أنه كان ينبغي توجيه اللوم إلى سياسته عنها. ولهذا قبل عن طيب خاطر وساطة باليان ، فأعلن نقض المعاهدة التي عقدهـــا مع صلاح الدين ، وسار راكضاً إلى بيت المقدس حيث أعلن خضوعه للملك جاي ، على أن جاي لم ينتقم منه لما ارتكبه من أخطاء ، بل رحب به ترحيباً صادقاً ، بل إنه اعتذر له عن الطريقـة التي تم بها تتويجه . وتراءت المملكة آخر الأمر أنها اتحدت من جديد .

وبدأت الاستعدادات للحرب ، وأخـذ الصليبيون يجمع قواتهم في عكا ، وحرص الاسبتارية والداوية على الانتقام لما دار من مذبحة في كريسون فحشدوا كل ما بوسعهم أن يحشدوه من الفرسان ،فلم يتركوا سوى حاميات صغيرة للدفاع عن القلاع الموكول أمرها إليهم . فأرسل ريموند باليان إلى بوهمند أمير انطاكية نداء ، فتأثر بوهمند ووعد بإرسال كتيبة تخضع لقيادة بلودين ابلين ، وأرسل ابنه ليلحق بريموند كونت طرابلس .

ولم ينقض شهر حزيران — يونيو — سنة ١١٨٧حتى اجتمع بالمعسكر الصليبي المقام أمام عكا ألف ومائتا فارس بكامل أسلحتهم ، وما يزيد على هذا العدد من الخيـالة الوطنيين المتخففين المعروفين بالتركبولية ، ونحو عشرة آلاف من الرجالة المشاة . وتقررت دعوة البطريرك هرقل - بطريرك بيت المقدس - للقدوم بصليب الصلبوت ، غير أنه قال انه معتل الصحة وعهد بالأثر المقدس إلى مقدم كنيسة القيامة كيما يسلمه إلى أسقف عكا ، على أن أعداءه رووا أنه آثر أن يبقى مع عشيقته باشيا .

أما بالنسبة للمسلمين . فكان صلاح الدين قد كتب إلى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد ، وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة وإربل وغيرها من بلاد المشرق وإلى مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم إلى الجهاد ويحثهم عليه ، ويأمرهم بالتجهز له بغاية الامكان، ثم خرج من دمشق أواخر المحرم في عسكره الخاص وحلقته،



صور
رشيدية
اسكندرونة
الناقورة
البصة
كفر عفرون
كابري
ام الفرج
تل عكا
انصار
الزوارية
الطيبة
جويا
قانا
بنت جبيل
بيت هاشار
علما
صفد
الرامه
مجد الكروم
الشاغور
ترشيحا
اعبلين
كفر منا
حطين
الشجرة
كفر كنا
خربة عايش
بحيرة طبرية
لبنان
فلسطين

حطين

فسار إلى رأس الماء وتلاحقت به العساكر الشامية ، فلما اجتمعوا جعل عليهم ولده الملك الأفضل وتركه ليجتمع إليه من يرد إليه منها . وسار هو إلى بصرى بقوة من الفرسان – جريدة – وذلك لأنه وصلته معلومات تفيد أن أرناط صاحب الكرك « رينالد شاتيون » يريد أن يقصد الحجاج ليأخذهم من طريقهم ،وأظهر أنه إذا فرغ من أخذ الحجاج يرجع إلى طريق العسكر المصري يصدهم عن الوصول إلى صلاح الدين ، فسار صلاح الدين إلى بصرى ليمنع البرنس أرناط من طلب الحجاج ويلزمه بلده خوفاً عليها . وكان من الحجاج جماعة من أقاربه منهم محمد بن لاجين وهو ابن أخت صلاح الدين وغيره . فلما سمع أرناط بقرب صلاح الدين من بلده لم يفارقه وانقطع عما طمع فيه .فوصل الحجاج سالمين، فلما وصلوا وفرغ من هذه المهمة ، سار إلى الكرك ، وبث سراياه من هناك على ولاية الكرك والشوبك وغيرهما ، فنهبوا وخربوا وأحرقوا والبرنس أرناط « رينالد » لا يقدر على المنع عن بلده . وسائر الفرنج قد لزموا الطرق في بلادهم خوفاً من العسكر الذي مع ولده الأفضل . فتمكن من الحصر والنهب والحريق والتخريب .

أنهت قوات المسلمين حشدها في بصرى بحوران ، وقام صلاح الدين بعرض قواته التي بلغ عددها اثني عشر ألف فارس ، ممن له الاقطاع والجامكية سوى المتطوعة . وعبأ قواته فتولى بنفسه قيادة القلب ، وجعل ابن أخيه تقي الدين على المجنبة اليمنى بينما كان مظفر الدين كوكبري على المجنبة اليسرى . وخرج الجيش من تعبئة القتال إلى خسفين ، ومنها توجه إلى الطرف الجنوبي لبحر الجليل ، وظل صلاح الدين منتظراً في « الأقحوانة » لمدة خمسة أيام . كانت كشافته أثناءها تجمع كل ما يتعلق بقوات العدو من الأخبار والمعلومات .

وإذ علم صلاح الدين باجتماع قوات العدو بصفورية ، عقد مؤتمراً لقادته يستشيرهم ، فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء وأن يضعف الفرنج بشنّ الغارات وإخراب الولايات مرة بعد مرة ، وقال له بعض أمرائه : الرأي عندي أننا

نجوس بلادهم وننهب ونخرب ونحرق ونسبي ، فإن وقف أحد من عسكر الفرنج بين أيدينا لقيناه ، فإن الناس بالمشرق يلعنوننا ويقولون ترك قتال الكفار وأقبل يريد قتل المسلمين . والرأي أن نفعل فعلاً نعذر فيه ونكف الألسنة عنا . فقال صلاح الدين : **« الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار فان الأمور لا تجري بحكم الانسان ، ولا نعلم بقدر الباقي من أعمارنا ، ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجد بالجهاد »** .

اجتاز صلاح الدين بجيشه نهر الأردن عند سن النبرة في أول تموز – يوليو – سنة ١١٨٧ . فسار حتى خلف طبرية وراء ظهره وصعد جبلهـا ، وتقدم حتى قارب الفرنج ، فلم يرَ منهم أحداً ، ولا فارقوا خيامهم ، فنزل ، وأمر العسكر بالنزول ، فلما جنه الليل ، جعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال ، ونزل جريدة إلى طبرية، وقاتلها ونقب بعض أبراجها وأخذ المدينة عنوة في ليلة ،ولجأ من بها إلى القلعة التي لها ، فامتنعوا بها ، وفيها صاحبتها ومعها أولادها . فنهب المدينة وأحرقها .

فلما سمع الفرنج بنزول صلاح الدين إلى طبرية واستيلائه على المدينة وأخذ ما فيها وإحراقها ، وإحراق مـا تخلف مما لا يحمل اجتمعوا للمشورة في عكا . فأشار بعضهم بالتقدم إلى المسلمين وقتالهم ومنعهم عن طبرية . فقال الكونت ريموند (أو القمص كما تذكره المصادر العربية) : **« إن طبرية لي ولزوجتي وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل ، وبقيت القلعة وفيها زوجتي ، وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتي وما لنا بها ويعود. فوالله لقد رأيت عساكر الاسلام قديماً وحديثاً ، ما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة ، وإذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها ، فمتى فارقها وعاد عنها أخذناها ، وإن أقام بها فانه لا يقدر على المقام بها إلا بجميع عساكره. ولا يقدرون على الصبر طول الزمان بعيداً عن أوطانهم وأهليهم فيضطر الى تركها ، ونفتك من أسر منا »** .

فقال له البرنس أرناط – الكونت رينالد شاتيون – صاحب الكرك : « **قد أطلت في التخويف من المسلمين ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم ، وإلا ما كنت تقول هذا... وأما قولك انهم كثيرون فان النار لا يضرها كثرة الحطب** » .

فما كان من الكونت ريموند إلا أن قال : « **أنا واحـــد منكم ، إن تقدمتم تقدمت وإن تأخرتم تأخرت ، وسترون ما يكون** » .

فقوي عزمهم على التقدم إلى المسلمين وقتالهم ، فرحلوا عن معسكرهم الذي لزموه ، ووصلوا بعـد ظهر يوم ٢ تموز – يوليو – سنة ١١٨٧ إلى صفورية . وأقاموا معسكرهم فيها . فلما سمع صلاح الدين ذلك ، عاد عن طبرية . وانضم إلى قواته الرئيسية المتمركزة في – كفرسبت – في التلال الواقعة على مسافة خمسة أميال إلى الغرب من بحيرة طبرية .

لقـد كان معسكر « صفورية » الذي اختاره الصليبيون لنزولهم من أفضل الأماكن الملائمة لاقامة المعسكر نظراً لما توافر به من الماء والمراعي للخيول . ولو أنهم بقوا بهذا الموقع مثلما أقاموا بعين جالوت منذ أربع سنوات لمـــا خاطر صلاح الدين بمهاجمتهم .

وفي الواقع ، فقد كان قصد صلاح الدين بمحاصرة طبرية أن يفارق الفرنج مكانهم ليتمكن من قتالهم ، وكان المسلمون قـد نزلوا على الماء ، والزمان قيظ شديد الحر ، فوجد الفرنج العطش ولم يتمكن الفرنج من الوصول إلى ذلك الماء من المسلمين ، فلزموا مواقعهم .

على أنه قدم في ذلك المساء رسول من قبل كونتيسة طرابلس « الكونتيسة ايشيفا المحاصرة في قلعة طبرية » فعقد الملك جاي للمرة الثانية مجلساً في خيمته ، واشتد تأثر الفرسان لما أدركوه من استماتة هـذه السيدة الباسلة في الدفاع عن قلعتها ، وتوسل أبناؤها وقـد اغرورقت عيونهم بالدموع بأنه لا بد من إنقاذ أمهم ، وأعقبهم فرسان آخرون يؤيدون ملتمسهم ، ثم نهض الكونت ريموند ،

فكرر الخطبة التي سبق أن ألقاها في عكا ، إنما أكدها في يأس وقنوط ، وأظهر وجه الحماقة في التخلي عن هذا الموقع الحالي القوي ، والمخاطرة بالسير على جانب التل الأجرد في قيظ شهر تموز – يوليو – وحملت كلماته في ثناياها الاقناع وانفض المجلس في منتصف الليل ، بعد أن تقرر البقاء في صفورية .

ولما انصرف البارونات إلى معسكراتهم ، انسحب مقدم الداوية فرجع إلى خيمة الملك فقال . « سيدي ! هل أنت مقدم على أن تثق في خائن ؟ فمن العار أن تترك للضياع مدينة لا تبعد عن المعسكر سوى ستة فراسخ . وأعلن جيرار أن « الداوية » يفضلون التخلي عن طائفتهم على أن يضيعوا الفرصة التي تهيأت لهم للانتقام من المسلمين. أما جاي ملك القدس والذي كان صادقاً قبل فترة وجيزة في اقتناعه بحديث ريموند ، فإنه أظهر التردد ، وهيأ الفرصة لجيرار للامعان في تحريضه ، فأرسل المنادين يطوفون بالخيام ويعلنون أن الجيش سوف يتحرك عند طلوع الفجر إلى طبرية .

ومن المعروف أن خير طريق يؤدي من صفورية إلى طبرية يتجه قليلاً نحو الشمال والشرق عبر تلال الجليل ، ثم يهبط إلى بحيرة طبرية ، على مسافة ميل شمالي مدينة طبرية ،أما الطريق الآخر فإنه يسير إلى الجسر المقام عند سن النبرة « الصنبرة » حيث يتفرع منه طريق يتجه صوب الشمال في محاذاة البحيرة.ويقع معسكر صلاح الدين بكفرسبت ، على الجانب الآخر من طريق سن النبرة الذي سلكه صلاح الدين بعد عبور النهر . **والراجح أن عيون صلاح الدين – جواسيسه – تسللوا من المعسكر الصليبي وتوجهوا إلى صلاح الدين فأخطروه أن الملك جاي قد أخذ في التحرك من صفورية على امتداد الطريق الشمالي، وعندئذ قاد صلاح الدين جيشه نحو خمسة أميال عبر التلال حتى بلغ حطين ، حيث أخذ الطريق يهبط نحو البحيرة .**

وكانت حطين قرية غزرت بها المراعي ، وتوافرت فيها المياه ، ولحق بصلاح الدين معظم العساكر من طبرية ، فلم يبقَ بها من المقاتلين إلا من دعت

الحاجة إليهم لحصار القلعـة . واشتدت الحرارة ، وركد الهواء في صبيحة يوم الجمعة ٣ تموز – يوليو – سنة ١١٨٧ حينما غادر الجيش الصليبي الحدائق الخضراء بصفورية، وشقّ طريقه فوق التلال الجرداء . وتولى قيادة مقدمة الجيش الصليبي الكونت ريموند – كونت طرابلس – باعتباره سيد اقطاع طبرية . بينما كان الملك جاي يقود قلب الجيش، أما ريناالد شاتيون ومن معه من الفرسان الرهبان وباليان ابلين فكان موكولاً لهم مؤخرة الجيش .

ولما لم تكن هناك موارد مائية على امتداد الطريق ، فقـد اشتد الاحساس بالظمأ لدى الرجال والخيول على حد سواء . وترتب على شدة عنائها وعذابها أن أبطأت الخطى في سيرها.ودأب رماة المسلمين على مهاجمة مقدمة الجيش الصليبي ومؤخرته معاً ، وأمطروا قلب الجيش بالسهام ، وأسرعوا إلى الابتعاد قبل أن يبادر الفرنج إلى ردّ الهجوم .

ووصل الفرنج بعد الظهر إلى الهضبة التي تشرف على حطين مباشرة . وكان يقع أمامهم تل صخري تعلوه قمتان على ارتفاع نحو مائة قـدم ، ومن خلفه هبطت الأرض في انحدار شديد إلى القرية وإلى البحيرة . واشتهر هذا الموضع باسم « قرني حطين » . وأرسل الداوية إلى الملك يخطرونه بأنهم سوف لا يمضون في سيرهم – في ذلك اليوم إلى أبعد ممـــا وصلوه – غير أن بعض البارونات التمسوا من الملك أن يصدر الأمر إلى الجيش بأن يسرع السير وأن يشق طريقه إلى البحيرة . على أن الملك جاي – قرر التوقف تلك الليلة – بعـد أن اشتدّ تأثره لما حلّ برجاله من التعب والارهاق . ولم يكد ريموند يعلم بهذه الأنباء حتى ركب من المقدمة وأخذ يصيح : « يا الله ، انتهت الحرب ، لقد هلكنا وزالت المملكة » .

وبناء على نصيحة ريموند ، أقام جاي معسكره خلف لوبية مباشرة – تجاه منحدر قرون حطين – حيث تقع بئر . والتفّ كل الجيش حول ريموند ، غير أن اختيار الموضع كان سيئاً نظراً لردم البئر وجفافه . أمـا صلاح الدين الذي

عسكر يجنده في الوادي المعشب من تحتهم ، فإنه لم يستطع أن يكتم فرحه وسروره ، إذ حانت له آخر الأمر الفرصة التي ينشدها .

أمضى الفرنج ليلتهم في بؤس ، يستمعون إلى ما كان يتردد في خيام المسلمين من تحتهم من الأدعية والأناشيد [1] وانطلق من المعسكر المسيحي جماعة من العساكر لالتماس الماء، غير أن محاولتهم ضاعت هباء ، بل أنهم لقوا مصرعهم على أيدي المسلمين . وكيما يزيد المسلمون في عناء المسيحيين ومتاعبهم ، أشعلوا النار في الأعشاب والشجيرات الجافة التي تغطي التل ، فغشي المعسكر المسيحي الدخان الساخن . وفي جنح الظلام ، حرك صلاح الدين رجاله ، **فما كاد يبزغ فجر يوم السبت ٤ تموز – يوليو – سنة ١١٨٧ حتى تم تطويق جيش الملك جاي ، وظهر انه من المحال على أحد أن يفلت من الشبكة المنصوبة. ولم يلبث المسلمون ان بدأوا الهجوم مع اشراقة أول ضوء** . ولم يخطر بخلد المشاة الصليبيين إلا فكرة واحدة تدور حول الماء . إذ حاولت جماعة كبيرة منهم أن تشق لها طريقاً على المنحدر المؤدي إلى بحيرة طبرية التي تلمع مياهها تحت التل ، غير أنه جرى ردهم إلى التل ، وقد غشاهم من كل جانب لهيب الحرائق ، وطوقهم المسلمون من كل جانب فاجتمع عليهم **(العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال)** .

ومضى صلاح الدين لإدارة المعركة ، وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم ويأمرهم بما يصلحهم وينهاهم عما يضرهم ،والناس يأتمرون لقوله ويقفون عند نهيه.

---

(١) وصف ابن الأثير – الكامل في التاريخ – ٩ / ١٧٧ الموقف في المعسكرين بقوله : « بقي الفرنج على حالهم إلى الغد – وهو يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخرة – الموافق ٤ تموز – يوليو – وقد أخذ العطش منهم . وأما المسلمون فإنهم طمعوا فيهم وكانوا من قبل يخافونهم ، فباتوا يحرض بعضهم بعضاً ، وقد وجدوا ريح النصر والظفر ، وكلما رأوا الفرنج خلاف عادتهم مما ركبهم من الخذلان زاد طمعهم وجرأتهم ، فأكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم ورتب السلطان تلك الليلة الجاليشية وفرق فيهم النشاب » .

ودار صراع مرير لاقى فيه عدد كبير من الفرنج مصرعهم على الفور ، بينما وقع آخرون في الأسر . ورقد الجرحى على الأرض ، وقـــد تورمت شفاههم لشدة الظمأ – حـتى أن خمسة من الفرسان توجهوا إلى قادة المسلمين يتوسلون إليهم أن يجهزوا عليهم حتى ينتهي عذابهم . أمـا الفرسان الذين اتخذوا أماكنهم على التل فإنهم استماتوا في القتال ، وأظهروا شجاعة نادرة ، وصمدوا لحمـــلات المسلمين الواحدة بعد الأخرى غـير أن أعدادهم كانت تتناقص بعد كل هجمة من هجمات المسلمين . وبدأت قواتهم في الانهيار .

وبناء على طلب الملك وقبل فوات الوقت، قاد ريموند فرسانه محاولاً اقتحام خطوط المسلمين ، فحمل بكل رجـــاله على القوات التي يقودها تقي الدين عمر – ابن أخي صلاح الدين – فأفسح له تقي الدين الصفوف ، حتى إذا نفذ ريموند منها بفرسانه ، سد تقي الدين هذه الثغرة ، فلم يستطيعوا العودة إلى رفاقهم . فركبوا من ساحة القتال ، وقد استبد بهم البؤس واتخذوا طريقهم إلى طرابلس. ولم يلبث باليان ابلين ورينالد سيد صيدا أن شقا لهما بعد فترة قصيرة طريقاً إلى خارج أرض المعركة فكانا آخر من هرب .

فلمـا انهزم الكونت ريموند تدهورت الروح المعنوية لمقاتلي الفرنج ، وكادوا يستسلمون ، ثم علموا أنه لا ينجيهم من الموت إلا الاقدام عليه ، فحملوا حمـلات متداركة كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم عن مواقفهم لولا لطف الله بهم . إلا أن الفرنج لا يحملون حملة فيرجعون إلا وقـــد قتل منهم ، فوهنوا لذلك وهناً عظيماً ، فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها، فارتفع من بقي من الفرنج إلى تل بناحية حطين ، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم به ، فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات ومنعوهم عما أرادوا ، ولم يتمكنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم لا غير ، وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم الذي يسمونه صليب الصلبوت ، ويذكرون أن فيـه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم . فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم ، وأيقنوا بعـــده بالقتل

والهلاك . هـذا والقتل والأسر يعملان في فرسانهم ورجالتهم ، فبقي الملك على التل في مقدار مائة وخمسين فارساً من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين.

وحكى الملك الأفضل ولد صلاح الدين ما شهده في هذا اليوم فقال : « كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف وهو أول مصاف شاهدته ، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة ، حملوا حمـلة منكرة على من بازائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي . قال فنظرت إليه وقـد علته كآبة وأربد لونه وأمسك بلحيته وتقدم وهو يصيح (كذب الشيطان) فعاد المسلمون على الفرنج فرجعوا فصعدوا إلى التل ، فلما رأيت الفرنج قـد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي هزمناهم . فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى حتى ألحقوا المسلمين بوالدي. وفعل مثل ما فعل أولاً ، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل ، فصحت أنا أيضاً — هزمناهم . فالتفت والدي إليّ وقال : اسكت . ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة . وبينما هو يقول لي ذلـك سقطت الخيمة . فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى، فبكى من فرحه . وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشاً . وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه ، فـلم يجدوا إلى الخلاص طريقاً . فنزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض فصعد المسلمون اليهم، فألقوا خيمة الملك وأسروهم عن بكرة أبيهم وفيهم الملك جاي وشقيقه الكندسطبل أملريك ورينالد شاتيون وابن زوجته وهمفري سيد تبنين فضلاً عن عدد كبير من صغار بارونات المملكة . وكان هؤلاء جميعاً عندما أسرهم فرسان المسلمين في حالة سيئة . وقد افترشوا الأرض ، وبلغ بهم التعب والإرهاق أشده فأضحوا عاجزين عن القتال . بل انهم لم يكن لديهم من القوة ما تجعلهم يسلمون سيوفهم للدلالة على الاذعان ، وجرى حمل قادتهم إلى الخيمة التي تقررت إقامتها للسلطان على ساحة المعركة » .

بقية القصة معروفة ، فقـد استقبل السلطان صلاح الدين في خيمته كبار الأسرى ، وإذ شهد ما حل بالملك جاي من الظمأ ناوله كأساً من شراب الجلاب

المثلج بثلج حرمون ، فشرب منها ، ثم ناول بعضها البرنس أرناط – رينالد شاتيون – فقال السلطان للترجمان: قل للملك أنت الذي تسقيه وإلا أنا ما أسقيه. وكان على جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مـاء لمن أسره أمن . فقصد بذلك الجري على مكارم الأخلاق . ثم التفت إلى رينالد الذي لم يغفر له ما ارتكبه من أعمال النهب والسلب المنافية للدين، وأخذ يذكره بجرائمه وخيانته وغدره وعدم التزامه بقواعد الدين . وسلّ صلاح الدين سيفه وأطاح رأسه وأمر به فحمل وألقي به خارج الخيمة . فارتعد جاي ، غير ان صلاح الدين طمأنه حين قال : « ان الملك لا يقتل ملكاً » [1] .

وجرى حمل الأسرى إلى دمشق ، وبلغ من كثرتهم أن هبط سعر الأسير الواحد إلى ثلاثة دنانير . « حتى ان أحد المسلمين اعتبر مـا أجراه من مبادلة نعليه بأسير صفقة غير رابحة » .

٤ – نتائج يوم حطين

أ – النتائج السياسية

تبرز أهمية معركة حطين في المجـال السياسي على اعتبارها نقطة التحول الحاسمة للانتقال من مرحلة الدفاع الاستراتيجي إلى مرحلة الهجوم الاستراتيجي وقد أظهر عرض مسيرة الأحداث هـذا التحول بشكل واضح لا في مسيرة الأعمال القتالية التي جاءت بعد المعركة فحسب ، وإنما من خلال الحالة النفسية للمقاتلين والتي عبر فيها الأعداء قبل الأصدقاء (وصف الكونت ريموند لقوات المسلمين) ، وكذلك الحالة النفسية للمسلمين كما وصفتها المصادر التاريخية في ليلة

---

(١) يمكن مطالعة المعركة ونهاية رينالد شاتيون في رواية عماد الدين الاصفهاني : كتاب الروضتين – ابو شامة ٢/ ٧٥ – ٨٠ ورواية ابن اشداد في النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية – نشر جمال الدين الشيال – القاهرة ١٩٦٤ ص ٧٤ – ٧٩ ورواية ابن الأثير – الكامل في التاريخ – دار الكتاب اللبناني ٩ / ١٧٥ – ١٧٩ .

المعركة (حيث أكثر المسلمون من الدعاء والابتهالات والأناشيد المعبرة عن روح معنوية عالية) .

ويمكن بعد ذلك إيجاز أبرز الدروس الهامة لهذه المعركة الخالدة بما يلي :

١ - الإفادة من الوحدة السياسية لخدمة هدف الحرب ، والإفادة من النصر لدعم الوحدة السياسية . ومن المعروف أن الجهود المتتالية لأمراء المسلمين وقادتهم قد تركزت على موضوع بناء القدرة الذاتية ، وخوض الصراعات المريرة لتأمين الوحدة الإسلامية لا كهدف في حد ذاتها ، وإنما كوسيلة لدعم القدرة القتالية . بدلالة ما فعله صلاح الدين قبل المعركة من أجل حشد قوات المسلمين من أقصى بلاد الشام حتى أقصى بلاد مصر . مما ضمن توافر قدرة قتالية قادرة على تحطيم التفوق الذي كان يمتلكه الفرنج . وقد كان من المحال المحافظة على هذه الوحدة بدون الحصول على النصر - وقد عبر صلاح الدين ذاته عن ذلك في مؤتمره مع القادة . وجاء النصر في حطين ليضمن مزيداً من التلاحم بين أقطار العالم الإسلامي . وليكسب البلاد الإسلامية وقادتها الثقة بأنفسهم بعد أن فقدوها طويلاً في صراعهم مع الفرنج .

٢ - إثارة الصراعات بين الأعداء ، وإزالة الخصومات في صفوف الأصدقاء. أو بتعبير أكثر وضوحاً ضمان القدرة لتفتيت مقاومة العدو وقدراته مادياً ومعنوياً ، مقابل ضمان القدرة لتحقيق التلاحم بين قوات الأصدقاء . وقد أفاد صلاح الدين من تحالفه مع ريموند كونت طرابلس فأرسل قواته لتدمير ألد أعداء المسلمين - وهم فرسان الطوائف الدينية من الداوية والاسبتارية - والعمل باستمرار على إثارة التناقضات بين صفوف الأعداء . وصحيح ان هذه المحاولات قد انتهت إلى الفشل عندما وصل الصراع المسلح إلى مرحلة الحسم ، بحيث عاد ريموند إلى معسكر الفرنج قبل معركة حطين ، إلا أن ذلك ترك يقيناً نتائج سلبية - برزت في الشكوك بين قادة الفرنج - وكانت هذه الشكوك سبباً في انقياد قادة الفرنج لما كان يخطط له صلاح الدين . ومقابل ذلك فقد تطلبت

الوحدة السياسية إزالة بعض مراكز القوى (الزنكيين في حلب والموصل) إلا أن الأمر الواضح هو أن صلاح الدين لم يحاول تدمير مراكز القوى هذه بما يضعف من القدرة القتالية للمسلمين .

٣ — إبراز الإرتباط بين هدف المعركة وهدف الحرب الشاملة . فقد حدثت المعركة في عمق فلسطين (على مقربـــة من الحدود السورية الأردنية الفلسطينية حالياً) ولكن ما ان انتهت المعركة حتى أسرع صلاح الدين لتطوير الصراع ، ففتح عـــكا ومجدل يابا والناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعلبا والشقيف والفولة ويافا وتبنين وصيدا وجبيل وبيروت وعسقلان والرملة والدامور وغزة وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون ، وتوج ذلك كله بفتح القدس. ثم تبع ذلك فتح هونين وصفد وكوكب والكرك . والانتقال في السنة التالية إلى الشمال لفتح جبلة واللاذقية وقلعة صهيون ومجموعة كبيرة من حصون الشمال ومدن سرمينية وبرزية (المقابلة لحصن أفامية) ودرب ساك وبفراس .

٤ — التخطيط الشامل للحرب وربط العوامل الاقتصادية والبشرية والدينية بهدف الحرب . وضمان القدرة القتالية ، ومن هنا يظهر مدى اهتمام صلاح الدين بسلامة القوافل التجارية (العامل الاقتصادي) والوحدة السياسية (القـــدرة البشرية) وسلامة الحج (الإيمـــان والروح المعنوية) . ولقد كانت هذه النظرة الشاملة للحرب هي التي ساعدت صلاح الدين على معالجة المواقف السياسية بمـــا يضمن التوازن بين عوامل الحرب المختلفة .

٥ — أظهرت معركة حطين ضعف التكون السياسي العسكري للكيانات الصليبية في بلاد الشام. فقد استطاعت هذه الكيانات فرض هيمنتها على الإمارات الإسلامية الممزقة . ولقد كان هناك تمزق أكثر خطورة لدى الفرنج إلا أنه كان من المحال الإفادة من تلك التناقضات طالما لم تتوافر وحدة سياسية للمسلمين تعمل على معالجـــة الحرب الشاملة . وجاءت معركة حطين لتبرز كل التناقضات التي أظهرت ضعف كل تلك الكيانات التي كانت مغلفة بغطاء (الهيبة) أو (التفوق

العسكري) هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فقد أبرزت حطين أيضاً ضعف القدرة البشرية — العسكرية المقاتلة — في الكيانات الصليبية ، وهذا مـــا يفسر انهيار هذه الممالك والإمارات بضربة واحدة .

ب — النتائج العسكرية

لقد كانت معركة حطين غنية جداً بدروسها العسكرية ، وقـد أبرز عرض الأحداث الكثير من تلك الدروس التي يمكن إعادة تلخيص مـا هو منها أكثر أهمية ، مثل :

١ — تعتبر معركة حطين نموذجاً رائعاً لاستراتيجية الهجوم غـير المباشر ، فقد تكونت قناعة مسبقة عند قادة الفرنج بحتمية خسارة المعركة — كما وصفها ريموند الذي أشار أيضاً إلى نهـاية المملكة الصليبية كنتيجة لخسارة المعركة — وصحيح أن مقاتلي الفرنج أظهروا شجاعة رائعة في خوض الحرب ، إلا أنـه من الواضح أيضاً بأنه لم يكن للقيادات دور حاسم في إدارة المعركة مما يؤكد نجاح استراتيجية الهجوم غير المباشر واستسلام قيادات العدو لما كان يريده صلاح الدين.

٢ — وتعتبر معركة حطين أيضاً النموذج الأعلى للحرب التشتيتية وحروب الانتهاك . فقـــد عمل صلاح الدين قبل المعركة على استنزاف قدرة الصليبيين بمجموعة من المعارك المتتالية ، وأرغم قوات الفرنج على الالتزام بمواقعها الدفاعية إلى أن تمكن في النهاية من محاصرتها والقضاء عليها في معركة (دفاعية تكتيكياً هجومية استراتيجياً) بحيث لم يكن باستطاعـة الفرنج إلا خوض المعركة في الزمان والمكان اللذين فرضهما صلاح الدين عليهم . هـذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد قـــام مشاة المسلمين — الرماة — باستنزاف قوات العدو المعنوية عن طريق وضعها باستمرار تحت التهديد — ودون مجابهتها قبـل المعركة الحاسمة (الاشتباك بالنبال من مسافة بعيدة) .

٣ — الإفادة من ميزة مسرح العمليات (الطبوغرافية) فقد خاضت القوات

- وهي متعادلة تقريباً في حجمها - معركتها في ظروف واحدة ، إلا أن صلاح الدين أفاد من مميزات الأرض لتطويق قوات الفرنج وتدميرها .

٤ - الاهتمام بالتأمين الإداري للقوات . ويلاحظ ذلك بوضوح من احتفاظ صلاح الدين بالمواقع التي تضمن تأمين امداد القوات بمتطلباتها ، كما يظهر ذلك أيضاً من خلال ما تذكره المصادر التاريخية من أن صلاح الدين قد وزع في ليلة معركة حطين على جند المشاة أربعمائة حمل من النشاب ، ووقف سبعين جمازة - منها - في حومة الوغى يأخذ منها من فرغ نشابه - ويظهر ذلك أيضاً بجلب ثلج حرمون - وتقديم الشراب المثلج للأسرى - كما يظهر في مطالبة القوات المتوجهة للحرب بتأمين كل متطلباتها من أقاليمها عند استدعائها .

٥ - حرمان العدو من الموارد الحياتية - ولا يظهر ذلك في حرمان العدو من المياه في يوم حطين فحسب ، وإنما يظهر أيضاً من خلال تطبيق (سياسة الأرض المحروقة حسب التعبيرات الحديثة) فقد عمل صلاح الدين على إرسال الإغارات لإحراق الأقاليم وتدميرها واستنزاف قدرتها الاقتصادية ومواردها الحياتية .

٦ - الاستطلاع الدقيق للأرض والعدو . فقد أمضى صلاح الدين خمسة أيام قبل أن يعبر إلى فلسطين كانت كشافته أثناءها تجوس في ميدان المعركة المقبل بحثاً عن كل المعلومات المفيدة ، ولم يقف صلاح الدين عند ذلك بل عزز المعلومات المتوافرة له باستطلاعه الشخصي ، ووضع مخطط العملية بناء على دراسته للموقف ويجب أن يضاف إلى ذلك أيضاً - اعتماد صلاح الدين على شبكة قوية من العيون (الجواسيس) الذين كانوا ينقلون له بدقة ما كان يحدث في معسكر العدو . ولا ريب أن التدفق المستمر لسيل المعلومات هو الذي ساعده على اختيار الموقع المناسب للمعركة ووضع المخطط المناسب لتدمير قوات الفرنج .

٧ - الروح المعنوية العالية للمسلمين والتي أمكن تعزيزها من خلال إثارة روح الجهاد في سبيل الله ، والحرص على حياة المسلمين وممتلكاتهم والدفاع عنهم ،

والحرص على إدارة المعركة بكفاءة عالية ، وانتزاع النصر تلو النصر – وكانت تلك الانتصارات الصغرى هي طريق النصر الكبير في حطين .

٨ – استثمار النصر لاضعاف القدرة القتالية للعدو ، وقد كانت خطة التطويق والإبادة تعبيراً عن الرغبة لا في حسم الصراع فقط لمصلحة المسلمين وإنما من أجل اضعاف القدرة القتالية بصورة كاملة. ويتأكد ذلك من خلال تركيز أعمال الإبادة على أشد الطوائف عداء للمسلمين (الداوية والاسبتارية) في حين تجلت كل تصرفات صلاح الدين بالتساهل والرحمة تجاه الفئات غير المقاتلة. وقد ساعد ذلك لا في مجال تطوير الصراع على مسرح العمليات المحدود ، وإنما من أجل تطوير الصراع في اتجاه الهدف الشامل للحرب (التحرير) .

٩ – الكفاءة القتالية العالية لقوات المسلمين وتصميمها على انتزاع النصر ، وانضباطها الرائع في تنفيذ الأوامر وفي خوض المعركة . بالإضافة إلى الكفاءة العالية التي أظهرها صلاح الدين في إدارة الحرب .

١٠ – الاستعداد الدائم للقتال لدى قوات المسلمين . وقد حاول فرسان الداوية الانتقام لفشلهم في عدد من المرات . ومباغتة المسلمين إلا أنهم فشلوا في ذلك . كما أن مسيرة الأعمال القتالية التالية قد برهنت على توافر هذه الميزة في جيش المجاهدين في سبيل الله .

(فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الذين ظَلَمُوا والحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العَالمين) .

قالها قاضي دمشق محي الدين بن الزكي - في ليلة الاسراء - يوم دخلت قوات المسلمين بيت المقدس بعد ٨٨ سنة تقريباً من إقامة الصليبيين فيها .

٤

يوم القـدس

(الجمعة ٢٦ رجب ٥٨٣ = ٢ تشرين الأول - أكتوبر - ١١٨٧ م)

١ - من الفتح الاسلامي الى الاحتلال الصليبي .
٢ - إغراق القدس بالدماء .
٣ - تطهير بيت المقدس .
٤ - (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) .
٥ - أسرى الصليبيين ومهاجريهم .
٦ - الصراع على القدس .
٧ - الدروس المستفادة .

معـــلومات تاريخية

١ ـ فتح القدس في عهد الخليفة عمر رضي الله عنه ١٥ هـ = ٦٣٦ م .

٢ ـ استيلاء الصليبيين على القدس

الحصار : (٧ حزيران حتى ١٤ تموز ـ يوليو ـ ١٠٩٩) (٤٩٢ هـ)

٣ ـ حطين يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (٥٨٣ هـ) (٤ تموز ـ يوليو ـ ١١٨٧)

٤ ـ إعادة فتح القدس : (الحصـــار : ١٥ رجب ـ ٢٦ رجب ـ سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة) (٥٨٣ هـ) (٢٠ أيلول ـ سبتمبر ـ حتى يوم الجمعة ٢ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ ١١٨٧ م) .

٥ ـ الكامل يعيد القدس للصليبيين بموجب اتفاقية ١٨ شباط (فبراير) سنة ١٢٢٩ م (٦٢٦ هـ) .

٦ ـ **(الخوارزمية) يخرجون الصليبيين نهائياً من القدس : (٢٣ آب ـ أغسطس ـ سنة ١٢٤٤ م) (٦٤٢ هـ) .**

كانت قوات الصليبيين التي فتحت بيت المقدس سنة ٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ م لا تزيد على ١٢ ألف من المشاة و ١٣٠٠ فارس .

كانت قوات الصليبيين المدافعين عن القدس يوم حررها المسلمون بقيـــادة صلاح الدين الأيوبي ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ أكثر من ٦٠ ألف من المشاة .

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا ما أعطى عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل إيلياءمن الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملّتها ، أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم ، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت (اللصوص) فمن خرج منهم فإنه أمنَ على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومَنْ أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومَنْ أحبَّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيَعَهم وصُلُبَهم ، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم . ومَنْ كان بها من أهل الأرض قبلُ ، فمَنْ شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومَنْ شاء سار مع الروم ، ومَنْ شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادهم ، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين ، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية .

« شهد على ذلك : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبدالرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وكتب وحضر سنة خمس عشرة » [1] .

---

(١) ذكر فتح بيت المقدس : تاريخ الطبري - ذخائر العرب ٣ / ٦٠٧ - ٦٠٨ .

١ - من الفتح الاسلامي الى الاحتلال الصليبي

مضى على حصار القدس أكثر من سنة ، وحرّر المسلمون كل مناطق فلسطين والأردن والشام والعراق . وظهر بوضوح أنه من المحال مقـــاومة تيار العرب المسلمين . ولكن البطريرك صفرونيوس أبى أن تسلم المدينة المقدسة قيـادها إلا لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وجـاء أمير المؤمنين وتوقف على جبل الزيتون ، وهناك التقى بالبطريرك صفرونيوس الذي سلمه مفاتيح المدينـة المقدسة ومضى معه لزيارة المدينة ، حيث توجه أمير المؤمنين مباشرة إلى موقع هيكل سليمان ، الذي صعد منه الرسول ﷺ - في ليلة المعراج - إلى السماء .

وطلب أمير المؤمنين زيارة مشاهد المسيحيين ، فصحبه البطريرك إلى كنيسة القيامة ، وأطلعه على كل ما بها . وبينما كانا بالكنيسة حان موعد الصلاة ، فتساءل الخليفة أين يستطيع الصلاة ، فتوسّل إليه صفرونيوس أن يبقى في مكانه ، غير أن أمير المؤمنين خرج إلى المدخل الخارجي للكنيسة ، حتى لا يكون للمسلمين الحق في المكان الذي أدّى فيه الصلاة . وتمّ توقيع اتفاقيـة الصلح . وأصبحت المدينة المقدسة تحت حكم العرب المسلمين .

وَقبِلَ المسيحيون عن طيب خاطر الخضوع لحكم المسلمين العادل ، مما دفع مؤرخاً نسطورياً إلى وصف الشعور العـــام تجاه المسلمين بالكلمات التالية : **« لقد انشرحت قلوب المسيحيين لسيادة العرب، فليزد الله في قوة هذه السيادة وليجعلها عامرة »** .

ولم يشعر المسيحيون بالأسف لانتصار المسلمين، فقد أصابوا من الثراء ما يزيد على ما كانوا عليه زمن الأباطرة المسيحيين . فقد استتب الأمن ونشطت التجارة والصناعة وازداد هبوط الضرائب ، واستمر ذلك طوال العصر الأموي والعصر العباسي الأول ، مما حمل بطريرك بيت المقدس إلى وصف حال المسيحيين عندما كتب إلى زميله في القسطنطينية ما يلي: « إن السلطات الإسلامية عادلة ولم تنزل

بنا الضرر ، ولم تُظهر شيئاً من العنف نحونا » . هــذا مع العلم أن المسيحيين لم يترددوا في إظهار عواطفهم تجاه البيزنطيين،عندما كان هؤلاء يشنون حروبهم ضد المسلمين . وكان هــذا الموقف مثيراً للمسلمين ، بحيث كان يدفعهم أحياناً إلى إظهار عدائهم للمسيحيين ، إلا أن روح التسامح بقيت هي المهيمنــة على سلوك المسلمين .

لقد كان للهزائم المتتالية التي ألحقها المسلمون بالبيزنطيين دورها في إضعاف روابط المسيحيين بالبيزنطيين،إلا أنه ظهر في عهد هارون الرشيد تحولات مثيرة. فقد أدى الصراع بين أموي الأندلس وعباسيي بغداد من جهة وبين البيزنطيين والكارولنجيين من جهة أخرى إلى قيام محاور متضادة تمثل المحور الأول بالصداقة التي ظهرت بين بغداد والكارولنجيين مقابل محور قرطبة — القسطنطينية .

وفي هــذا الإطار أظهر شارلمان اهتماماً خاصاً بالأماكن المقدسة ، ورحبت الكنيسة الغربية (روما) بهذا الاهتمام . كما أن هارون الرشيد لم يعارض جهود حليفه « شارلمان » لإنشاء مؤسسات في بيت المقدس ، أو إرسال الصدقات إلى بيت القيامة . وهكذا حلّ شارلمان فترة من الزمن مكان الامبراطور البيزنطي باعتباره ملكاً له من السلطة ما يكفل حماية الأرثوذكس في فلسطين . فعبروا عن امتنانهم لإحسانه بأن بعثوا إليه بكل مــا يعرب عن تقديرهم من مظاهر الشرف .

على أن ما حدث من انهيار امبراطورية الكارولنجيين زمن أخلافه ،وما جرى من نهوض بيزنطة ، جعل تدخل الفرنجة قصير الأجل ، ولم يعد له من ذكرى إلا فيما أنشأه شارل من فنادق وفيما كان يؤدى من الشعائر اللاتينية في كنيسة القديسة ماري اللاتينية ، وفي الراهبات اللاتينيات اللائي يباشرن الخدمة في كنيسة القيامة. غير أن هذا الحادث لم يجر نسيانه مطلقاً في الغرب ، إذ بالغ فيه ما ذاع من أساطير وتقاليد ، ولم يلبث الناس أن ظنوا أن شارل أجرى حماية شرعية على الأماكن المقدسة ، بل شاع في وقت من الأوقات ، أن شارل قــام بنفسه

بالحج إلى تلك الجهات . وبذا جرى الاعتراف والإقرار بما للفرنجة في الأجيال المتأخرة من حق الحكم في بيت المقدس .

بدأت الامبراطورية البيزنطية في حمل راية الدفاع عن المسيحية بعد ثلاثة قرون من الفتح الإسلامي وذلك عندما تولى نقفور فوقاس قيـــادة جيوش البيزنطيين لمحاربة المسلمين ، فاستولى على جزيرة كريت في سنة ٩٦١ م ، وعلى زربة ومرعش في سنة ٩٦٢ م،وتوجه نقفور سنة ٩٦٦ بحملة إلى الحوض الأوسط لنهر الفرات حتى يقطع الاتصال بين حلب والموصل .

وظن يوحنا بطريرك بيت المقدس أن الوقت قد حان للقضاء على المسلمين ، فأرسل رسالة إلى نقفور يحثـه على الإسراع بالقدوم إلى بيت المقدس — وجاء خليفة نقفور — يوحنا زمسكيس — ليتابع رفع راية الحرب الصليبية فتوغل في سنة ٩٧١ حتى وصل إلى حدود لبنان. ودمر عدداً من المواقع في فلسطين «الجليل وطبرية والناصرة » .

وقد جعلت هذه الحروب من الامبراطورية البيزنطية دولة مسيحية كبيرة في الشرق ، لا سيا وأن الامبراطوران البيزنطيان « نقفور وزمسكيس » قد أعلنا «أن القتال كان وقتئذ من أجل مجد العالم المسيحي ، ومن أجل إنقاذ الأماكن المقدسة ، ومن أجل تدمير الإسلام ، وكان المنشدون يرددون في كل مرة ينتصر فيها الامبراطور فيهتفون — المجد لله الذي قهر العرب — ومن المعروف أن نقفور قـد وجه إنذاره إلى الخليفة قبل المضي في حملته سنة ٩٦٤ معتبراً نفسه بطل المسيحيين ، وهدّد بالزحف على مكة المكرمة ليقيم بها عرش المسيح. وفي الرسالة التي وجهها زمسكيس إلى ملك أرمينيا سنة ٩٧٤ ذكر فيها : « لم تكن لنا من رغبة سوى تخليص كنيسة القيامة من الأفعال الشنيعة التي يرتكبها المسلمون » .

وقد لا تكون بعد ذلك ضرورة لاستعراض كل الذرائع التي طرحت — تحت مزاعم حماية الأماكن المقدسة ، أو حماية طريق الحج إلى الأماكن الدينية — أو مـا كانت تقوم به مراكز القوى في القسطنطينية من افتراء وتحريض داخل

المجتمعات الإسلامية في الأندلس والمغرب والمشرق . المهم في الأمر هو أن هذه الجهود قد وجدت فرصتها في تمزق العالم الإسلامي فقادت جيوشها . وبدأت الحملات الصليبية ، التي وصلت بها إلى بيت المقدس .

٢ – إغراق القدس بالدماء

لقد كان امتناع القدس عن المسلمين وصمودها للحصار لفترة أكثر من سنة ، برهاناً على ما توافر لبيت المقدس من قوة التحصينات . وقد اهتمّ الأمويون ومن بعدهم الفاطميون ، بدعم تحصينات المدينة المقدسة وزيادة قوة أسوارها . وكانت منحدرات وادي **السيدة مريم** (وادي كيدرون كما أطلق عليه الصليبيون فيما بعد) تضمن حماية الأسوار من الشرق بقوة منحدراتها وشدة هبوطها ، أما في الجنوب الشرقي من المدينة ، فكان هناك **« وادي جهنم »** ، ويحاذي السور الغربي وادٍ آخر يقلُّ عمقاً عن الواديين الآخرين . وهكذا فإن المنطقة الوحيدة التي تصلح للهجوم على التحصينات هي **الجهة الجنوبية الغربية ، حيث يجتاز السور جبل صهيون ويستمر على امتداد السور الشمالي .** أما القلعة (وهي برج داود) فتقع في منتصف السور الغربي وتسيطر على الطريق الذي يسير إزاء جانب التل حتى باب يافا . وعلى الرغم من عدم توافر الآبار في المدينة خلال تلك الفترة ، فإن ما توافر بها من الصهاريج كفل لها ما يكفيها من الماء لمدة طويلة .

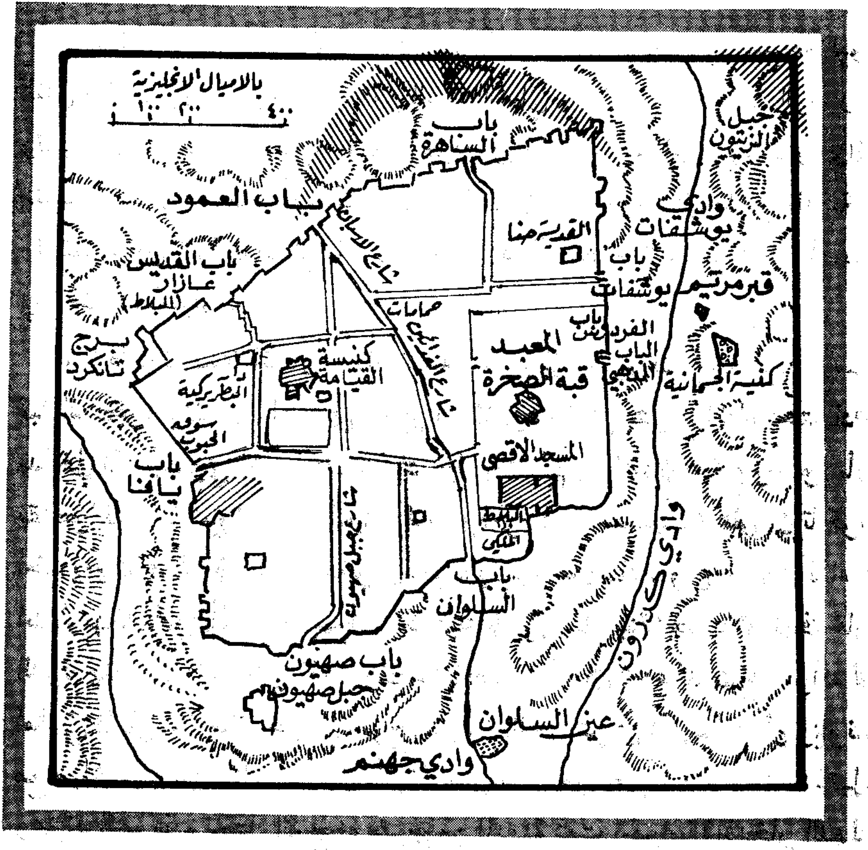
وقد تناوب الفاطميون والسلاجقة الصراع للسيطرة على بيت المقدس . وعندما وصلت الحملة الصليبية الأولى إلى فلسطين ، كانت القدس تحت حكم **« افتخار الدولة »** الفاطمي ، وكانت أسوار المدينة لا تزال في حالة جيدة ، كما كانت هناك حامية قوية من المسلمين (من العرب والسودانيين) . وعندما علم افتخار الدولة باقتراب الصليبيين ، عمل على ردم الآبار الواقعة خارج أسوار المدينة ، وجلب قطعان الأغنام والماشية إلى المدينة المقدسة ، واستعد للحرب ،

وأمر العناصر (الأرثوذكسية) المعروفة باتصالها بالفرنج ، وطلب إليها مغادرة المدينة والإقامة خارج أسوارها وكان في المدينة آلاف المسيحيين ، غير أن افتخار الدولة لم يكن باستطاعته منحهم ثقته أو الاعتماد عليهم إذا دارت المعركة ضد (إخوانهم المسيحيين) ، يضاف إلى ذلك أن إخراجهم من المدينة يوفر المؤن لمن تبقّى من السكان بالمدينة المحاصرة . وفي الوقت ذاته ، أرسل افتخار الدولة إلى مصر يطلب النجدة العاجلة .

ووصلت قوات الصليبيين فنظمت الحصار على الفور ، مع تركيز كل القطاعات القريبة من السور الشمالي لبيت المقدس. فاتخذ « **روبرت النورماندي** » موضعه على امتداد السور الشمالي (تجاه باب الزهور - باب هيرود أو باب الساهرة) وإلى يمينه اتخذ موقعه « **روبرت فلاندر** » تجاه باب العامود (باب دمشق أو باب القديس اسطفان) ، أما « **جودفري أمير اللورين** » فاتخذ موضعه في البقعة التي تواجه الركن الشمالي الغربي للمدينة حتى باب يافا ، ولحق به في هذا الموضع « **تانكرد** » الذي قدِم من بيت لحم . وإلى الجنوب من موضعه استقر « **ريموند كونت تولوز** » الذي تحرّك بعد يومين أو ثلاثة أيام إلى جبل صهيون ، بعد أن اكتشف أن الوادي يجعله بعيداً عن الأسوار . أما القطاعان الشرقي والجنوبي الشرقي فبقيا مكشوفين لم يحرسها أحد .

وبدأ الحصار يوم ٧ حزيران - يونيو - ١٠٩٩ ، ثم قام الصليبيون بالهجوم يوم ١٢ حزيران - يونيو - إلا أن قوات المسلمين نجحت في إحباطه. وانصرف الصليبيون لإعداد الأبراج والسلالم وبناء أدوات الحصار . وقام المسيحيون من أبناء البلاد بإظهار الولاء للصليبيين، وأخذوا في إرشادهم إلى الينابيع والغابات الواقعة في الجهات المجاورة . وفي ١٠ تموز - يوليو - أضحت الأبراج الخشبية جاهزة ، فجرى دفعها على عجلاتها إلى حيث اتخذت مواضعها : الأول عند السور الشمالي، والثاني عند جبل صهيون ، أما البرج الثالث وهو أقل حجماً فتمّ إنشاؤه كيما يتخذ مكانه عند الطرف الشمالي الغربي من الأسوار. وتمّ بناء الأبراج

في حذر شديد ، بعيداً عن أنظار جنود حامية بيت المقدس، الذين ارتاعوا حين وجدوا هــذه القلاع في مواجهتهم . فبادر افتخار الدولة (والي المدينة) إلى تدعيم الأجزاء الضعيفة بالأسوار . وتعرضت أبراج الحصار إلى قذائف مستمرة من الحجارة ومن القوارير الملتهبة (النار اليونانية) لمنعها من أسوار المدينــة . وتقرر أن يبدأ الهجوم أثناء ليلة ١٣ – ١٤ تموز (يوليو) كما تقرر أيضاً أن يتم الهجوم الرئيسي من جبــل صهيون في اتجاه القطاع الشرقي من السور الشمالي ، وأن يرافقه في الوقت ذاته هجوم خداعي على الزاوية الشمالية الغربية للسور .



صلاح الدين وفتح القدس

ومضى زهاء أربعون يوماً والحامية تدافع عن القدس بتصميم وعناد بالرغم من التفوق الكبير للأعداء الذين بلغ عددهم ١٢ ألف من الرجـــالة « المشاة » بالاضافة إلى ١٣٠٠ فارس. وفي يوم ١٤ تموز (يوليو) والليلة السابقة لها أكبّ الصليبيون على عملهم ، وتعرضوا أثنـــاء العمل للقذائف من الحجارة والقوارير الملتهبة من قبل المدافعين ، وردّوا عليهم بما ألقته مجانيقهم على الأسوار من قذائف ثقيلة . ولما حلّ مساء يوم ١٤ تموز (يوليو) نجح رجال ريموند في دفع برجهم فوق الخندق حتى بلغ السور ، غير أن الدفاع كان عنيفاً ، والراجح أن افتخار الدولة تولى القيادة في هذا القطاع من السور .

لم يستطع ريموند أن يتخذ لنفسه موضعاً على السور ذاته . وفي صبيحة اليوم التالي اقترب برج – جودفري – من السور الشمالي – بالقرب من باب الزهور – وتولى توجيه البرج من الطبقة العليا جودفري وأخوه يوستاس بويون . وحوالي منتصف النهار استطاع عدد كبير من المهـــاجمين الوصول إلى داخل المدينة . واستمر تدفق القوات الصليبية عبر باب العمود الذي فتحه الصليبيون ممن نجحوا في اجتياز الاسوار .

ولما ظهر للمسلمين انهيار الدفاع توجه بعضهم إلى الحرم الشريف حيث قامت قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، غير أن تانكرد انقض عليهم أثناء احتشادهم بداخل المسجد وفي أعـــلاه . فبادروا بالتسليم والاذعان له ، ووعدوا بأن يقدموا له فدية كبيرة ، وأخذوا علمه ورفعوه فوق المسجد ، على أن تانكرد أخذ يعيث فساداً في قبة الصخرة يدمر وينهب ما يشاء . وفي تلك الأثناء ، اضطرب المسلمون أثناء توجههم نحو الأحياء الجنوبية بالمدينة ، حيث لازال افتخار الدولة يقاوم بعناد . غير أنه أدرك عند العصر أن كل شيء قد ضاع ، وأنه لا أمل في المقاومة ، فانسحب إلى برج داود ، الذي عرض أن يسلمه إلى ريموند مع مبلغ كبير من المال ، مقابل الابقاء على حياة من بقي من حاميته . فقبل ريموند الشرط واحتل البرج ، وخرج من المدينة تحت الحراسة (افتخار الدولة مع حرسه) وانحازوا إلى الحامية الاسلامية بعسقلان ولم ينج من المسلمين غير

هذه الفئة القليلة ، إذ أن الصليبيين وقد جن جنونهم لما أحرزوه من نصر كبير ، انطلقوا يقتلون كل من يصادفهم من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز ، واستمرت المذبحة طوال مساء ذلك اليوم وطوال الليل . ولم يكن علم تانكرد عاصماً للاجئين الى المسجد الأقصى من القتل . ففي الصباح الباكر من اليوم التالي . وحينما توجه ريموند أجيل في الضحى لزيارة ساحة المعبد ، أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه [1] . وفر يهود بيت المقدس جميعاً إلى معبدهم الكبير ، غير أنه تقرر إلقاء القبض عليهم ، وتم إشعال النار في المعبد ، ولقي اليهود بداخله مصرعهم محترقين .

٣ – تطهير بيت المقدس

انطلق المسلمون ممن حضروا مذابح بيت المقدس يحرضون الناس على الجهاد ، ويستثيرون الهمم ، وذهب الشعراء في وصف الفظائع كل مذهب . واستجابت القاهرة ودمشق وبغداد ، وبدأت حركة الافاقة من الغفوة وبدأ البحث عن الوسائل التي يمكن لها إيقاف هذا العدوان [2] .

---

(١) تضمن التاريخ الكامل – ابن الأثير – دار الكتاب العربي ٨ / ١٨٩ وصفاً مثيراً لما حدث يوم دخل الصليبيون بيت المقدس جاء فيه « دخل الصليبيون بيت المقدس ضحوة نهار يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة . وركب الناس السيف ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين ، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام فبذل لهم الفرنج الأمان فسلموه إليهم ووفى لهم الفرنج وخرجوا ليلاً إلى عسقلان وأقاموا بها . وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف.وأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم،وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي . وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً نقرة ومن الذهب نيفاً وعشرين قنديلاً وغنموا منه ما لا يقع عليه الاحصاء .

(٢) يذكر في هذا المجال ما ورد في المرجع السابق من ردود فعل أولية لم تلبث أن تعاظمت لتأخذ شكل ردود فعل منظمة وذات – قوة متعـاظمة – باستمرار ، ومن ذلك : « ورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد بصحبة القاضي أبي سعد الهروي.فأوردوا في الديوان=

وكان الزنكيون في الموصل « عماد الدين زنكي ونور الدين زنكي » أول من استشعر الخطر ، فأخذوا على عاتقهم قيادة الجهاد وتوحيد قوة المسلمين وإزالة التمزق الذي أضعف القدرة القتالية للمسلمين ، وجاء صلاح الدين الأيوبي ليسير على الطريق ذاته ، وقد تركت مذبحة بيت المقدس أثراً عميقاً في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وليس معروفاً بالضبط عدد ضحاياها ، غير أنها أدت إلى خلو المدينة المقدسة من سكانها المسلمين. وتحول بعض المسلمين الذين كانوا على استعداد لقبول الفرنج على أنهم عامل جديد في ما ساد تلك الفترة من سياسات معقدة، فوطدوا نفسهم على الجهاد حتى طرد الفرنج. وهكذا لم يثر التعصب الإسلامي من جديد إلا التعصب المسيحي الذي دل عليه حقدهم ضد المسلمين وسفكهم للدماء وانتهاكهم للمحرمات والمقدسات .

فلما حدث فيما بعد أن سعى بعض عقلاء اللاتين لأن يجدوا أساساً يستطيع أن يقوم عليه التعاون بين المسلمين والمسيحيين، كانت ذكرى هذه المذبحة تعترض دائماً الوصول إلى اتفاق . وهكذا فعندما خاض صلاح الدين الأيوبي معركته الظافرة في حطين سنة ١١٨٧ ، أخذ في عزل مملكة بيت المقدس ، ففتح يافا

= كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب . وقاموا بالجامع يوم الجمعة ، فاستغاثوا وبكوا وأبكوا ، وذكر ما دهم المسلمين بذلك المكان الشريف المعظم من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد ونهب الأموال » وكذلك ما قاله الشاعر أبو المظفر الأبيوردي في قصيدة طويلة منها :

مزجنا دماء بالدموع السواجم	فلم يبق منا عرصة للمحارم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه	إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
وكيف تنام العين ملء جفونها	على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحي مقيلهم	ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم	تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وتلك حروب من يغب عن غمارها	ليسلم يقرع بعدها سن نادم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى	ويغضي على ذل كماة الأعاجم
دعونا كم والحرب ترنو ملحة	إلينا بألحاظ النسور القشاعم
ترامت فينا غارة عربية	تطيل عليها الروم عض الأباهم

وتبنين وصيدا وجبيل وبيروت وعسقلان ومـا يجاورها . ولما فتح صلاح الدين عسقلان أقـام بظاهرها وبثّ السرايا في أطراف البلاد المجاورة لها ، ففتحوا الرملة والداروم وغزة ومشهد ابراهيم الخليل عليه السلام وتبنين وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وكل ما كان للداوية .

ولما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان وما يجاورها من البـلاد ، سار من عسقلان إلى بيت المقدس. وكان صلاح الدين قد أرسل إلى مصر بطلب الاسطول **فخرج الاسطول التي بها في جمع من المقـاتلة ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب ، وهو معروف بالشجاعة ويمن النقيبة . فأقاموا في البحر يقطعون الطريق على الفرنج ، كلما رأوا لهم مركباً غنموه وشانياً أخذوه .**

وكان يتولى الدفاع عن القدس البطرك المعظم عندهم « **هرقل** » ومعه أيضاً مَنْ خلص من حطين . وقـد جمعوا وحشدوا ، واجتمع أهل تلك النواحي (عسقلان وغيرها) فاجتمع به كثير من الخلق كلهم يرى الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون بيت المقدس ويأخـذوه منهم ، ويعتبر أن بذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه [1] للمحافظة عليه والدفاع عنه .

وتصادف في تلك الفترة أن وصل إلى بيت المقدس « **باليان بن بيرزان** » **صاحب الرملة ، وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك** [2] . وبذل باليان

---

(١) كان صلاح الدين قد طلب إلى حاكم بيت المقدس إرسال وفد لمناقشة الشروط التي يقتضاها تستسلم المدينة المقدسة ، وعندما وصل هذا الوفد إلى عسقلان استقبله صلاح الدين في الظلام بسبب كسوف الشمس في تلك اللحظة . غير أنه لم يحدث شيء من النقاش ، إذ رفض الوفد تسليم المدينة التي مات بها السيد المسيح من أجلهم – على ما يزعمون – وعاد رجال الوفد إلى بيت المقدس ، وأقسم صلاح الدين أنه سوف ينالها بحد السيف .

(٢) كان « باليان بن بيرزان » كما ورد في ابن الأثير ٩ / ١٨٢ أو « باليان ابلين » كما ورد في تاريخ الحروب الصليبية ٧٤٨/٢ في جملة اللاجئين إلى صور بعد أن انتزعت الرملة من قبضته ، في حين كانت زوجته « الملكة ماريا » قد لجأت مع أطفالها إلى بيت المقدس بعد أن غادرت نابلس . وأراد باليان أن يحملهم إلى صور ، فاستأذن صلاح الدين في ذلك فأذن له بشرط ألا يمضي في المدينة إلا ليلة واحدة ، وألا يحمل أسلحة ، فلما قدم باليان إلى بيت المقدس ، ألفى البطرك هرقل وقادة طائفتي الداوية والاسبتارية وهم يبذلون الجهود للدفاع عن المدينة ، غير أنه =

في بيت المقدس كل ما وَسِعَه من جهد ، فقد ازداد عدد سكان المدينة بمن تدفق عليها من اللاجئين من المناطق المجاورة ، ولم يصلح منهم لممارسة القتال غير فئة قليلة العدد ، إذ أن كل رجل يقابله خمسون امرأة وطفل ، ولم يكن بالمدينة سوى فارسين اثنين ، فلم يسع باليان إلا أن ينصّب فارساً كل صبي تجاوز السادسة عشرة من عمره وانحدر من أسرة نبيلة . كما أنه جعل ثلاثين رجلاً من البرجاسية (البرجوازية) فرساناً . ووجّه جماعات من الرجال لتجمع كل ما تعثر عليه من طعام قبل أن يسدّ عليهم المسلمون المسالك ، وتسلم باليان الخزانة الملكية وحاز كل ما أرسله هنري الثاني ملك انكلترا من الأموال للاسبتارية، بل إنه نزع الفضة من سقف كنيسة القيامة ، وتقرر توزيع الأسلحة على كل مَن استطاع حمل السلاح .

وصلت طلائع جيش صلاح الدين إلى القدس في منتصف رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (٢٠ أيلول – سبتمبر – ١١٨٧) . وتقدم أمير في جماعة من من أصحابه غير محتاط ولا حذر ، فلقيه جمع من الفرنج قد خرجوا من القدس ليكونوا يزكاً (قوة استطلاعية) ، فقاتلوه وقاتلهم فقتلوه وقتلوا جماعة ممن معه ، فأهمّ المسلمين قتله وفُجعوا بفقده وساروا حتى نزلوا على القدس . ورأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم ، وسمعوا لأهله من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع ، وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله لأنه في غاية الحصانة والامتناع ، فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال نحو باب عمود أو كنيسة صهيون .

= لم يكن ثمة قائد يثق فيه أهل المدينة، فتصايحوا جميعاً بانه لا بد أن يمكث باليان معهم، وأن يتولى قيادتهم ، وأنهم لن يسمحوا له بالخروج من بيت المقدس . وإذ استبدت الحيرة بباليان ، كتب إلى صلاح الدين يشرح له إقدامه على انتهاك اليمين التي بذلها . على أن صلاح الدين اشتهر دائماً بالدماثة والمروءة مع العدو الذي يحترمه ، فلم يكتف بالعفو عن باليان ، بل أرسل حرساً ليرافق الملكة ماريا وأطفالها وحاشيتها وكل أمتعتها إلى مدينة صور . وسار بصحبتها توماس ابلين الصغير ابن أخي باليان ، والابن الصغير لهيو سيد جبيل . وبكى صلاح الدين حينما شاهد هؤلاء الأطفال يجتازون معسكرهم في طريقهم إلى المنفى بعدما كانوا عليه من الترف .

وكان صلاح الدين خلال ذلك يهاجم أسوار المدينة التي تقع إلى الشمال والشمال الغربي منها ، غير أن أشعة الشمس تسلطت على عيون عساكره . ثم نقل صلاح الدين معسكره إلى جهة باب عمود في شمال المدينة بعد خمسة أيام (٢٠ رجب = ٢٦ أيلول – سبتمبر –) واعتقد المدافعون عن المدينة – لفترة وجيزة – أن صلاح الدين رفع الحصار ، غير أنه حدث في صبيحة يوم ٢٦ أيلول ، أن اتخذ جيش المسلمين مواقعه على « **جبل الزيتون** » ، وحمل المجاهدون في سبيل الله حملة رجل واحد ، فأزالوا الفرنج عن مواقعهم ، وأدخلوهم المدينة ، ووصل المسلمون إلى الخندق فجاوزوه والتصقوا إلى السور ، وأخذوا في نقبه تحت حراسة الفرسان « وكان موقع النقب قرب باب العمود ، على مسافة ليست بعيدة عن البقعة التي اقتحم منها جودفري كونت اللورين المدينة **قبل ثمان وثمانين سنة**» . وزحف الرماة لحماية المهندسين الذين كانوا يحفرون النقب ، والمنجنيقات توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار .

وفي يوم ٢٣ رجب = ٢٩ أيلول حدثت ثغرة كبيرة بالسور ، فلما نقبوه حشوه بما جرت به العادة . فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين ، وتحكّم المنجنيقات بالرمي المتدارك ، وتمكن النقابين من النقب ، وأنهم قد أشرفوا على الهلاك ، اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون . وأراد عساكر الفرنج أن يقوموا بهجوم ضخم ولو كلّفهم ذلك التضحية بأرواحهم ، **غير أن البطريرك هرقل لم يَجُلْ بخاطره أن يستشهد ، إذ قال انهم إذا أقدموا على ذلك ، فسوف يتركون وراءهم نساءهم وأطفالهم الذين لا مفرّ من استرقاقهم ، وليس بوسعه أن يبارك هذا الاجراء المنافي للدين . وأيّده باليان لما أدركه من حماقة الامعان في إزهاق الأرواح .**

وفي يوم ٢٦ رجب = ٢ تشرين الأول – اكتوبر – وصلت جماعة من كبرائهم وأعيانهم في طلب الأمان ، فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من إجابتهم وقال : **« لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، من القتل والسبي ، وجزاء السيئة بمثلها »** . ورجع الرسل خائبين محرومين .

وكانت المدينة قد أضحت في الواقع تحت رحمـــة صلاح الدين ، وصار بوسعه اقتحامها متى شاء . وقد كان له بداخل المدينة عدد كبير من الأصدقاء ذوي النفوذ والسلطان ، فيما اتّسمت به الكنيسة اللاتينية من الغطرسة ، أثارت دائماً نفور المسيحيين الأرثوذكس الذين يؤلفون غالبية السكان الفقراء بالمدينة .

ولم يقع شقاق فعـلا بين رؤساء الطوائف الدينية ، فالأسرة الملكية والنبلاء العلمانيون أظهروا المودّة والاحترام لرجال الدين الأرثوذكس في كل الجهـــات – ما عدا أنطاكية – غير أن الطبقة العليا من هيئة رجال الدين كانت بأجمعها من اللاتين . ففي المشاهد الكبيرة المرتبطة بعقيدتهم ، كان لزاماً على المسيحيين الوطنيين أن يشهدوا طقوساً كانت لغتها وشعائرها غريبة عنهم . فتطلعوا بشغف إلى الأيام التي كان بوسعهم فيها زمن الحكام المسلمين أن يمارسوا عبادتهم كيفما شاؤوا . ووثق صلاح الدين في عالِم مسيحي أرثوذكسي من بيت المقـدس اسمه « **يوسف بابيط** » ، فاتخـــذه مستشاراً في كل معاملاته مع الأمراء المسيحيين . وبفضله استطاع الاتصال بالجماعات الأرثوذكسية في داخل المدينة ، فوعدوا بفتح الأبواب لصلاح الدين .

والواقع ، لم يكن صلاح الدين بحاجة لتدخُّل الجماعات الأرثوذكسية لاقتحام مدينة القدس . إذ لم يلبث « باليان » – عندما علم بفشل الوفد – أن أرسل إلى صلاح الدين يطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في هذا الأمر وتحريره . فأجيب إلى ذلك ، وحضر عنـده ، ورغب في الأمان وسأل فيه ، فلم يجبه إلى ذلك ، واستعطفه فلم يعطف عليه ، واسترحمه فلم يرحمه .

وأعلن صلاح الدين أنه سبق أن أقسم بأنه سوف ينـــال بيت المقدس بحدّ السيف ، ولن يحلّه من هـــذه اليمين غير إذعان المدينة بدون قيد أو شرط ، وأخذ يذكّر باليان بما ارتكبه المسيحيون سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٩م من المذابح ، وتساءل : « ألا ينبغي أن يحذو حذوهم ؟ » وبينما كانا يتحدثان اندلع القتال ، وأشار صلاح الدين إلى أن لواءه قـــد ارتفع على سور المدينة ، غير أن حامية

الصليبيين قامت بهجوم مضاد تراجع أمامه المسلمون .

وأخذ باليان بالحديث فقال لصلاح الدين : « أيها السلطان ! إعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم إلا الله تعالى ، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ، ظناً منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم ، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة . فاذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلنّ أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغتنمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً ولا تأسرون رجلاً ولا امرأة . وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع ،ثم نقتل مَن عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ، ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه ، ثم خرجنا إليكم كلنا وقاتلنا كم قتال مَن يريد أن يحمي دمه ونفسه ، وحينئذٍ لا يُقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ، ونموت أعزاء أو نظفر كراماً » .

فاستشار صلاح الدين قادته وأصحابه الذين أشاروا عليه بقبول الصلح وإجابتهم إلى الأمان بعد أن أصبحوا أسارى المسلمين ، وأجاب صلاح الدين ببذل الأمان للفرنج واستقر أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوي فيها الغني والفقير ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين ، وتزن المرأة خمسة دنانير « وأعفي من كان عمره أقل من أربعين يوماً من دفع ما هو مفروض لاطلاق سراح الأطفال وقدره دينارين » . وكان في بيت المقدس على الضبط ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان.

وعندئذ أشار باليان إلى أن بالمدينة حوالي عشرين ألفاً من الفقراء ليس بوسعهم أن يؤدوا هذا المبلغ ،أفلا يجوز للسلطات المسيحية أن تدفع مبلغاً إجمالياً لافتدائهم؟ ورضي صلاح الدين بأن يقبل مائة ألف دينار عن جميع العشرين ألف من الفقراء ،غير أن باليان أدرك أنه ليس من المستطاع تحصيل هذا المبلغ الضخم، فتقرر إطلاق سراح سبعة آلاف مقابل دفع ثلاثين ألف دينار، وبناء على أوامر

باليان ، ألقى العساكر السلاح [1] ، وفي يوم الجمعة ٢٦ رجب ، المصادف لليلة المعراج والإسراء ، ٢ تشرين الأول – أكتوبر – سنة ١١٨٧ دخل صلاح الدين بيت المقدس .

٤ – (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)

كان على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهب ، فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم إلى أعلى القبة ليقلعوا الصليب ، فحين صعدوا صاح الناس كلهم صوتاً واحداً من البلد ومن ظاهره ، المسلمون والفرنج ، أما المسلمون فكبروا فرحاً . وأمـا الفرنج فصاحوا تفجعاً وتوجعاً . فسمع الناس صيحة كادت الأرض أن تميد بهم لعظمها وشدتها ، فلما ملك البلد وفارقه الكفار ، أمر صلاح الدين إعادة الأبنية إلى حالها القديم . فإن الداوية بنوا غربي الأقصى أبنية ليسكنوها ، وعملوا فيها مـا يحتاجون إليه من هري ومستراح وغير ذلك ، وأدخلوا بعض الأقصى في أبنيتهم فأعيد إلى الأول .

وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس ، ففعل ذلك أجمع ولمـــا كان الجمعة الأخرى رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين ، وصلى في قبة الصخرة وكان الخطيب والامام محي الدين بن الزكي قاضي دمشق . ولما أذن المؤذنون للصلاة قبل الزوال كادت القلوب تطير من الفرح في ذلك الحال ، ولم يكن عـيّن خطيب فبرز من السلطان المرسوم الصلاحي

---

(١) جاء في التاريخ الكامل – ابن الأثير – ٩ / ١٨٣ – ما يلي : « أطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر ألف رجل وزن عنهم ثلاثين ألف دينار وبقي بعد هذا جميعه من لم يكن معه مـا يعطي ، وأخذ أسيراً ستة عشر ألف آدمي ما بين رجل وامرأة وصبي هذا بالضبط واليقين . ثم إن جماعة من الأمراء ادعى كل واحد منهم أن جماعة من رعية إقطاعه مقيمون بالبيت المقدس ، فيطلقهم ويأخذ هو قطيعتهم ، وكان جماعة من الأمراء يلبسون الفرنج زي الجند المسلمين ويخرجونهم ويأخذون منهم قطيعة قرروها . واستوهب جمـاعة من صلاح الدين عدداً من الفرنج فوهبهم لهم فأخذوا قطيعتهم . وبالجملة فلم يصل إلى خزائنه إلا القليل .

وهو في قبة الصخرة أن يكون القاضي محي الدين بن الزكي اليوم خطيباً، فلبس الخلعة السوداء وخطب للناس خطبة سنية فصيحة بليغة ، ذكر فيها شرف البيت المقدس وما ورد فيه من الفضائل والترغيبات وما فيه من الدلائل والامارات .

وكان أول ما قال :(فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) ثم أورد تحميدات القرآن كلها إلى أن قال : « الحمد لله معز الاسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومزيـــد النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذي قدر الأيام دولاً بعدله،وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاض على العباد من طله وهطله ، الذي أظهر دينه على الدين كله ، القاهر فوق عباده فلا يمانع والظاهر على خيلقته فلا ينازع ، والآمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على أظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصرة أنصاره ، ومطهر بيت المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر إجهاره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الأحد الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه،وأرضى به ربه،وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، رافع الشكر وداحض الشرك ، ورافض الإفك ، الذي أسرى به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى ، وعرج به منه إلى السماوات العلى، إلى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ، مـا زاغ البصر وما طغى ، ﷺ وعلى خليفته الصديق السابق الى الايمان وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هـــذا البيت شعار الصلبان ، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان – ذي النورين – جامع القرآن – وعلى أمير المؤمنين عـلي بن أبي طالب مزلزل الشرك ومكسر الأصنام وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان »[١] .

---

(١) الروضتين – أبو شامة ص ٣٢٠ – ٣٤٠ « وتضمنت خطبة القـاضي محي الدين بن الزكي تهنئة المسلمين بما يسره الله على أيديهم من فتح بيت المقدس،وذكر فضائله ومآثره،وأنه=

ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة تقدم بعمارة المسجد الأقصى ، واستنفاذ الوسع في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه ، فأحضروا من الرخام الذي لا يوجد ومن الفص المذهب القسطنطيني وغير ذلك مما يحتاجون إليه قد ادخر على طول السنين ، فشرعوا في عمارته ومحوا ما كان في تلك الأبنية من الصور . وكان الفرنج قد فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها فأمر بكشفها ، وكان سبب تغطيتها بالفرش أن القسيسين باعوا كثيراً منها للفرنج الواردين إليهم من داخل البحر للزيارة ، يشترونه بوزنه ذهباً رجاء بركتها ، وكان أحدهم إذا دخل بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة ويجعل في مذبحها ، فخاف بعض ملوكهم أن تفنى ، فأمر بها ففرش فوقها حفظاً لها ، فلما كشفت نقل إليها صلاح الدين المصاحف الحسنة والربعات الجيدة ، ورتب القراء وأدر عليهم الوظائف الكثيرة ، فعاد الإسلام هناك غضاً طرياً . وهذه المكرمة من فتح البيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه غير صلاح الدين رحمه الله وكفاه ذلك فخراً وشرفاً .

وبقيت قصة المنبر ، وهي قصة مثيرة في حد ذاتها . ذلك أن نور الدين زنكي كان يعد لفتح بيت المقدس ، فأمر الصناع بجلب لصنع منبر ، وانصرف الصناع لبنائه والمبالغة في تحسينه وإتقانه ، وقال نور الدين (هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس) فعمله النجارون في عدة سنين ، لم يعمل في الاسلام

= أول القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه ، إليه أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام ، وصلى فيه بالأنبياء والرسل الكرام ، ومنه كان المعراج إلى السماوات ، ثم عاد إليه ، ثم سار منه إلى المسجد الحرام على البراق ، وهو أرض المحشر والمنشر يوم التلاق ، وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء ، وقد أسس على التقوى من أول يوم ... ثم ذكر تمام الخطبة ودعا للخليفة الناصر العباسي ثم دعا للسلطان الناصر صلاح الدين . وبعد الصلاة جلس الشيخ زين الدين أبو الحسن بن علي نجا المصري على كرسي الوعظ بإذن السلطان ، فوعظ الناس واستمر القاضي ابن الزكي يخطب بالناس في أيام الجمعة أربع جمعات ، ثم قرر السلطان للقدس خطيباً مستقراً» .

مثله . ولم يتمكن نور الدين من تحقيق أهدافه ، فقد وافته المنية . وعندما فتح صلاح الدين القدس ، أمر باحضار المنبر من حلب ونصب بالقدس وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة .

انصرف صلاح الدين لإعادة تنظيم أمور المدينة المقدسة «والواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والانسانية ، فبينما كان الصليبيون منذ ثمان وثمانين سنة يخوضون في دماء المسلمين ، لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب ، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه إذ صار رجال صلاح الدين – الشرطة – يطوفون بالشوارع والأبواب لمنع كل اعتداء يقع على المسيحيين .

وفي تلك الأثنـاء حرص كل مسيحي على أن يلتمس المال اللازم لافتدائه ، وأخذ باليان كل ما في بيت المال من الأموال لدفع ما وعد به من أموال الافتداء وقدرها ثلاثون ألف دينار . ولم يخرج الاسبتارية والداوية عن شيء من أموالهم إلا بصعوبة . **ولم يحفل البطرك هرقل وهيئـة الكنيسة إلا بأنفسهم ودهش المسلمون حينما رأوا البطرك يؤدي عشرة دنانير – مقدار الفـدية المطلوبة منه – ويغادر المدينة وقد انحنت قامته لثقل ما يحمله من الذهب ، وقد تبعته العربات التي تحمل مـا بحوزته من الطنافس والأواني المصنوعة من المعادن النفيسة »** [1] .

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ٢ / ٧٥٢ – ٧٥٣ ، ويقـــابل ذلك ما أورده ابن الأثير في الكامل ٩ / ١٨٤ : « كان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم وقد ترهبت وأقامت به ومعها من الحشم والعبيد والجواري خلق كثير . ولهـــا من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم ، فطلبت الأمان لنفسها ومن معها ، فأمنها وسيرها . وكذلك أيضاً أطلق ملكة القدس التي كان زوجها الذي أسره صلاح الدين قد ملك الفرنج بسببها ، ونيابة عنها كان يقوم بالملك . وأطلق مالهـا وحشمها ، واستأذنته في المسير إلى زوجها ، وكان حينئذ محبوساً بقلعة نابلس ، فأذن لها ، فأتته وأقامت عنـــده ... وخرج البطريرك الكبير الذي للفرنج ومعه من أموال البيع منها الصخرة والأقصى والقيامة وغيرها ما لا يعلمه إلا الله تعالى . وكان له من المال مثل ذلك ، فلم يعرض له صلاح الدين ، فقيل له : ليأخذ ما معه يقوي به المسلمين ، فقال : لا أغدر به» .

٥ – أسرى الصليبيين ومهاجروهم

بقي عدد أسرى الصليبيين كبيراً ، إذ لم يتمكن « باليان » من جمع الفدية لتحرير سبعة آلاف من الفقراء فقط . وكان بالمستطاع تأمين الفدية لألوف عديدة من المسيحيين لو أن الاسبتارية والداوية والكنيسة كانوا أكثر وفاءً لأبناء دينهم. ولعل من التناقضات الطبيعية أن يكون قادة المسلمين أكثر رأفة بالمسيحيين من قادة المسيحيين ذاتهم . وعلى سبيل المثال ، فقد حدث أن طلب العادل إلى أخيه صلاح الدين إطلاق سراح ألف أسير على سبيل المكافأة عن خدماته له، فوهبهم له صلاح الدين، فأطلق العادل على الفور سراحهم . **وإذ ابتهج البطريرك هرقل لأن يلتمس هــــذه الوسيلة الرخيصة لفعل الخير ، لم يسعه إلا أن يطلب من صلاح الدين أن يهبه بعض الأرقاء ليعتقهم، فبذل له صلاح الدين سبعمائة أسير، كما جعل صلاح الدين لباليان خمسمائة أسير .**

ثم أعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وكل امرأة عجوز. ولما أقبل نساء الفرنج اللائي افتدين أنفسهن ، وقد امتلأت عيونهن بالدموع ، فسألن صلاح الدين أين يكون مصيرهن، بعد أن لقي أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم أو وقعوا في الأسر ، أجاب بأن وعد بإطلاق سراح كل مَن في الأسر من أزواجهن، وبذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا ، كلٌ بحسب حالته . والواقع أن رحمته وعطفه كان على نقيض أفعال الغزاة المسيحيين في الحملة الصليبية الأولى .

وتحرَّك رتل طويل من الفرنج الذين أطلقهم صلاح الدين ، وسار في بطء إلى الساحل ، ولم يتعرضوا للاعتداء من قِبَل المسلمين . وارتحلوا في ثلاث قوافل ، تولى الداوية قيادة القافلة الأولى ، وقاد الاسبتارية القافلة الثانية ، بينما قاد باليان والبطريرك القافلة الثالثة . ووصلت أرتال القوافل إلى مدينة صور ، إلا أن هذه المدينة أصبحت تفيض عن قدرة احتمالها ، نظراً لعـــدد اللاجئين الكبير الذي توجَّه إليها من المدن التي حرَّرها المسلمون ، فلم تقبل صور إلا الرجال المحاربين، وتابع بقية الرتل طريقه، وعند الاقتراب من البترون قام أحد البارونات المحليين

واسمه « ريموند سيد نيفين » بسلب هؤلاء قدراً كبيراً من سلعهم ، فتوجهوا إلى طرابلس ، غير أن المدينة امتلأت بمَن قدِم قبلهم من اللاجئين، ولذا أخذت الأقوات في النفاد . لم تقبل سلطات المدينة أعداداً إضافية ، فأغلقت دونهم الأبواب ، ولم يعثروا على موضع يستريحون فيه حتى وصلوا انطاكية ، وهنا أيضاً لم تسمح سلطات المدينة بقبول اللاجئين الجدد عن طيب خاطر .

أما اللاجئون من عسقلان فكانوا أحسن حظاً ، ذلك أنه حينما رفض قادة السفن الإيطالية التجارية أن يحملوهم على سفنهم إلى الموانىء المسيحية إلا بعد أن يدفعوا أجوراً باهظة ، **رفضت الحكومة في مصر السماح للسفن الايطالية بالاقلاع إلا إذا قبلت حملهم بدون أن يودوا أجوراً .**

بقي المسيحيون الأرثوذكس واليعاقبة في القدس ، والتزم كل فرد منهم بأداء الجزية ، وابتاع أغنياؤهم قدراً كبيراً من الأمتعة والأملاك التي أضحت خالية بعد رحيل الفرنج ، واشترى ما تبقّى منها المسلمون واليهود الذين شجّعهم صلاح الدين على الاستقرار بالمدينة . ولما بلغت القسطنطينية أنباء انتصار صلاح الدين ، أرسل الامبراطور إسحاق انجيلوس سفارة إلى صلاح الدين لتهنئته ولتطلب منه ضرورة إعادة الأماكن المقدسة المسيحية إلى الكنيسة الأرثوذكسية ، واستجاب صلاح الدين لطلبه بعد أن تمهّل قليلاً . وألحّ على صلاح الدين كثير من أصدقائه بتدمير كنيسة القيامة ، غير أنه أشار إلى أن المسيحيين يجلّون الموضع لا البناء ، فما زالوا يؤدّون الحج إلى هذه المواضع، كما أنه لم يشأ أن يمنعهم من ذلك . والواقع أن **كنيسة القيامة لم تغلق أبوابها إلا لمدة ثلاثة أيام ، ثم تقرر السماح للحجاج الفرنج بدخولها مقابل رسم يؤدونه .**

٦ – الصراع على القدس

لم يتخلّ الصليبيون عن أطماعهم في القدس بعد طردهم منها . وجاءت الحملات الصليبية لتحاول من جديد إعادة سيطرتها على المدينة المقدسة ، لكنها

فشلت في ذلك (الحملة الثالثة بقيادة ريشارد قلب الأسد سنة ١١٩١ م). وبقي ملوك الغرب يعتبرون أنفسهم ملوك بيت المقدس ، بالرغم من أن بيت المقدس لم تكن تحت حكمهم .

وعندما قام الصليبيون بالهجوم على مصر (في ٢ شباط – فبراير – ١٢١٩) أظهر الملك الكامل استعداده للتنازل عن بيت المقدس، مقابل جلاء الفرنج عن مصر . وقـــام الملك المعظم بتدمير استحكامات بيت المقدس ، حتى يتم تسليم المدينة وهي في حالة عجز عن الدفاع. ولكن الكامل استطاع إخراج الصليبيين من مصر ، وبقي الأمر على ذلك . ولكن الصليبيين عادوا من جـديد لممارسة الضغوط السياسية والعسكرية ، حتى تمّ في ١٨ شباط – فبراير – سنة ١٢٢٩ التوقيع على معاهدة ، وقّعها فريدريك الثاني – الانكليزي – مع ممثلي الكافل فخر الدين بن شيخ الشيوخ وصلاح الدين أمير اربل ، وشهد على المعاهدة مقـدّم فرسان التيوتون وأسقفا اكستر ونسستر . وبمقتضى هذه المعاهدة تحصل مملكة بيت المقدس النصرانية على مدينة القدس ذاتها وبيت لحم،مع شريط من الأرض يخترق « اللد » وينتهي عند يافا على البحر ، فضلاً عن الناصرة وغرب الجليل بما اشتمل عليه من حصن مونتفورت وتبنين ، وما تبقّى حول صيدا من المناطق الإسلامية ، على أن يظل في أيدي المسلمين من بيت المقدس منطقة المعبـــد بما تحتوي عليه من قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، وللمسلمين الحق في التردّد إليها وحرية العبادة. وقضت المعاهدة بإطلاق سراح الأسرى عند كلا الجانبين، وأن يكون أجَلُها عشر سنوات بالتقويم المسيحي ، أي عشر سنوات وخمسة شهور بالتاريخ الهجري .

على أن ما من معاهدة لقيت ما لقيته هـــذه المعاهدة مباشرة من الرفض والمقاومة ، إذ جزع العالم الاسلامي . ففي دمشق ، لقي الناصر داود الذيكان ضد إخوته الكامل والمعظم متعة في أن يعلن الحداد العام لِما تعرّض له الاسلام

من خيانة ، بل إن أئمة الكامل جهروا بأنه أساء الى الاسلام [١] .

أما المسيحيون فقد أعربوا عن حزنهم لعدم استرداد بيت المقدس بالقوة ، وامتعضوا لاحتفاظ المسلمين بمشاهدهم ، لا سيما وأنه كان من رأي الخبراء العسكريين أنه « لا يمكن للمسيحيين الاحتفاظ ببيت المقدس ما لم يُضَف إليه إقليم ما وراء نهر الأردن ، فكيف تستطيع بيت المقدس عندئذٍ أن تبقى تحت حكم الصليبيين ولا يربطها بالساحل سوى شريط ضيق من الأرض ؟ » [٢] .

وهكذا فعندما وصل فريدريك لزيارة بيت المقدس والاحتفال بانتصاره ، لم يجد سوى مدينة شبه خاوية ، إذ هجر المسلمون المدينة ، ولم يترددوا إليها إلا لأداء فروض العبادة . بينما نأى المسيحيون الوطنيون بعيداً ، وأعلنوا مخاوفهم من أن عودة اللاتين إلى المدينة لن تعود عليهم بالخير . وقد قام فريدريك بزيارة كنيسة القيامة (يوم الأحد ١٨ آذار – مارس – سنة ١٢٢٩) ، إلا أنه لم يكن في الكنيسة إلا حرسه ، ثم قام بزيارة بيت المقدس (المسجد الأقصى) [٣] .

لم يتوقف الصراع بين المسلمين والصليبيين ، وبقيت القدس تحت حكم الصليبيين حتى سنة ١٢٤٤ م = ٦٤٢ هـ ، حيث انساب في فصل الصيف ألف مقاتل من

---

(١) وقد ذكر ابن الأثير – الكامل في التاريخ ٩ / ٣٧٨ في هذا الموضوع ما يلي : « في سنة ست وعشرين وستمائة ، تسلم الفرنج بيت المقدس ، واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه. يسر الله فتحه وعوده إلى المسلمين بمنه وكرمه».

(٢) تاريخ الحروب الصليبية – رنسيمان – ٣ / ٣٣٢ – ٣٣٣ .

(٣) جاء في تاريخ الحروب الصليبية ٣ / ٣٣٥ في معرض هذه الزيارة: « بينما كان فريدريك يطوف بقبة الصخرة شاهد ما نقشه صلاح الدين في الفسيفساء من كتابة حول القبة ، تسجل تطهير البناء من الكفرة . فسأل الامبراطور مبتسماً : « من يكون هؤلاء ؟ » وإذ لحظ أسياخاً بأعلى النوافذ أعلموه بأنها لم تثبت إلا لطرد العصافير ، فقال: « والآن قد بعث الله لكم الخنازير» ، فاستخدم بذلك اللفظ الدارج الذي يطلقه المسلمون على المسيحيين. والملحوظ أنه كان بحاشيته جماعة من المسلمين ، منهم معلمه في الفلسفة ، وهو عربي من صقلية . ومع أن المسلمين أبدوا اهتماماً بالامبراطور ، غير أنه لم يكن عميق الأثر عندهم ، إذ أن مظهره خيب ظنهم ، فقالوا إنه بوجهه الأحمر الناعم وعينيه قصيرتي النظر (الحولاوين) لا يساوي مائتي درهم في سوق الرقيق.

الخوارزميين الأشداء الذين مضوا إلى بيت المقدس فاقتحموها في ١١ تموز (يوليو) سنة ١٢٤٤ ، ووقع القتال في الشوارع ، ولقي حاكم المدينة الفرنجي مصرعه عند قيامه بهجوم من القلعة ، وهلك معه مقدم الاسبتارية . غير أن الحامية ظلّت على مقاومتها . ولما لم تقدم نجدات من الفرنج، استغاثت بالناصر — أمير الكرك — أقرب الحلفاء المسلمين إليهم، على أن الناصر لم يكن يميل لهؤلاء الفرنج الصليبيين وكرهَ التحالف معهم ضد الخوارزمية المسلمين . ولذا حدث بعد أن أرسل من العساكر مَن حمل الخوارزمية على أن يبذلوا للحامية الأمان بالمسير إلى الساحل إذا سلموا القلعة ، أن تخلى الناصر داود عما قدمه بسبب رفض الحامية التسليم ، فتركها لتلقى مصيرها .

وفي ٢٣ آب — اغسطس — سنة ١٢٤٤ غادر المدينة حوالى ستة آلاف من الفرنج الصليبيين ، من الرجال والنساء والأطفال ، وتركوها للخوارزمية . وبينما كان الصليبيون يتحركون على الطريق إلى يافا تطلّعت جماعة منهم إلى الوراء فشاهدت أعلام الفرنج ترفرف على أبراج المدينة ، وإذ اعتقدوا أن نجدة قد وصلت بوسيلة من الوسائل أصرّ عدد كبير منهم على الرجوع إلى المدينة ، غير أنهم وقعوا في كمين تحت أسوار المدينة ،فهلك نحو ألفين منهم،وتعرّض إخوانهم — الذين تابعوا سيرهم إلى يافا — إلى هجمات المسلمين، بحيث لم يصل منهم إلى يافا أكثر من ثلاثمائة رجل. **وبذا خرجت بيت المقدس نهائياً من أيدي الفرنج،ولم يدخل أبوابها جيش مسيحي إلا بعد حوالي سبعة قرون — بقيادة اللنبي — .**

٧ — الدروس المستفادة

لقد كان تحرير القدس حدثاً كبير الأهمية بنتائجه السياسية والعسكرية على حد سواء . فقد جاء تحرير القدس ليدعم انتصار حطين. وعلى الرغم من أن هذا التحرير لم يكن أكثر من استثمار للنصر في حطين ، إلا أنه أبرز بوضوح التحول الحاسم في مسيرة الصراع وانتقال المسلمين من الدفاع الاستراتيجي إلى الهجوم الاستراتيجي .

وتبرز في عملية القدس الأساليب الجديدة للعمليات والتي يمكن أن يطلق عليها اسم(**التحرير الزاحف**) والتي تمثلت بتحرير المدن الداخلية وطرد الفرنج نحو الساحل ، والمساعدة على تهجيرهم وإعادتهم إلى بلادهم . مع خلق التناقضات التي استنزفت القدرة البشرية للصليبيين ، ذلك أن هؤلاء كمجتمع عسكري كانوا يعيشون على الحرب ، الأمر الذي لا يمكن له تحقيق وحدة العناصر المتباينة إلا عن طريق النصر ، فعندما أخذ هذا النصر في الابتعاد عن الصليبيين ظهرت التناقضات المثيرة ، وتفاقمت المشاكل الادارية ـ الاقتصادية ـ مما أدى إلى فشل المشروع الصليبي . وصحيح أنه جاءت حملات متتالية بعد ذلك إلا أن تحول مسيرة الصراع لم تعد تسمح بانتكاسات إلى الخلف ، ويمكن اعتبار ما تلى ذلك من انتكاسات بأنها انحرافات عن مسيرة الصراع لم تلبث الحتمية التاريخية حتى أعادتها في كل مرة إلى الاتجاه الصحيح (على نحو ما حدث عندما سمح الكامل للصليبيين بالعودة إلى القدس) ، ثم جاء الخوارزمية ليخرجوا الفرنج على غير الصورة التي خرجوا بها أيام صلاح الدين .

وتبقى الدروس العسكرية بعد ذلك أكثر من أن يتم حصرها ولعل أبرزها :

١ ـ التصميم على بلوغ الهدف ، وقد ظهر ذلك منذ احتلال الصليبيين لبيت المقدس حيث انطلقت جموع المسلمين لإبراز أهمية الحدث ، وإثارة المشاعر ضد البرابرة القادمين من وراء البحار ، ومعالجة التعصب الصليبي برد فعل معادل له بالقوة ومضاد له بالاتجاه (بالرغم من بقاء المسلمين أكثر رحمة تجاه الضعفاء الأطفال والنساء والرجال غير المحاربين) ، وقد ظهر هذا التصميم على مستوى القادة . فإصدار نور الدين أوامره ببناء المنبر قبل عشرين سنة من استعادة بيت المقدس ليس إلا تصويراً للتصميم على بلوغ الهدف ، كما أن انصراف صلاح الدين من حطين إلى بيت المقدس لم يكن إلا تعبيراً عن هذا التصميم ذاته وقد ذكر صلاح الدين في أحاديثه مع قادة الفرنج قضية احتلال القدس من قبل الصليبيين والصورة التي تمّ بها هذا الاحتلال أكثر من مرة . (ولم تكن

القضية قضية انتقام – بدلالة تجاوز الأعمال الانتقامية – بقدر ما كانت قضية تحرير للأرض المقدسة من مغتصبيها وإعادة السيادة الإسلامية إليها) .

٢ – الاهتمام بالاستطلاع والجاسوسية : وقد ظهر أن صلاح الدين قد نظم أنصاره في صفوف الصليبيين ذاتهم « الأرثوذكس » كما أنه كان يهتم بالاستطلاع الشخصي (حيث أمضى فترة خمسة أيام في التجول حول القدس لتحديد الموقع المناسب لتركيز الجهد الرئيسي) .

٣ – عزل الهدف عن كل إمكانات تدخل خارجي، فقد استدعى صلاح الدين أسطول مصر لعزل مسرح العمليات في فلسطين عن كل تدخل خارجي ، وفي الوقت ذاته عزل مدينة القدس عن كل ما يحيط بها ، واحتلال المواقع الرئيسية التي يمكن لها أن تتدخل في غير مصلحة العملية ، مما ساعد على إحباط إرادة القتال لدى الحامية المدافعة عن القدس. وخلق لها في الوقت ذاته مشكلة إدارية صعبة وهي ضرورة تأمين الاطعام لأعداد ضخمة، وقد ظهرت أهمية هذا العامل أثناء المفاوضات للوصول إلى الصلح (الهدنة) .

٤ – الموازنة بين غاية السلم وهدف الحرب ، فقد كان المسلمون يرغبون في الاستيلاء على القدس سليمة بقدر المستطاع لبناء المجتمع من جديد، فجاء استخدام العنف عند صلاح الدين مقنعاً وليس مطلقاً ، في حين كان هدف الحرب عند الحامية المدافعة عن القدس هو (المحافظة على أرواحهم وممتلكاتهم) ولهذا كان لديهم الاستعداد للانسحاب وإيقاف القتال إذا ما توافرت لهم الشروط المناسبة ومنحهم صلاح الدين ذلك .

٥ – الاقتصاد بالقوى ، لقد كان باستطاعة المسلمين اقتحام القدس، وكان لصلاح الدين أنصاره الذين يستطيعون فتح أبواب المدينة لدخولها عنوة ، إلا أن ذلك كان سيؤدي – بدون شك – إلى استنزاف قسم من القدرة القتالية للمسلمين ، وكان صلاح الدين في حاجة لهذه القدرة من أجل متابعة التحرير ، ولهذا فضّل اللجوء إلى (أيسر الحلول وأسهلها) بما يتوافق مع (هدف الحرب)

وبما يضمن الموازنة بين (هدف الحرب وغاية السلم) وبذلك أمكن له تحقيق نصر مزدوج في العمليات وعلى مستوى السياسة الاستراتيجية . ويظهر هنـــا الاختلاف بين قادة المسلمين الذين كانوا لا يميلون إلى استخدام الفاعلية المطلقة في الحرب – وتقنينها في حدود الهدف – وبين قادة الفرنج الذين كانوا يميلون إلى استخدام تلك الفاعلية للحصول على الهدف بالحد الأدنى من الخسائر البشرية.

٦ً – وتظهر مسيرة الأعمال الفارق في الروح المعنوية بين المجاهدين في سبيل الله من المسلمين وبين حاميــة القدس من الصليبيين . وإذا كان الصليبيون قد استولوا على القدس ، بفضل ضعف الحامية الإسلامية وبفضل التفوق في القوى والوسائط ، إلا أن استعادة بيت المقدس قد جاءت والصليبيين يمتلكون تفوقاً كبيراً في القدرة البشرية – ولو أن المصادر الصليبية تبالغ في وصف ضعف هذه القدرة وعدم توافر الوسائط الدفاعية للمقاتلين – وتظهر أهمية الروح المعنوية في استمرار الصراع لاجراء النقب وإظهارهم التصميم على فتح القدس مهما بلغت التضحيات ، وتظهر هنا أهمية (استراتيجية الهجوم غير المباشر) التي أقنعت الصليبيين بالاستسلام رغم توافر القدرة القتالية الكبيرة لديهم .

٧ً – التنظيم الإداري الجيــد لقوات المسلمين ، والإدارة الرائعة للحرب ، وحشد القوى والوسائط الضرورية (مثل تأمين المنجنيقات والأبراج وأدوات النقب والمعدات الهندسية) وتنظيم استخدامها بكفاءة عالية ، مما يبرهن على مستوى التدريب الجيد الذي كانت عليه قوات المسلمين . وكذلك الانضباط الذي كانت عليه قوات المسلمين بحيث كانت تنفذ بدقة أوامر القادة – سواء أثناء الأعمال القتالية ، أو عند دخول المدينة – وقد حدثت بعض الانتهاكات من قبل القادة – بعضهم – إلا أن صلاح الدين كان يقمع كل مخالفة يصله علم بها.

ويبقى من الصعب بعد ذلك تقويم كل منجزات عملية فتح بيت المقدس من الناحية العسكرية إذ أن أهمية العملية من الناحية الدينية (المعنوية) تزيد على كل تقويم .



« ولي الأمر بعد عبد المؤمن ابنه يوسف – الموحدين – وأجاز إلى الأندلس ، وكانت له مواقف في جهاد العدو . وولي بعده ابنه يعقوب المنصور الطائر الصيت ، وكانت له في النصارى بالأندلس نكاية كبيرة ، ومن أعظمها غزوة الأرك التي تضاهي وقعة الزلاقة أو تزيد. والأرك : موضع بنواحي بطليوس . ونجا ألفونس – الأذفونش – ملك النصارى إلى طليطلة في أسوأ حال ، فحلق رأسه ولحيته ، ونكس صليبه ، وآلى على نفسه أن لا ينام على فراش ولا يقرب النساء ولا يركب فرساً ولا دابة حتى يأخذ بالثأر » .

(نفح الطيب – المقري – ١ / ٤٤٣)

٥
يوم الأرك
(٥٩١ هـ = ١١٩٤ م)

١ – الوضع العام قبل معركة الأرك .
٢ – الموقف المضاد للمسلمين في الأندلس .
٣ – يوم الأرك .
٤ – العقاب بعد الأرك .
٥ – نتائج المعركة :
آ – النتائج السياسية .
ب – الدروس العسكرية .

وجيز الأحداث

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٤٧٩	١٠٨٦	يوم الزلاقة وانتصار المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين على القشتاليين .
٤٩٠	١٠٩٦	ألفونسو السادس يقود قوات الأرغونيين وينتزع من المسلمين وشقة .
٥٠٧ – ٥٠٩	١١١٣ – ١١١٥	البيزيون ينتزعون من المسلمين جزر الباليئار (مينورقة وميورقة ويابسة) .
٥٠٩	١١١٥	المسلمون يستعيدون جزر الباليئار .
٥١٢	١١١٧	ألفونسو (الأرغون) ينتزع من المسلمين سرقسطة .
٥٢٤	١١٢٩	ألفونسو ينتزع من المسلمين تطيلة وطرسونة .
٥٤٠ – ٦٣٣	١١٤٥ – ١٢٣٥	الموحدون ينتزعون الحكم من المرابطين في المغرب الاسلامي .
٥٤٢	١١٤٧	ألفونسو ينتزع من المسلمين المرية .

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٥٤٣	١١٤٨	ألفونسو ينتزع من المسلمين طرطوشة .
٥٤٥	١١٥٠	عبد المؤمن (الموحدون) يدخل الأندلس برسم الجهاد .
٥٨٣	١١٨٧	صلاح الدين ينتصر على الصليبيين في حطين ويحرّر القدس .
٥٩١	١١٩٤	الموحدون والأندلسيون ينتصرون على الصليبيين في الأرك .
٦٠٩	١٢١٢	يوم العقاب وهزيمة المسلمين .

ما كاد غبار معركة الزلاقة ينشق عن الأفق ، حتى أخـذ الخلاف في تمزيق حلفاء الجهاد ، فقد رجع « ابن تاشفين » من المعركة لينزل ضيفاً على المعتمد ، وقد شهد ابن تاشفين مـا أذهله لما كان عليه المعتمد من الترف ، وسأل أصحابه عن أحوال المعتمد في لذاته، وهل تختلف فتنقص عما هي عليه في بعض الأوقات؟ فقيل له : بل كل زمانه على هـذا . فقال : أفكل أصحابه وأنصاره على عدوه ومنجديه على الملك ينـال حظاً من ذلك ؟ فقالوا : لا . قال : فكيف ترون رضاهم عنه ؟ فقالوا : لا رضى لهم عنه .

ورجع ابن تاشفين إلى بلاده وقـد أعجبه حسن بلاد الأندلس وبهجتها ، وما بها من المباني والبساتين والمطاعم وسائر الأصناف التي لا توجـد في بلاد العدوة (المغرب) التي هي بلاد بربر وأجلاف عربان ، فجعل خواص يوسف يعظمون عنده بلاد الأندلس ويحسنون له أخذها ، ويوغرون قلبه على المعتمد بأشياء نقلوها عنه ، فتغير على المعتمد وقصد مُشارفة الأندلس .

وأراد ابن تاشفين استفتاء علماء الأندلس قبل اتخـــاذ أي إجراء يتعلق بمستقبل إدارة الأندلس، فأفتوا بجواز خلع المعتمد وغيره من ملوك الطوائف، وبقتالهم إن امتنعوا، فكتب ابن تاشفين لقائده بالأندلس – سير بن أبي بكر– بترحيل « ملوك الطوائف » إلى العـدوة (المغرب) ، فمن فعل فذاك ، ومن أبى فحاصره وقاتله ولا تنفس عليه، وليبدأ بمن والى الثغور، وعدم التعرض

للمعتمد بن عباد إلا بعد الاستيلاء على البلاد ، وأن يتم تعيين أمير من عساكر ابن تاشفين على كل بلد يتم أخذه من ملوك الأندلس .

ومضى «سير بن أبي بكر» فقضى على ملوك الطوائف واحداً بعد الآخر، حتى جاء دور المعتمد بن عباد ، فحاصره في اشبيلية شهراً ، ثم قاتله فانتصر عليه وأخذ البلد قهراً ، واستخرجه من قصره ، فحُمل وجميع أهله وولده إلى العدوة فانزل بأغمات ، وأقام بها إلى أن مات .

١ – الوضع العام قبل معركة الأرك

عندما عزم السلطان يوسف بن تاشفين على العودة إلى بلاده ، ترك الأمير سير ابن أبي بكر أحد قواده المشاهير ، وترك معه جيشاً برسم غزو الفرنج، فاستراح الأمير المذكور أياماً قلائل ، ودخل بلاد الأذفونش – ألفونسو – وأطلق الغارة ، ونهب وسبى وفتح الحصون المنيعة والمعاقل الصعبة العويصة ، وتوغل في البلاد ، وحصّل أموالاً وذخائر عظيمة، ورتب رجالاً وفرساناً في جميع ما أخذه ، وأرسل للسلطان يوسف جميع ما حصّله ، وكتب له : « يعرّفه أن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو وملازمة الحرب والقتال ، في أضيق العيش وأنكده ، وملوك الأندلس في بلادهم وأهليهم في أرغد العيش وأطيبه » .

ووافق السلطان يوسف على إخراج ملوك الأندلس من بلادهم وإرسالهم إلى المغرب ، فبدأ الأمير سير بالقضاء على بني هود في الثغر الأعلى وانتزع منهم بلادهم . ثم نازل بني طاهر بشرق الأندلس، فأسلموا له البلاد ولحقوا ببرّ العدوة (المغرب) . ثم نازل بني صمادح بالمرية فاستولى عليها ، وقصد بطليوس ، وكان بها المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس ، فحاصره واستولى على جميع أعماله وماله . وجاء دور المعتمد بن عباد ، فحاصره شهراً ودخل البلد قهراً ، ونقله إلى

المغرب [1] .

وعنـدما توفي السلطان يوسف بن تاشفين سنة (٥٠٠ هـ = ١١٠٦ م) كانت الأندلس قد أصبحت خاضعة للمرابطين . وجـاء علي بن يوسف فسلك سنن أبيه وإن قصر عنه في بعض الأمور ، ودفع العدو عن الأندلس مدة إلى أن انتصرت ثورة الموحدين في المغرب بقيادة محمـد بن تومرت الملقب بـ (المهدي) والذي أسّس دولة الموحدين ، فلم يزل يسعى في هدم كيان لمتونة إلى أن مات فاستخلف

---

(١) كان هنـاك من حذر المعتمد بن عباد قبل وقت طويل من غدر السلطان ابن تاشفين به . ويذكر أن رجـلا ذو هيئة رثة دخل على المعتمد ، فلما مثل بين يديه قال : « أصلحك الله أيها السلطان ، إن من أوجب الواجبات شكر النعمة ، وإن من شكر النعمة إهداء النصائح ... وقد وقع خبر في أذني من بعض أصحاب ضيفك هذا يوسف بن تاشفين ، يدل على أنهم يرون أنفسهم وملكهم أحق بهذه النعمة منك ، وقـد رأيت رأياً ... رأيت أن هذا الرجل الذي أطلعته على ملكك مستأسد على الملوك ، قد حطم على زناته ببر العدوة ، وأخذ الملك من أيديهم ، ولم يبق على واحد منهم ، ولا يؤمن أن يطمح إلى الطمع في ملكك بل في ملك جزيرة الأندلس كلهـا ... وإن له من الولد والأقارب وغيرهم من يود له الحلول بمـا أنت فيه من خصب الجناب .. فلا يفتك الحزم فيما هو ممكن ... والحزم هو أن تجمع أمرك على قبض ضيفك هذا ، واعتقاله في قصرك ، وتجزم أنك لا تطلقه حتى يأمر كل من بجزيرة الأندلس من عسكره أن يرجع من حيث جاء ، حتى لا يبقى منهم أحد بالجزيرة طفل فمن فوقه ، ثم تتفق أنت وملوك الجزيرة على حراسة هذا البحر من سفينة تجري فيه له ، ثم تستحلفه بأغلظ الأيمان ألا يضمر في نفسه عوداً إلى هـذه الجزيرة إلا باتفاق منكم ومنه »... فقال له ممن حضر مجلس المعتمد: « ما كان المعتمد ممن يعامل بالحيف، ويغدر بالضيف » . فقال الرجل: « إنما الغدر أخذ الحق من يد صاحبه ، لا دفع الرجل المحذور إذا ضاق به ». فقال ذلك الذي حضر المجلس : « ضيم مع وفاء خير من حزم مع جفاء » وقضي الأمر . واقتحم جنـد ابن تاشفين القصر ، وجمـع المعتمد هو وأهله ، وحملتهم الجواري المنشآت ، وضمتهم جوانحها كأنهم أموات ، بعدما ضاق عنهم القصر ... والناس قـد حشروا بضفتي الوادي يبكون بدموع كالغوادي ، فساروا والنوح يحدوهم والبوح باللوعة لا يعدوهم » .

(نفح الطيب ٤ / ٣٧٤ - ٣٧٦)

عبد المؤمن بن علي الذي استولى على مملكة اللمتونيين . ثم جـــاز إلى الأندلس ، وملك كثيراً منها .

ولما كانت سنة ٥٤٥ هـ = ١١٥٠ م ، سار ألفونسو (الأذفونش) ملك طليطلة وجيليقيا إلى قرطبة ومعه أربعون ألف فارس، فحاصرها، فبلغ الخبر عبدالمؤمن فجهز إليهم جيشاً يضم اثني عشر ألف فارس ، فلما أشرفوا على ألفونسو رحل عنها . وفي السنة التاليـة دخل جيش عبد المؤمن إلى الأندلس في عشرين ألفاً ، ودخل صاحب غرناطة (ابن همشك) وغيره تحت طاعة الموحدين .

وحرصوا على قصد ابن مردنيش (ملك شرق الأندلس) ، وبلغ ذلك ابن مردنيش فخاف وأرسل إلى صاحب برشلونة من الإفرنج يستنجده ، فتجهز إليه في عشرة آلاف من الإفرنج ، وسار قـــائد جيش عبد المؤمن إلى أن قارب ابن مردنيش ، فبلغه أمر تحرُّك قوات برشلونة من الفرنج ، فرجع إلى اشبيلية .

ولما مات عبد المؤمن بويع بعـــده ابنه يوسف عبد المؤمن ، ولما استقرت له الأمور دخل إلى جزيرة الأندلس في سنة ٥٦٦ هـ = ١١٧٠ م ، وفي صحبته مائة ألف فارس من الموحدين والعرب ، فنزل باشبيلية (ومـــات في تلك الفترة أبو عبدالله محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش) ، فجاء أولاده وأهـــله إلى أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن ، فدخلوا تحت حكمه ، فصاهرهم وأحسن إليهم، وأصبحوا عنــده في أعز مكان ، وانضمت بذلك منطقة شرق الأندلس لحكم الموحدين .

ثم شرع يوسف في استرجاع البـــلاد التي استولى عليها الإفرنج ، فاتسعت مملكته ، وصارت سراياه تُغير إلى باب طليطلة ، فاجتمع الفرنج كافـة عليه ، واشتد الغلاء في عسكره فرجع عنها إلى مراكش . ثم جاز البحر سنة ٥٨٠ هـ = ١١٨٤ م ومعه جمع كثيف ، وقصد غربي بلادها ، فحاصر مدينـة (شنترين) وبقي محاصراً لها شهراً ، فأصابه المرض فمات وحُمل في تابوت إلى اشبيلية .

ولما مات يوسف قام بالأمر بعـده ابنه الشهير أمير المؤمنين يعقوب المنصور

ابن يوسف بن عبد المؤمن ، الذي رفع راية الجهاد ، وكثرت الفتوحات في أيامه. وأول ما نظر فيه عندما صار الأمر إليه أن نظم بلاد الأندلس ، ونظر في شأنها ، ورتب مصالحها ، وقرر المقاتلين في مراكزهم ، ثم رجع إلى عاصمته (مراكش) .

وفي سنة ٥٨٦ هـ = ١١٩٠م ، بلغه أن الإفرنج ملكوا مدينة شلب وهي من غرب الأندلس ، فتوجه إليها بنفسه ، وحاصرها ، وأخذها ، وأنفذ في الوقت ذاته جيشاً من الموحدين والعرب ، ففتح أربع مدن مما بأيدي الإفرنج من البلاد التي كانوا أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين سنة ، وخافه صاحب طليطلة وسأله الهدنة والصلح ، فهادنه خمس سنين وعاد إلى مراكش[1] .

٢ – الموقف المضاد للمسلمين في الأندلس

اتبعت إمارات الشمال في الأندلس سياسة استراتيجية ثابتة فيما تمّت تسميته بعد ذلك باسم « سياسة الاسترداد » ، وهي سياسة ترتكز على مجموعة من المبادىء أبرزها :

---

(١) كان أبو بكر بن عبدالله بن وزير الشلبي ، وهو من أمراء كتائب اشبيلية ، قد تولى قيادة القوات في هذه الحملات ، وكان شاعراً ، فعندما رجع من مهماته ظافراً ، ألقى قصيدة يخاطب بها يعقوب المنصور فيما جرى في وقعة مع الفرنج كان الشلبي المذكور فيها مقدماً ، وهي تصور جانباً من الصراع المرير في تلك الفترة :

ولما تلاقينا جرى الطعن بيننا ... فمنا ومنهم طائحون عديد
وجال غرار الهند فينا وفيهم ... فمنا ومنهم قائم وحصيد
فلا صدر إلا فيه صدر مثقف ... وحول الوريد للحسام ورود
صبرنا ولا كهف سوى البيض والقنا ... كلانا على حر الجلاد جليد
ولكن شددنا شدة فتبلدوا ... ومن يتبلد لا يزال يحيد
فولوا وللسمر الطوال بهامهم ... ركوع وللبيض الرقاق سجود

١ – إثارة التناقضات بصورة مستمرة بين مسلمي الأندلس (العرب والبربر، الأندلسيين والمغاربة من مرابطين وموحدين : المولدين وغير المولدين) واستثمار هذه التناقضات لتمزيق الجبهة الداخلية للمسلمين وضربهم بعضهم ببعض .

٢ – انتزاع الأقاليم من المسلمين بصورة بطيئة وتدريجية ، قلعة بعـد قلعة ، وقرية بعد قرية ، ومدينة بعد أخرى .

٣ – تطبيق ما يمكن تسميته بسياسة الأرض المحروقة ، وذلك بعزل المنطقة أو المدينـــة التي تكون هدفاً للحرب وتدميرها اقتصادياً وإحراقها وإفقارها وتهديد الأمن فيها إلى أن تحين الفرصة للانقضاض عليها بأقل جهد ممكن .

٤ – ممـارسة أعمال الإبادة ضد المسلمين للوصول إلى هدف مزدوج : تدمير القدرة البشرية للمسلمين وإضعاف قدرتهم القتاليـة ، ثم إضعاف الروح المعنوية للأقاليم الأخرى التي ستكون هدفاً للحرب في المراحل التالية .

ويمكن ملاحظة هذه المبادىء وسواها من خلال عرض الملامح العـــامة لِما حدث من معارك في هذه الفترة . ولئن كان من الصعب استقراء كل الشواهد للصراع المرير والمستمر ، فإنه بالإمكان مطالعة هذه الملامح من خـــلال بعض النماذج المنتقاة .

يمكن أخذ الصراع على بلنسية (فالانسيا) نموذجاً لأساليب الحرب في تلك الفترة . ففي سنة ٤٨٨ هـ = ١٠٩٥ م كانت بلنسية تحت حكم القاضي (أبي أحمد ابن جحاف) الذي وضع نفسه تحت حماية يوسف بن تاشفين ، فقام القادر بن ذي النون الذي مكن الفرنج من احتلال طليطلة بحصار بلنسية ، فقام القاضي (ابن جحاف) ومعـه المرابطون بالهجوم على القادر بن ذي النون فقتله . وانسحبت قوات المرابطين بعد ذلك . فعمل يوسف بن أحمد بن هود أمير سرقسطة بتحريض رودريك للاستيلاء على بلنسية ، ممـا جعل ابن جحاف يستصرخ دعم ابن تاشفين الذي لم يسرع لنجدته . واستمر حصار بلنسية عشرين شهراً ، إلى أن دخلها

الفرنج عنوة فأحرقوها وعاثوا فيها [1] وتم إحراق القاضي أبي أحمد بن جحاف.

وعندما علم ابن تاشفين بذلك أرسل جيشاً سنة ٤٩٥ هـ = ١١٠١ م فانتزعها من الفرنج ، وتوالى عليها أمراء الملثمين ، وتعرضت بلنسية للاضطراب المستمر والتأرجح بين الولاء للملثمين والاستقلال عنهم والتعاون مع النصارى أحياناً ومقاومتهم في أحيان أخرى ، ولم يزل أمر بلنسية يضعف باستيلاء العدو على أعمالها إلى أن حصرها ملك برشلونة النصراني ، فاستغاث (زيان) بصاحب إفريقية — حاكمها — (أبي زكريا بن أبي حفص) [2] فبادر السلطان باعانتهم ، وشحن الأساطيل بالمدد إليهم من المال والأقوات فوجدوهم في هوة الحصار إلى أن تغلب الطاغية على بلنسية سنة ٦٣٧ هـ = ١٢٣٩ م ويظهر بوضوح أن الصراع على بلنسية استمر أكثر من مائة وأربعين عاماً .

---

(١) وفي ذلك يقول ابن خفاجة الأندلسي :

عاثت بساحتك الظبا يا دار	ومحا محاسنك البلى والنار
فإذا تردد في جنابك ناظر	طال اعتبار فيك واستعبار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها	وتمخضت بخرابها الأقدار
كتبت يد الحدثان في عرصاتها	لا أنت أنت ولا الديار ديار

(٢) أرسل الأمير زيان قصيدة إلى أبي زكريا ابن أبي حفص يستنجده فيها ويطرح عليه الموقف وهي قصيدة طويلة منها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا	إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست	فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً	للحادثات وأمسى جدها تعسا
في كل شارقة إلمام بائقة	يعود مأتمها عند العدا عرسا
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم	إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
يا للمساجد عادت للعدا بيعاً	وللنداء غدا أثناءها جرسا

(نفح الطيب ٤ / ٤٥٧ - ٤٦٠)

وكانت كتندة أو (قتندة) من أعمال الثغر الأعلى التابعة لسرقسطة ، وقد تغلب عليها العدو سنة ٥١٤ هـ = ١١١٩ م ، وقتل من متطوعي المسلمين نحو من عشرين ألفاً .

ودخل الفرنج مدينة المريـــة عنوة سنة ٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م . وتعرضت المدينة للنهب والتدمير وشتى أنواع الفظائع (وأحصي عدد من سبي من أبكارها فكان أربعة عشر ألفاً) وبعد أخذ النصارى المرية هـذه المرة رجعت إلى ملك المسلمين واستنقذها الله تعالى على يد الموحدين. وبقيت بأيدي أهل الإسلام سنين وكان أول الولاة عليها حـين استولى عليها أمير المسلمين عبد المؤمن بن علي رجلاً يقال له يوسف بن مخلوف . فثار عليه أهـــل المرية وقتلوه وقدموا على أنفسهم الرميمي فأخذها النصارى منه عنوة .

ولما أخذت المرية أقبل إليها السيدان أبو حفص وأبو سعيد ابنا أمير المؤمنين فحصرا النصارى بها ، وزحف إليهما أبو عبدالله بن مردنيش ملك شرق الأندلس محارباً لهما . فكانا يقاتلان النصارى والمسلمين داخـــلاً وخارجاً . ثم رأى ابن مردنيش العار على نفسه في قتالهم مع كونهم يقاتلان النصارى ، فارتحل ، فقال النصارى : مـــا رحل ابن مردنيش إلا وقد جاء مددهم . فاصطلحوا ودخل الموحدون المدينة ، وقد خربت وضعفت .

وأصبح لنصارى الشمال الهيمنة على المسلمين المتفرقين يفرضون عليهم المغارم والأتاوات ويتحكمون بمصائرهم — حـتى في داخل الإمارات المستقلة عن طريق أنصارهم الذين تسللوا إلى الحكم ووصلوا إلى مواقع السلطة [(١)] . وهذا مما أضعف

---

(١) ويصور الموقف الداخلي للمسلمين في هذه الفترة ما قاله أبو عبدالله محمد الفازاري الشاعر القرطبي :

الروم تضرب في البلاد وتغنم	والجور يأخذ ما بقي والمغرم
والمال يورد كله قشتالة	والجند تسقط والرعية تسلم
وذوو التعيين ليس فيهم مسلم	إلا معين في الفساد مسلم
أسفي على تلك البلاد وأهلها	الله يلطف بالجميع ويرحم

من إرادة القتال لدى المسلمين. ولم تكن الهدنة التي يتم عقدها في كل فترة عندما تشعر إمارات الشمال بقوة المسلمين سوى مرحلة إعداد لحرب مقبلة ، كان الفرنج يستفيدون منها لزيادة قوتهم في حين ينصرف المسلمون إلى الصراعات الداخلية مما كان يزيد ضعفهم على ضعف .

ومن الملاحظ أن الصراع في هذه الفترة قد أخذ في التلاحم بتأثير العامل الجديد وهو تدخل مسلمي المغرب – المرابطين ثم الموحدين – ولكن هذا العامل لم يلق القبول الكامل من مسلمي الأندلس إذ استمر المسلمون الأندلسيون في التعاون أحياناً مع أمراء النصارى لنصرتهم بعضهم على بعض أو للقتال ضد مسلمي المغرب .

وقد كان لإزالة أمراء الطوائف وبصورة خاصة القضاء على المعتمد بن عباد آثاره السلبية على محصلة القوى ، فقد أخذت بعض مراكز القوى الأندلسية المسلمة تتوجس خيفة من التعاون مع مسلمي المغرب ، وتفضل التعاون مع نصارى الشمال ، تفضيلاً منها لمصالحها الآنية المؤقتة على مصلحة المسلمين في الحرب طويلة الأمد . وقد كان جمهور المسلمين في الأندلس عارفاً للموقف الصحيح ، ومفضلاً التعاون مع مسلمي المغرب على التعاون مع نصارى الشمال ، إلا أن الأمراء الأندلسيون أصبحوا بحكم تكوينهم ونتيجة ضعفهم وبحكم تكوين أجهزة الحكم التي سيطر عليها غير المسلمين في كثير من الأحيان أكثر انقياداً لنصارى الشمال ، فكان في ذلك هلاك الجميع : أمراء المسلمين وجماهيرهم على السواء ما كان منهم من أصل أندلسي ، ومن جاء من المغرب الإسلامي مدداً لمسلمي الأندلس .

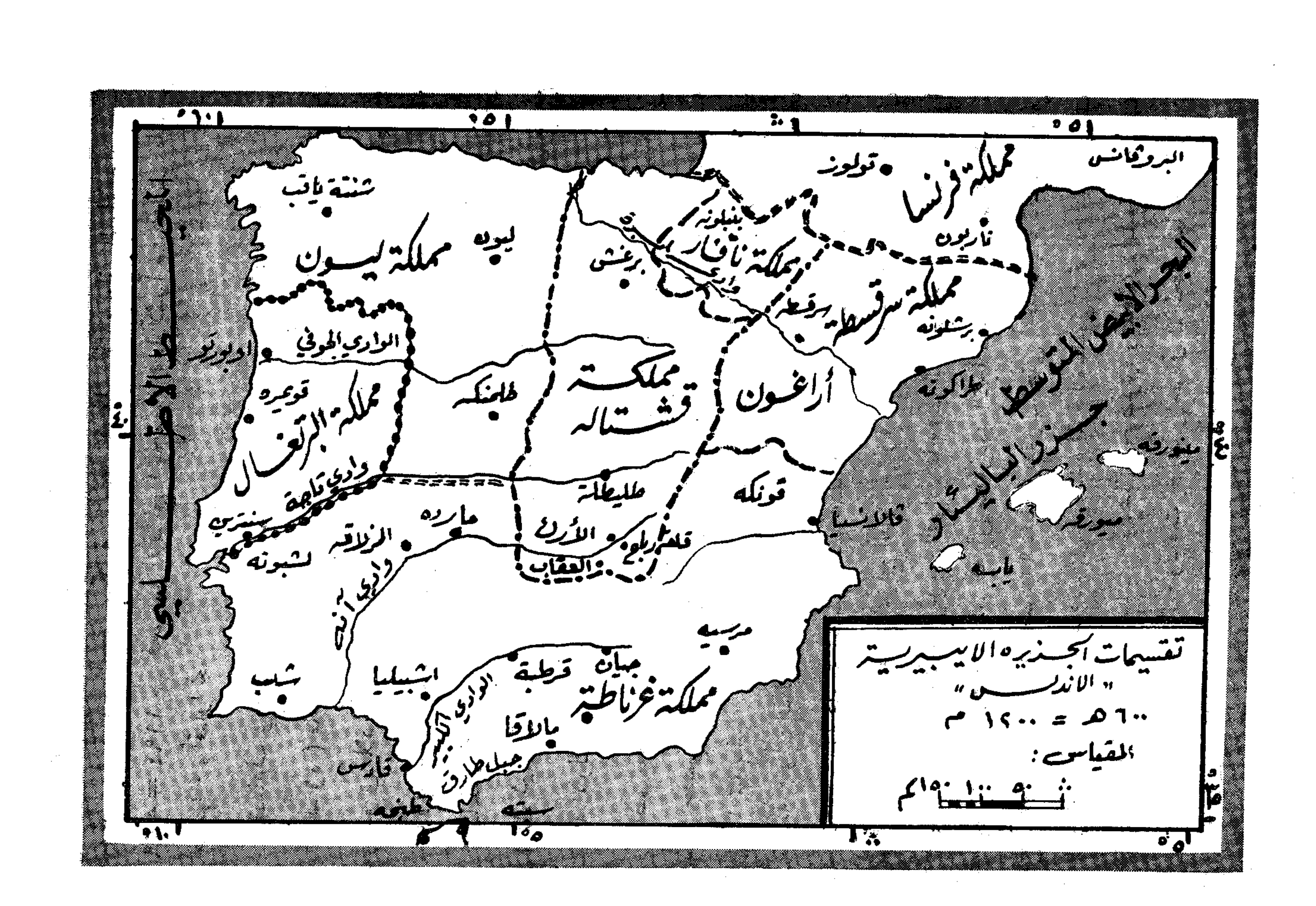
٣ – يوم الأرك

وهكذا فعندما انتهت الهدنة والتي كانت مدتها خمس سنين ، ولم يبق منها إلا القليل ، خرج طائفة من الافرنج في جيش كثيف إلى بلاد المسلمين ، فنهبوا

وسعوا وعاثوا عيثاً فظيعاً ، ووصل الخبر يعقوب المنصور ، فتجهز لقصدهم في جيوش موفرة وعساكر مكتبة واحتفل في ذلك وجاز إلى الأندلس سنة ٥٩١ هـ = ١١٩٤ م . فعلم به الافرنج ، فجمعوا جمعاً كثيراً من أقاصي بلادهم وأدانيها ، وأقبلوا نحوه .

وتصادف في تلك الفترة أن مرض يعقوب المنصور مرضاً شديداً (حتى يئس منه أطباؤه) فأفاد الفونسو ملك قشتالة وظن تأخر المسلمين ضعفاً ، فعاث الفونسو في بلاد المسلمين بالأندلس وتفرقت جيوش المسلمين ، وأرسل الفونسو يتهدد ويتوعد ويطلب تسليمه بعض الحصون المتاخمة له من بلاد الأندلس . إلا أن السلطان يعقوب المنصور تماثل للشفاء وقاد جيوشه ، وتزاحف الطرفان حتى تم اللقاء شمالي قرطبة — على قرب من قلعة رباح يوم الخميس تاسع شعبان في موقع يقال له الأرك .

ونظم يعقوب المنصور قواته ، فكلف الشيخ ابن أبي حفص عم السلطان أبي زكريا الحفصي بقيادة قوة لمجابهة قوات الفونسو ، واحتفظ بكتلة قوية من جيشه تولى قيادتها بنفسه . وبدأ الاشتباك ، وظن الفونسو أن القوة التي تجابهه هي القوة الرئيسية ، وأن السلطان يعقوب المنصور هو الذي يقودها . فألقى بثقله ضدها وحدثت معركة قاسية استشهد فيها عدد كبير من المسلمين ، وعندما أوشكت المعركة على التحول لمصلحة الفرنج الذين استنزفت المعركة قدرتهم ، ظهر السلطان يعقوب وهو يقود الكتلة الرئيسية للقوات فأصيب الفرنج بالذعر والهلع ، وأسلموا أنفسهم للفرار ، وتحولت المعركة إلى مطاردة والتجأ قسم من الفرنج إلى (قلعة رباح) فتحصنوا بها فحاصرها السلطان يعقوب حتى أخذها . وكانت من قبل للمسلمين فأخذها العدو فردت في هذه المرة للمسلمين ، ثم انطلقت قوات المسلمين إلى الشمال حتى وصلت (طليطلة) فحاصرتها وقذفتها بالمجانيق وضيقت عليها وقاتلت أهلها أشد قتال ، وقامت بعزلها وإحراق الأشجار فيما حولها وشن الغارات على أرجائها ، وأخذ السلطان يعقوب من أعمالها حصوناً وقتل رجالها وسبى


تقسيمات الجزيرة الايبيرية
"الاندلس"
٦٠٠ هـ = ١٢٠٠ م
المقياس:
المحيط الأطلسي
البحر الأبيض المتوسط
جزر البليار
مملكة ليون
مملكة البرتغال
مملكة قشتاله
مملكة نافار
مملكة سرقسطة
مملكة فرنسا
مملكة غرناطة
أراغون
شنتة ياقب
ليون
الوادي الجوفي
قويمرة
طلمنكه
برغش
بنبلونة
سرقسطة
برشلونة
طراكونه
تولوز
ناربون
البروفانس
طليطلة
قونكه
بلنسيا
ميورقة
منورقة
يابسة
الأرك
قلعة رباح
العقاب
ماردة
الزلاقة
لشبونه
سنترين
وادي تاجة
وادي آنة
مرسية
جيان
قرطبة
اشبيليا
الوادي الكبير
مالاقا
جبل طارق
قادس
شلب
طنجة
سبتة

حريمها وخرب منازلها وهدم أسوارها ، ولم يبرز إليه أحد من المقاتلة ، حتى إذا لم يبق من طليطلة إلا فتحها ، خرجت والدة الفونسو إلى السلطان يعقوب ومعها نساء الفونسو وبناته ، وبكين بين يديه ، وسألنه إبقاء البلد عليهن ، فرق لهن ، ووهب لهن من الأموال والجواهر ما جلّ ، وردهن مكرمات ، وعفا بعد القدرة وعـــاد إلى قرطبة ، فأقام شهراً يقسم الغنائم . وجاءته رسل الفونسو يطلبون الصلح فصالحه . وأقـام (يعقوب المنصور) في الأندلس حتى سنة ٥٩٣ حيث عاد إلى بلاد الفرنج ، وفعل فيها الأفاعيل ، فلم يقدر العدو على لقائه . وضاقت على الافرنج الأرض بما رحبت فطلبوا الصلح فأجابهم إليه .

كانت غنائم المسلمين في معركة الأرك أكثر من أن تحصى ، حتى قيل بأنــه حصل لبيت المال من دروع الافرنج ستون ألفاً ، وعدة الخيام مائة ألف وخمسين ألف خيمة ، والخيل ثمانين ألفاً والبغــال مائة ألف والحمير أربعمائة ألف ، جاء بها الكفار لحمل أثقالهم . أما الجواهر والأموال فلا تحصى . وقيل إن عدد قتلى الفرنج قد وصل إلى ١٤٦ ألف قتيل ، وبلغ عــدد الأسرى ٣٠ ألفاً (حتى بيع الأسير بدرهم والسيف بنصف درهم والفرس بخمس دراهم والحمار بدرهم) ، وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع .

٤ – العقاب بعد الارك

كان من نتيجة انتصار السلطان يعقوب المنصور داخلياً ، أن شدد قبضته على الأندلس . ولما استفحل أمر الموحدين استعملوا القرابة لحكم الأقاليم الأندلسية ، وكانوا يسمونهم السادة ، واقتسموا ولاياتها بينهم ، وعندما توفي يعقوب المنصور سنة ٥٩٥ هـ = ١١٩٨ م ترك لخليفته محمد الناصر دولة قوية ، إلا أن هذا لم يكن على مستوى الكفاءة المطلوبة لمجابهة إدارة الحكم في مثل تلك الفترة ، وأعــداء المسلمين محيطين بهم من كل جانب . وكان من أكبر الأخطاء التي ارتكبها محمد الناصر استخفافه برجــال الأندلس العارفين بقتال الافرنج ، وإقدامه على شنق بعضهم ، ففسدت النيات . .

وكان الفونسو يعيد تنظيم قواته وحشد كل مـا باستطاعته حشده من القوى والوسائط حتى إذا كانت سنة ٦٠٩ هـ = ١٢١٢ م قاد الفونسو قواته . وعـلم الناصر بالأمر فقام بالعبور إلى الأندلس، واجتمع معه من أهل الأندلس والمغرب ستمائة الف مقاتل ، وعجب الناصر بما تجمع له وداخله الغرور ، وقـاد جيوشه إلى موقع العقاب حيث وقعت المعركة الحاسمة التي انتصر فيها الفونسو انتصاراً حاسماً، وأباد جيش المسلمين إبادة شبه تامة (حتى قيل إنه لم ينج من الستمائة ألف مقاتل غير عدد يسير جداً لم يبلغ الألف) . وكانت هذه المعركة حاسمة في تاريخ الأندلس والمغرب على السواء . فقـد فرغ المغرب من مقاتليه ، وأضعف حكم الموحدين مما مهد لإزالة حكمهم وقيام دولة بني مرين

وفي الأندلس ، ازدادت جرأة العـدو ، فعمل على تطوير الصراع وتوسيع دوائره للحصول على مزيـد من أقاليم المسلمين . واستقل (السادة) بنواحي الأندلس كل في عمله ، وضعف ملكهم ، فصاروا إلى الاستجاشة بالطاغية بعضهم على بعض وتسليم حصون المسلمين ، ولما عجز هؤلاء السادة (من الموحدين) عن اداء دورهم في الدفـاع عن المسلمين نهض لمقاومتهم رجالات الأندلس وأعقاب العرب منذ الدولة الأموية، واجتمعوا على إخراجهم فثاروا ضدهم فيوقت واحد وأخرجوهم من الأندلس وتولى قيادة هذه العملية محمد بن يوسف بن هود الجذامي الثائر بالأندلس وابنمردنيش وثوار آخرون. وعاد هؤلاء لمجابهة الفرنج المتفوقين والذين أصبحوا يمتلكون أكثر من ثلثي الأندلس . وكانت معركة العقاب هي النقطة الحاسمة في معظم هذه التحولات [١] .

---

(١) من أفضل ما قيل في معركة العقاب قول أبي اسحاق ابراهيم بن الدباغ الأشبيلي في هزيمة المسلمين :

وقائـلة أراك تطيل فكراً ... كأنك قد وقفت لدى الحساب
فقلت لها أفكر في عقاب ... غدا سبباً لمعركة العقاب
فما في أرض أندلس مقام ... وقد دخل البلا من كل باب

٥ – نتائج المعركة

أ – النتائج السياسية

تبرز معركة الأرك مجموعة من الحقائق الثابتة لعل من أولها الاضطراب الواضح في موازين القوى العسكرية الناتجة عن ضعف المواقف السياسية . فقد عمل نصارى الشمال بصورة مستمرة على زيادة قدراتهم القتالية بإقامة التحالفات السياسية ، وكانت هذه التحالفات محددة العلاقات بالنسبة للفرنج إذ كانت تقتصر على تنسيق الجهد العسكري في حين كانت التحالفات العسكرية عند أمراء المسلمين غير محددة وغير واضحة مما ساعد على إضعاف القدرة الذاتية لمسلمي الأندلس الذين تركوا لمسلمي المغرب واجب الجهاد ، فكان من نتيجة ذلك انقضاض هؤلاء على مسلمي الأندلس وإزالة أنظمتهم وكياناتهم ، ونتج عن ذلك نوع من النفور تحول إلى صراعات مريرة في كثير من الأحيان استنزفت قدرة المسلمين بأكثر مما استنزفتها الحروب الخارجية .

ويظهر ذلك الخطأ الكبير الذي وقع فيه المسلمون بين النظر إلى توحيد الأندلس كهدف في حد ذاته ، وبين توحيد الأندلس لزيادة قدرتها الدفاعية وتدعيم إمكاناتها القتالية . وهكذا فقد حدثت معركة الزلاقة في إطار من التعاون العسكري وأمكن تحقيق النصر الحاسم، ثم جرى خوض معركة الأرك، وكانت سيطرة الموحدين ضعيفة على الأندلس ، ولهذا جاءت المعركة في إطار تنسيق الجهد العسكري فكان النصر حليفها ، ولكن عندما بسط المرابطون سلطانهم ، ووحدوا الأندلس بإزالة كياناتها ، ضعف أمر الجهاد وحقق الفرنج انتصارهم، وحدث مثل ذلك في معركة الأرك إذ أفاد الموحدون من انتصارهم فدعموا مواقعهم ، وأقاموا (السادة) لحكم الأقاليم مما أضعفهم ، وبالرغم من أن قدرتهم قد زادت في مجال حشد القوى العسكرية (حيث جمعوا في معركة العقاب ستمائة ألف أو يزيدون) إلا أن هذه الجموع الكبيرة كانت ممزقة داخلياً ـ (قلوبهم شتى) مما جعل هذه القدرة الكبيرة خارج ميزان القوى .

تبرز بعد ذلك أهمية العلاقة «الجدلية» بين الهدف السياسي وهدف الحرب ، فقد نظر قادة المسلمين إلى المعركة كصراع بين القوى المسلحة وأهملوا العامل السياسي في حين كان الفرنج يتعاملون مع المعركة في إطار الهدف السياسي . ويمكن إيضاح ذلك من خلال المقارنة بين ما حدث بعد « معركة الأرك »، فقد انصرف أمراء المسلمون إلى تنظيم إداراتهم بعيداً عن متطلبات الحرب طويلة الأمد ، ولم يهتموا كثيراً ببناء جبهتهم الداخلية ، كما أنهم لم يحاولوا تدمير قاعدة العدوان « طليطلة » في حين انصرف الفرنج – « الفونسو » لتركيز كل الجهود من أجل «الثأر» وبناء القدرة الذاتية . وأمكن له بعد ١٨ سنة فقط من تكبيد المسلمين أضعاف ما خسره في معركة الأرك ، وإذا كانت خسائر الفرنج في الأرك قد وصلت إلى ١٤٦ ألف قتيل ، فقد تجاوزت خسائر المسلمين في معركة العقاب ٥٠٠ ألف مقاتل . وقد أفاد الفونسو من ذلك فانتزع من المسلمين أقاليم كثيرة ، فزاد من قوته ، وكان كل نصر يدعم النصر الذي سبقه .

ويلاحظ هنا وبشكل واضح وقوع مجموعة المعارك الحاسمة خلال هذه الفترة عند حدود الثلث الجنوبي من الأندلس ، فقد وقعت معركة الزلاقة ومعركة الأرك على خط عرض واحد (على نهر آنة) وجاءت معركة العقاب إلى الجنوب منها . وهذا يؤكد تصميم الفرنج باستمرار على نقل المعركة إلى بلاد المسلمين وتوسيع دوائر الصراع على حسابهم ، وتحميلهم نفقات الحرب ومغارمها .

وهنا يمكن أيضاً العودة إلى خطأ السياسة الاستراتيجية التي طبقت في إقامة التحالفات بين أمراء المسلمين وانعكاساتها على أفق الصراع المسلح . فقد أدى الخطأ في مفهوم التحالفات السياسية إلى ضعف في التعاون العسكري بين مسلمي الأندلس ومسلمي المغرب ، الذين يشكلون الدعم الحقيقي والوحيد للمجاهدين في الأندلس مما أضعف القدرة القتالية لهؤلاء ، في حين كان باستطاعة نصارى الشمال الإفادة من دعم عسكري غير محدود عبر الحدود المفتوحة مع كل أنحاء أوروبا .

فإذا ما تم وضع هـذا العامل في الموقف إلى جانب ضعف البحرية الإسلامية وتمزقها ، ظهرت خطورة موقف مسلمي الأندلس الذين أصبحوا في حـالة عزلة شبه كاملة عن كل إمكانات للدعم البري والبحري ، في حين كانت هذه الإمكانات متوافرة للصليبيين الذين أصبحت لهم السيطرة الكاملة تقريباً على محاور التحرك القاري والبحري في كل المناطق المحيطة بالعالم الإسلامي والمتاخمة له .

ب – الدروس العسكرية

لقد حدثت معركة الأرك في الأندلس بعد ثمانية أعوام من معركة حطين في فلسطين . وكانت نتائجها في أفق الصراع المسلح متشابهة ومتماثلة ، فقـد انتهت المعركتان بتدمير القوات العسكرية للخصم ، إلا أن نتائجهما السياسية كانت متغايرة تمامـاً . فقد استطاع صلاح الدين تطوير الصراع المسلح واستثمار الفوز في مسرح العمليات من أجل بلوغ الهدف السياسي وهو تحرير بلاد المسلمين من أعداء المسلمين ، في حين اقتصرت نتائج معركة الأرك على الانتصار العسكري ، وهي نتائج يمكن معالجتها بسهولة بدلالة نجاح الفونسو بتدارك النتائج السلبية للصراع المسلح خلال فترة ١٨ عاماً .

وهكذا يمكن تصنيف معركة حطين بمعركة دفاعية على مستوى العمليات وهجومية على مستوى السياسة الاستراتيجية في حين يمكن تصنيف معركة الأرك بمعركة هجومية على مستوى العمليات ودفاعية على مستوى السياسة الاستراتيجية ويؤكد ذلـك مرة أخرى في التاريخ على أن أهمية المعركة هي في نتائجها التي تتجاوز أفق العمليات لتصل إلى التأثير السياسي ، وليست فـيما تحققه من نتائج على مستوى أفق المعركة ومسرح العمليات .

أما في مجال المعركة فقد تميزت معركة الأرك بمجموعة من المعطيات أبرزها:

١ – أهمية الاحتفاظ باحتياط استراتيجي ، إذ خاض الفونسو معركته ضد جزء من القوة التي جابهته واحتفظ يعقوب المنصور بالاحتياط الاستراتيجي الذي

قذف به في الوقت المناسب، فكان في ذلك حسم الصراع المسلح لمصلحة المسلمين. ويتشابه مخطط العمليات هذا مع مخطط يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة حيث زج بقواته في اللحظة المناسبة أيضاً ، فكان في ذلك النصر الحاسم . ويبرز ذلك بدوره أهمية تنسيق التعاون على مسرح العمليات بحيث يؤدي هـذا التعاون إلى بلوغ الهدف .

٢ً – وتبرز معركة الأرك أهمية المباغتة على مسرح العمليات والاحتفاظ بالمبادأة . فقـد فرض يعقوب المنصور على الفونسو مخطط العمليات الملائم له . ووضعه أمام الموقف الذي يريده ، ثم باغته بزج الاحتياط الاستراتيجي ، فذهل جند الفرنج لهذه المباغتة ولاذوا بالفرار . وخرج الفونسو من المعركة بحالة سيئة حتى أنه لم يتوقف حتى وصل طليطلة ، وهناك تفقد (أصحابه) فـلم يجد منهم أحداً .

٣ً – ويظهر في معركة الأرك تأثير العامل المعنوي . فقد كان ميزان القوى لمصلحة الفونسو، وبالرغم من ذلك فقد انتصر يعقوب المنصور – والأمر معاكس تمامـاً في معركة العقاب ، إذ كان التفوق في القوى والوسائط لمصلحة المسلمين . وبالرغم من ذلك فقد هزم المسلمون شر هزيمة .

٤ً – وتبرز معركة الأرك الدور الحاسم للقائد، وتصميمه على انتزاع النصر، فقد دخل يعقوب المنصور المعركة وهو على ثقة من حسمها لمصلحته ، وأعد لهـا ما يجب اعداده ، فكان النصر حليفه . وخاض الفونسو معركة العقاب ، وقـد أعد لهـا متطلباتها طوال ١٨ عاماً . وكان مصمماً على انتزاع النصر « حتى أنه حلق شعر رأسه ولحيته ، ونكس صليبه وآلى أن لا ينـام على فراش ولا يقرب النساء ولا يركب فرساً ولا دابة حتى يأخذ بالثأر » . وقد كان هذا التصميم هو أول عدته للنصر ، بدلالة استطاعته نقل هـذا التصميم إلى جميع مقاتلي الفرنج الذين لم ترهبهم قوة المسلمين وتفوقهم ، فخاضوا معركتهم بعناد حتى تم لهـم انتزاع النصر – والثأر لهزيمتهم في معركة الأرك .

وبعد ، فما من معركة يمكن لهـا اكتساب أهميتها من خلال النصر أو الهزيمة على مسرح العمليات - لا سيما في إطار الحرب طويلة الأمد - حيث تقرر النتائج السياسية أهمية تلـك المعركة أو عدم أهميتها ، وهكذا فعلى الرغم من الانتصار الضخم الذي حققته قوات المسلمين في (الأرك) . إلا أن هـذه المعركة فشلت سياسياً بسبب توظيف نتائجها في غـير أهداف الحرب طويلة الأمد . وبصورة خاصة إضعاف الموقف الداخلي للأندلس وهو الموقف الذي يقرر النصر والهزيمة في الحالات كلها بحسب ما برهنت عليه مسيرة الأحداث .



« كان الاعصار المغولي يجتاح بلدان الشرق الأدنى جميعاً ويهدد مصر بالخراب الذي ما بعده . فتولى المظفر قطز قيادة الجيش وعهد إلى الظاهر ركن الدين بيبرس بقيادة مقدمته وتوجه إلى فلسطين لقتال المغول ، وهزمهم عند عين جالوت سنة ١٢٥٩ م هزيمة صدت سيلهم الطامي لأول مرة ، وحولت مدهم إلى جزر » .

تاريخ الشعوب الاسلامية – بروكلمان / ٣٦٥ / .

« ان اتساع مسرح العمليات وحركية القطاعات الواسعة والاستخدام الاريب للمباغتة، جعلت معارك هؤلاء الآسيويين المغول تنافس جميع المعارك التي يذكرها التاريخ إن لم تتفوق عليها ». (ليدل هارت – مدخل إلى التاريخ العسكري – ايريك موريز – تعريب اكرم ديري والمقدم الهيثم الأيوبي / ٣١٨) .

٦

يوم عين جالوت

(٦٥٩ هـ = ٣ أيلول – سبتمبر – ١٢٦٠ م)

١ – الموقف العام .
أ – الموقف على جبهة الغرب (الصليبي) .
ب – الموقف على جبهة الشرق (المغولي) .
ج – الصليبيون يحرضون المغول .
٢ – الموقف الخاص على جبهة المسلمين .
٣ – عين جالوت .
٤ – نتائج معركة (عين جالوت) .
أ – النتائج السياسية .
ب – الدروس العسكرية .

وجيز الأحداث

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٥٨٣	١١٨٧	معركة حطين الخالدة وفتح بيت المقدس.
٥٨٥ – ٥٨٨	١١٨٩–١١٩٢	الحملة الصليبية الثالثة (ريتشارد قلب الأسد وفيليب أغسطس – انكلترا وفرنسا) .
٥٩٦ – ٦٠١	١١٩٩–١٢٠٤	الحملات الصليبية المنحرفة (تدمير القسطنطينية) حملات الأطفال .
٦٠٠	١٢٠٣	قيام امبراطورية المغول على أيدي مؤسسها (تيموجين) (١١٦٧ – ١٢٢٧) والذي عرف فيما بعد باسم (جنكيزخان) .
٦١٥	١٢١٨	حملة الفرنج على دمياط (بقيادة الملك يوحنا) وتعاون الكامل والمعظم – جيشي مصر والشام لطرد الفرنج .
٦١٩	١٢٢٢	المغول يدمرون – بقيادة سبوتاي وجيب – جيوش الروسيا التي كان يقودها أمراء كييف وجاليش وشرينخوف وسمولنسك.

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٦٢٤	١٢٢٧	وفاة جنكيزخان ، وقد امتدت أملاكه من كوريا إلى فارس ومن المحيط الهندي إلى سهول سيبيريا المتجمدة .
٦٢٧	١٢٢٩	الصليبيون يستعيدون السيطرة على بيت المقدس (اتفـــاق الكامل وفريدريك الألماني) .
٦٣٠	١٢٣٢	القائد المغولي (شورماجان) يـــدمر الخوارزمية (المسلمين) في فارس .
٦٣٨	١٢٤٠	الجيش المغولي بقيادة (باطو) يغـير على (اوكرانيا) وينهب شرينجوف وبريسلاف ويستولي على كييف (يوم ٦ كانون الأول — ديسمبر — ١٢٤٠) .
٦٤٠	١٢٤٢	القائد المغولي (بيجو) يهزم القائـــد السلجوقي (كيخسرو) قرب ارزنجان (عند صدع) .
٦٤٣ — ٦٤٥	١٢٤٥—١٢٤٧	سفارة الفرنج إلى المغول لتحريضهم على المسلمين .
٦٤٧	١٢٤٩	حملة الفرنج على دمياط (لويس التاسع) .
٦٤٨	١٢٥٠	شجرة الدر في مصر (ثم المعز عز الدين ايبك) يخرجون الفرنج من مصر .
٦٥١	١٢٥٣	الخليفة في بغداد يتوسط في الصلح بـين امراء المسلمين لمجابهة خطر المغول .
٦٥٢	١٢٥٤	تحالف إمارتي ارمينيا وانطاكية مـــع المغول ضد المسلمين .

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٦٥٦	١٢٥٧	المنصور نور الدين علي بن ايبك يحكم مصر.
٦٥٧	١٢٥٨	المغول بقيادة هولاكو يدمرون بغداد .
٦٥٨	١٢٥٩	المظفر سيف الدين قطز يحكم مصر – ووفاة الخان الكبير منكو أثناء قيادة حملة على الصين بالاشتراك مع أخيه قبيلاي – وهولاكو يحتل الشام (حلب – حمص – دمشق) .
٦٥٩	١٢٦٠	المظفر قطز والظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري يهزمون القائد المغولي (كتبغا) في عين جالوت (يوم ٣ ايلول – سبتمبر – ١٢٦٠) .
٦٦٠	١٢٦١	اغارة المغول على حلب وتدميرها انتقاماً لمصرع (كتبغا) .
٦٦٤	١٢٦٥	وفاة هولاكو ثم وفاة زوجته (طقز خاتون)
٦٦٥	١٢٦٦	الظاهر بيبرس يتابع قيادة الجهاد .

ما أن تمّ طرد الفرنج الصليبيين من القدس بعد معركة حطين ، حتى أنفذ السادة الذين حلوا بمدينــة صور أشد رفاقهم ورعاً وهو (جوسياس) رئيس أساقفة صور ، ليخطر البابا وملوك الغرب بأشخاصهم أن الحاجة ماسة الى مساعدتهم . وحوالي ذلك الوقت ، كتب مَن بقي على قيد الحياة من فرسان الطوائف الدينية كالاسبتارية والداوية الى إخوانهم في الغرب، تفاصيل القصة المثيرة لانتصار المسلمين . وأبحر رئيس الأساقفة من صور في أواخر صيف سنة ١١٨٧ وبلغ بلاط وليم الثـاني ملك صقلية ، فألفى الملك شديد الأسى لِما بلغه عن كارثة الفرنج . فلما علم وليم الثـاني بتفاصيلها كاملة ، ارتدى ثوباً من الخيش ، والتمس مكاناً اعتزل فيه لمدة أربعة أيام . ثم كتب الى رفـاقه الملوك يحثهم على أن يشتركوا في حرب صليبية ، بينما تجهز لأن يوجه في أسرع مـا يمكن حملة الى الشرق . ثم تابع (جوسياس) رئيس أساقفة صور ، طريقه الى روما ، ترافقه بعثة من صقلية .

ولم يحتمل البابا الهرم ايربان الثالث الصدمة، فمات كمداً في ٢٠ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١١٨٧ م . وعمل خلفه جريجوري الثـامن ، على الفور ، الى إرسال كتاب دوري الى جميع المؤمنين بالغرب ، أورد فيه القصة الخطيرة عن ضياع الأرض المقـدسة وصليب الصلبوت . وحرص على أن يذكّر الذين يقرؤون كتابه بأن ما حدث منذ أربعين سنة كان نذيراً بذلك.وأضحت الحاجة ماسّة الى بذل جهود ضخمة : « فليكفّر كل إنسان عن خطاياه ، وليـــدّخر

لنفسه كنزاً في السماء بأن يتخذ الصليب..،ووعد جميع الصليبيين بقدر وفير من غفران الذنوب ، فينبغي أن ينعموا بالحياة الأبدية في السماء ، بينما تصير تجارتهم في الدنيا هي في حماية المقرّ المقدّس». واختتم كتابه بتوجيه سفارات أخرى لفرض هدنة لمدة سبع سنوات على جميع أمراء العالم المسيحي . وأمكن عقد الهدنة بين ملكي فرنسا وانكلترا ، كما أقسم عدد كبير من النبلاء بالمملكتين على أن يصحبوا ملكي فرنسا وانكلترا . وفرض الملكان في نهاية كانون الثاني (يناير) سنة ١١٨٨ الضريبة المعروفة بعُشر صلاح الدين ، والتي تُقدّر بعشرة في المائة من ضريبة الدخل والأموال المنقولة ، وذلك للإنفاق على الحملة .

١ – الموقف العام

آ – الموقف على جبهة الغرب (الصليبي)

تكوّنت الحملة الصليبية الثالثة (٥٨٥ – ٥٨٨ هـ = ١١٨٩ – ١١٩٢ م) من ثلاثة جيوش أساسية : الجيش الالماني والجيش الانكليزي والجيش الفرنسي . وقد اتّبع الجيش الالماني الطريق البرّي ، ولكن وفاة الامبراطور فردريك بربروسه سنة ١١٩٠ عند عبوره نهر كاليكادنوس في سهل سلوقية ، مزّق الجيش الالماني بحيث لم يبقَ منه أكثر من فصائل قليلة . أما الجيش الانكليزي (بقيادة الملك ريتشارد قلب الأسد) والجيش الفرنسي (بقيادة الملك فيليب أغسطس)، فإنهما لم يتمكنا من تحويل الموقف لمصلحة الفرنج ، بالرغم مما قام به هؤلاء الفرنج من مذابح إجماعية ضد المسلمين (في عكا سنة ١١٩١) ، وبالرغم من بعض الانتصارات التعبوية الصغرى التي حصل عليها الفرنج ضد قوات المسلمين التي كان يقودها صلاح الدين (مثل معركة أرسوف سنة ١١٩١ م) .

جاءت بعد ذلك الحملة الصليبية الرابعة ، فتكوّنت بصورة أساسية من الالمان وجيش صقلية (٥٩٦ – ٦٠١ هـ = ١١٩٩ – ١٢٠٤ م) . ولكن هذه الحملة

لم تصل إلى المشرق أبداً وتوقفت في القسطنطينية ، وعملت على تدميرها (سنة ١٢٠٤) ، وهذا مما زاد الصراع بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة الأرثوذكسية (الشرقية) . وجاءت بعد ذلك حملات الأطفال ، التي أبرزت فشل فكرة الحرب الصليبية .

في سنة ١٢١٨ م وصلت حملة صليبية إلى مصر بقيادة حنا بريين ملك القدس (التي لم تعد في قبضة الفرنج)، وقاد الملك الكامل المجاهدين في مصر ضد الفرنج، وجاء جيش الشام بقيادة ملكها (الملك المعظم شقيق الملك الكامل) سنة ١٢١٩، وفي سنة ١٢٢١ م جاء جيش الماني لدعم الفرنج في مصر ، فأسرع جيش الشام مرة أخرى ومعه جيش حلب (الذي كان يقوده الملك الأشرف الأخ الثالث للكامل والمعظم). وفي النهاية تمّ طرد الفرنج من مصر ، ودخل المسلمون دمياط في ٨ ايلول (سبتمبر) سنة ١٢٢١ م .

في سنة ١٢٢٨ م وصل الامبراطور الالماني فردريك الثاني إلى عكا ، وأفاد من المنازعات بين الأيوبيين ليعقد اتفاقاً مع الكامل تمّ بموجبه تسليم القدس للصليبيين ، مع احتفاظ المسلمين بحرية العبادة في أماكنهم المقدسة . ولقي هذا الاتفاق مقاومة ضارية من دمشق ومن المسلمين بصورة عامة .

في سنة ١٢٣٩ م وصلت إلى فلسطين حملة صليبية تضم بعض الكونتات والبارونات الفرنسيين ، وكانت هذه الحملة تريد مهاجمة دمشق (باعتبار دمشق عدواً لهم)، ولكن الأكثرية رغبت في مهاجمة مصر . إلا أن هذه الحملة المعروفة باسم (حملة تيبالد) مُنيت بهزيمة حاسمة في غزة ، وكل ما حققته هذه الحملة لم يتجاوز انتزاع حصون هونين وصفد وعسقلان من المسلمين .

في سنة ١٢٤٤ م انساب فرسان الخوارزمية إلى القدس ، واقتحموها ، وأجروا مذبحة للفرنج وطردوهم نهائياً منها . وفي هذه السنة خاضت القوات المصرية معركة حاسمة في غزة ، أمكن في نهايتها تدمير قوات الفرنج عند قرية الحربية (على مسافة بضعة أميال إلى الشمال الشرقي من غزة) . وأعاد

الصالح أيوب توحيد الأيوبيين . وانتزع المسلمون كل ما حصل عليه الفرنج بعد معركة حطين .

وفي سنة ١٢٤٩ م وصلت الحملة الفرنسية التي قادها الملك لويس التاسع – وفاءً لنذره – إلى دمياط . وتولى السلطان أيوب الدفاع عن مصر . وفي سنة ١٢٥٠ حدثت معركة المنصورة وأمكن إعادة الفرنج إلى دمياط وحصارهم . ولكن السلطان (الصالح أيوب) توفي، فأخفت زوجته أمر وفاته إلى أن وصل توران شاه ابن الصالح أيوب ، فتابع إدارة الحرب وأحرز انتصارات حاسمة . وظهر احتمال فناء جيش الفرنج إن لم يتم التخلص من المأزق ، فتمّ عقد اتفاق لانسحاب الفرنج . وقتل توران شاه (قتله الظاهر بيبرس بتحريض من شجرة الدر) . ولم يتم إخراج الفرنسيين من مصر إلا بعد دفع فدية كبيرة . وأصبحت مصر تحت حكم المماليك البحرية [١] .

---

(١) اضطر الأيوبيون – كما اضطر العباسيون من قبلهم – إلى الاستعانة بالمماليك (العبيد الأرقاء) ، وكثيراً ما كانوا يدخلون في خدمتهم جماعات بكاملها من الأتراك الهاربين من وجه المغول ، ونشأ من بين هؤلاء طبقة من الحكام ، وكان إيبك – وهو أولهم – من حرس الملك الصالح أيوب (المرابطين في جزيرة الروضة بالنيل) ، ومن هنا عرف هو وخلفاؤه بالمماليك البحرية ، نسبة إلى بحر النيل . وخلف إيبك ابنه علي ثم المظفر قطز الوصي عليه . وبعد فترة وجيزة رقي العرش الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري . وأخذ بيبرس البيعة قبل وفاته بثماني سنوات لأكبر أبنائه محمد المدعو (بركة خان) ، حتى إذا توفي بيبرس سنة ١٢٧٧ رقي محمد هذا العرش غير مدافع وتسمى بالملك السعيد . بيد أنه لم يلبث أن خلع بعد سنتين اثنتين ، فنهض بعبء الوصاية على سلامش بن بيبرس ، وكان صبياً في السابعة، قائد من قواد الجيش الذين برزوا في عهد بيبرس اسمه (قلاوون) . وما هي إلا فترة حتى بدا لقلاوون هذا أن يستقل بالحكم ، وأظهر كفاءة عالية في الدفاع عن المسلمين . حتى إذا توفي سنة ١٢٩٠ ، قيض له أن يترك السلطنة لابنه ليحتفظ أعقابه بها طوال أربعة أجيال ، حتى سنة ١٣٨٢ م ، وتولى العرش بعد ذلك (الملك الظاهر سيف الدين برقوق) وهو أحد أفراد الفرق العسكرية التي سبق لقلاوون أن ألفها من المغول والشراكسة ، وجعل مقرها في أبراج قلعة القاهرة ، ومن هنا عرف هؤلاء (بالمماليك البرجية) .

وانتقل الملك لويس إلى عكا بعد أن تم اطلاق سراحه. ودعا اتباعه للاجتماع به للتشاور في الخطط المقبلة، وكان الملك قد تلقى رسالة من أمه تطلب إليه العودة إلى فرنسا، كما نصحه اخوته وكبار النبلاء بالعودة أيضاً، إلا أنه أعلن يوم ٣ تموز (يوليو) سنة ١٢٥٠ قراره بالبقاء في فلسطين حتى يتم اطلاق سراح آخر أسير في مصر، ووافق على السماح بالعودة لكل من يرغب في ذلك وبعث إلى بارونات فرنسا برسالة يشرح فيها ما اتخذه من قرار. ويلتمس إرسال امداد للحملة. وبقي مع الملك ألف وأربعمائة رجل وبقيت الملكة في صحبة الملك [١] وغادرت بقية قوات الحملة فلسطين في منتصف تموز (يوليو).

وقد هيأ رحيل اتباع لويس للملك الفرصة المناسبة ليكون أكثر استعداداً للاستماع لما يبذل له من النصيحة، كما أن تجربته وخبرته في حملة مصر ليّنت من قناته وخففت من كبريائه وعناده. وعلاوة على ذلك فإن افتقاره إلى السلاح علمه الحاجة إلى العلاقات الدبلوماسية مع المسلمين. ولمس فيه بعض أصدقائه أنه لم يعد مستعداً لأن يسلك سياسة الفرنج المتعصبين الذين يرفضون التعامل مع المسلمين بغير لغة السلاح، وكان على حق في ذلك إذ أن الوقت كان ملائماً

---

(١) رافقت الملكة (مرجريت) زوجها إلى دمياط، وعندما قرر الملك لويس التاسع المضي إلى المنصورة تركها في دمياط وهي في حالة الوضع. وما لبثت أن وضعت مولودها بمساعدة فارس يناهز الثمانين من عمره. وذلك بعد ثلاثة أيام من ورود نبأ استسلام جيش الصليبيين المسلمين، فأطلقت على ابنها اسم يوحنا الحزين TRISTAN - أو ابن الحزن والأسى - وفي هذا اليوم ذاته علمت الملكة بأن البيازنة والجنوبيين يعدون أنفسهم للجلاء عن دمياط نظراً لعدم توافر المؤن الكافية في المدينة. فادركت أنه ليس بإمكانها الاحتفاظ بدمياط إلا بمساعدة الايطاليين. فدعت زعماءهم للاجتماع بها في حجرة نومها وتوسلت إليهم البقاء في دمياط لأنهم إذا تخلوا عن دمياط لم يعد لديها ما يمكن المساومة به لإطلاق سراح الملك من قبضة المسلمين. واقترحت الملكة شراء كل ما في المدينة من مؤونة وأن تتولى الاشراف على توزيعها، وعندها وافق الايطاليون على البقاء بدمياط. وكلفت عملية شراء المؤونة الملكة مبلغ ثلثمائة وستين ألف ليرة. وما كادت الملكة تسترد صحتها، وأضحت قادرة على السفر حتى أصر رجالها على أن ترحل بطريق البحر إلى عكا.

للدبلوماسية . فما حدث في مصر من ثورة المماليك لم تلق إلا الإنكار في سوريا الإسلامية التي حافظت على ولائها للأيوبيين . فلما وردت إليها الأنباء بمصرع توران شاه هبط الناصر يوسف سلطان حلب من حمص فاحتل دمشق يوم ٩ تموز (يوليو) سنة ١٢٥٠ حيث لقي فيها استقبالاً حاراً باعتباره حفيد ابن صلاح الدين.

وتجددت المنافسة المريرة بين القاهرة ودمشق ، وحرص كل من الطرفين على التماس مساعدة الفرنج، وهكذا لم يكد لويس يصل إلى عكا حتى قدمت إليها سفارة من قبل الناصر يوسف، غير أن لويس لم يشأ أن يلتزم بشيء نحوها، وكان يفضل التحالف مع دمشق لما لها من أهمية استراتيجية ، غير أنه كان مرغماً على التفكير بمصير أسرى الفرنج الذين لا زالوا في القاهرة .

وكان وفد الناصر يوسف إلى الملك لويس في عكا يحمل معه تفويضاً بالتنازل عن بيت المقدس مقابل الحصول على مساعدة الفرنج. فأرسل الملك لويس سفارة إلى القاهرة ينذر ايبك بأنه ما لم يتم على الفور تسوية مشكلة أسرى الفرنج فسوف يتحالف مع السلطان يوسف ، ونجح سفيره يوحنا فالنسيين أثناء زيارتين قام بهما إلى القاهرة بإطلاق سراح الفرسان الذين وقعوا أسرى في غزة سنة ١٢٤٤ م، ثم الافراج عن نحو ثلاثة آلاف من الأسرى المستجدين، وذلك مقابل إطلاق سراح ثلاثمائة من الأسرى المسلمين الذين وقعوا بأيدي الفرنج .

وازداد حرص ايبك على التماس صداقة الملك لويس فأرسل إليه مع الدفعة الثانية من الأسرى الذين أفرج عنهم هدية (تتألف من فيل وحمار وحشي) وعندئذ تجرأ لويس فطلب إطلاق سراح جميع من تبقى في أيدي المماليك من الأسرى دون أن يؤدي عنهم أموالاً أخرى . واستجاب ايبك عندما علم أن رسولاً من قبل الملك لويس (وهو ييف البريتوني الذي كان يتقن التحدث باللغة العربية) أعلن عن موافقته على إطلاق سراح الأسرى مقابل عقد معاهدة للتحالف العسكري هدفها مناوأة الناصر يوسف . ووعد ايبك أيضاً أنه متى احتل المماليك فلسطين ودمشق فسوف يعيدون للصليبيين كل مملكة بيت المقدس

القديمـة التي كانت تمتد شرقاً حتى نهر الأردن . ووافق الملك لويس وتم إطلاق سراح جميع الأسرى في نهاية شهر آذار (مارس) سنة ١٢٥٢ ، ورغم أن هذا التحالف لم يصل إلى نتائج خطيرة ، إلا أنه ضمن الحصول على كافـة الأسرى ، وزيادة القدرة القتالية للفرنج كما أنه أبرز ضعف الموقف الذي وصل إليه المسلمون في تلك الفترة .

ب – الموقف على جبهة الشرق (المغولي)

لم يكن **المغول** في بداية القرن الثاني عشر أكثر من مجموعة من القبائل الضاربة في أعالي نهر آمور. وكانت هذه القبائل في حالة حرب دائمة مع جيرانهم النازلين إلى الشرق منهم وهم **التتار** . وجاء كابـل خان – جدّ يسوكاي الذي هو والد تيموجين – فنظم قبائل المغول في حلف لم تلبث أواصره ان تمزقت بوفاتـــه ، واستطاع امبراطور كين في الصين الشمالية أن يوطد سيادته على كل المنطقة . ولم يرث «يسوكاي» غير قسم محدود من مناطق الحلف الذي أقامه جده ، غـير أنه زاد في سلطانه وذيوع شهرته مـا أنزله من **الهزيمة ببعض قبائل التتار وقهرها** ، ومـــا حدث من تدخله في أمور « **خان الكرايث** » الذي يعتبر أعظم جيرانه المباشرين مدنية ، والكرايث شعب شبه بدوي ينتمي إلى أصل تركي أقام بالاقليم الواقـــع على نهر اورخون وحوله (في أقصى أطراف منغوليا الحالية) . وفي أوائل القرن الحادي عشر تحول ملكهم ومعظم رعاياه إلى الديانـة المسيحية على المذهب النسطوري . وأدى تحول الكرايث إلى المسيحية أن أضحوا على اتصال بالترك **الاويغور** الذين كان من بينهم عدد كبير من النساطرة .

وسبق للأويغور أن أقاموا حضارة مستقرة في موطنهم في وادي نهر التاريم ومنخفض طورفان ، وابتكروا أبجدية للغـــة التركية ، استندت إلى الحروف السريانية . وفي الأزمنة المتقدمة سادت بينهم الديانـــة المانوية ، على أن المانويين نزعوا تحت تأثير الصينيين إلى أن يتحولوا إلى البوذية. ومع أن سلطان الأويغور

أخذ في التداعي ، فإن مدنيتهم امتدت إلى الكرايث والنايمان ، نظراً لأن بلاد الأويغور تقع بين هذين الشعبين التركيين .

وحوالي سنة ١٢٧٠ مات كورياكوس خان الكرايث، وصادف ابنه طغرل بعض الصعوبات في الاستحواذ على ملكه ، إلا أنه تغلب على هـذه الصعوبات بفضل تحالفه مع « يسوكاي » الذي صار أخاً له بحكم مـا تعاهدا عليه وأقسما من يمين . فهيأت هذه الصداقة ليسوكاي مكانة رفيعة بين زعماء المغول ، غير أنـه مات قبل أن يصبح خاناً أعظم للمغول. إذ دس له السم بعض التتار الرحل الذين كان يشاركهم طعام العشاء ولم يتجاوز ابنه الأكبر «تيموجين» وقتذاك التاسعة من عمره .

وأمضى تيموجين طفولة عاصفة ، ولكن تحالفه مع طغرل (خان الكرايث) ساعده على انتصاره في حروبه مع المركيت . **وحوالي سنة ١٢٩٤ ، تم اختيار تيموجين ملكاً أو خاناً على جميع المغول واتخـذ اسم جنكيزي أي القوي .** وانصرف تيموجين بعد ذلـك فأخضع الكرايث ، ثم النايمان سنة ١٢٠٤ . **وفي سنة ١٢٠٦ انعقد عـلى شاطىء نهر اونون مجلس (قوريلتاي) يضم جميع القبائل التابعة لجنكيزخان . وأعلن موافقته على مـا اتخذه جنكيزخان من اللقب الملكي ، فأعلن أنه ينبغي أن تعرف كل أقوامه في مجموعها باسم المغول.**

انصرف جنكيزخان إلى تنظيم دولته وبناء قوتـه العسكرية ، ثم أخذ في تسخير القـدرة العسكرية المتوافرة له للتوسع على حساب جواره مستفيداً من مميزات هذه القدرة وأبرزها سرعة الحركة والنظام والاعداد الضخمة. ففي سنة ١٢١٢ فرض سيادته على (**مملكة هسياهزي**) التانجوتية والتي كانت تمتد على طوال الروافـد العليا للنهر الأصفر حيث حكمت أسرة من أصل تيبيتي سكاناً مستقرين من اخلاط المغول والترك والصينيين .

وإذ نجح (جنكيزخان) في القضاء على أضعف جواره انصرف إلى دراسة فن الحصار حتى إذا أتقن جنده الهجوم على المدن والمواقع المحصنة **وجـه في سنة**

١٢٢١ جيوشه لاخضاع الصين (امبراطورية كين) . وفي سنة ١٢٢٣ أصبحت امبراطورية كين تحت رحمته وخضعت له، وانضمت منشوريا وكوريا لامبراطورية المغول . وبذلك لم يبق أمام جنكيزخان إلا أن يتوجه نحو الغرب مما وضعه في مواجهة أقوى الدول وهي الدولة الخوارزمية المسلمة .

في نهاية سنة ١٢١٩ قاد جنكيزخان جيشاً يضم مائتي ألف مقاتل فاقتحم بخارى سنة ١٢٢٠ ثم احتل سمرقند بعد أن انضمت إليه جيوش ابنائه الذين كانوا يحاربون في الصين . وهرب محمد خوارزم شاه إلى خراسان فطارده جيش مغولي بقيادة (سبوتاي وجيب) اللذين يعتبران أصدق قادة جنكيزخان وأكثرهم ثقة عنده . وتولى جلال الدين محمد خوارزم شاه قيادة جيوش أبيه وأمكن إلحاق هزائم قاسية بجيوش المغول في فرغانة وباميان (في جوف جبال هندوكوش) ، ولكن المغول استطاعوا متابعة توسعهم فاستولوا على مرو ونيسابور .

وفي خريف سنة ١٢٢١ اخترق جنكيزخان بجيوشه حدود افغانستان لمهاجمة جلال الدين فحصره على ضفتي نهر السند . وتحطم الجيش الخوارزمي في معركة حامية الوطيس ، وهرب جلال الدين فالتجأ إلى ملك دلهي .

وتميزت أعمال جنكيزخان الحربية بوحشيتها وإبادتها للحياة من على سطح الأرض . ولم تجر هذه الاعمال دون أن يتابعها الصليبيون في الشام إذ كان معروفاً أنه هاجم أضخم دولة إسلامية في آسيا الوسطى . كما أن النساطرة الذين انتشرت كنائسهم عبر آسيا يستطيعون التأكيد بأن جنكيزخان لا يكره المسيحيين . وأنه كان يستشير في أعماله رجال الدين المسيحيين ، كما أن ابناءه تزوجوا من أميرات مسيحيات من الكرايث وأصبح لهؤلاء نفوذهن في بلاطه. ومن هنا فقد بدأ التفكير بأنه قد يكون من الافضل للفرنج التحالف مع جنكيزخان لخير العالم المسيحي .

وقد بقيت هذه الآمال قوية بالرغم من قيام المغول بالهجوم على بعض الحدود

المسيحية . ففي سنة ١٢٢٢ استباح المغول الأقـــاليم الشرقية من بلاد الكرج ودمروا جيش الكرج ، ثم مضوا في زحفهم فتجاوزوا دروب قزوين واتجهوا نحو بلاد القبجاق الواقعة على نهري الفولغـــا والدون . وسحق المغول قوات القوقاز، ثم سحقوا جيشاً روسياً كان يقوده أمراء كييف وجاليش وشرنيخوف وسمولنسك . ثم تابع القــائدان المغوليان « سبوتاي وجيب » تقدمهما عبر بلاد القرم ودمرا في طريقهما كل ما صادفهما .

وهكذا فعندما توفي جنكيزخان سنة ١٢٢٧ ترك امبراطورية ضخمة تمتـد من كوريا إلى فارس ومن المحيط الهندي إلى سهول سيبيريا المتجمدة . **على أن إقامة هذه الامبراطورية قد أقيمت على حساب تعاسة الناس وشقائهم. فقد كان جنكيزخان مجرداً من الرحمة والشفقة ، ولم يهتم بحياة الانسان ، ولم يحفل بآلام البشر. فهلك في حروبه ملايين الأبرياء من سكان المدن، وشهد ملايين الفلاحين حقولهم وبساتينهم وهي تتعرض للدمار والخراب .**

جاء « اوكيتاي » خلفاً لجنكيزخان في سنة ١٢٢٧ ، وفي سنة ١٢٣١ ظهر جيش مغولي في فارس بقيادة « شورماجان » ، وأفاد من ذكرى إغارة المغول السابقة ، فاجتاح دون مقاومة خراسان وأذربيجان ، فهرب جلال الدين الذي لم يلبث أن مات في ظروف غامضة في كردستان . فأضاف « شورماجان » كل شمال فارس وأذربيجان إلى الامبراطورية المغولية .

وفي سنة ١٢٣٦ احتشد جيش مغولي ضخم شمال بحر آرال ، بقيادة « باطو ابن جوجي » الذي شملت أملاكه تلك السهوب . وصحب باطو إخوته وأربعة من أبناء أعمامه (كيوك وقاذان ولدا اوكيتاي ، وبايدار بن جغتاي ومونك بن تولوي) ، أما القائد « سبوتاي » فكان رئيساً لأركان حرب الجيش رغم تقدمه في العمر .

وفي سنة ١٢٣٧ دمّر المغول المدن المنتشرة على نهر الفولغا، ثم احتلوا كولومانا وأبادوا أهلهـا . وفي سنة ١٢٣٨ هاجم المغول مدينة فلاديمير الكبيرة . وتبع

ذلك الاستيلاء على مدن روسيا الوسطى ، أمثال : موسكو ويوريف وجاليش وبريسلاف وروستوف ويارسلاف .

وفي سنة ١٢٤٠ دمّر الجيش المغولي بقيادة « باطو » اوكرانيا ، واستولى على مدنها (شرنيخوف وبريسلاف وكييف) ، ومضت قوة مغولية إلى بولندا فدمّرت ساندومير وكراكوف وسحقت الجيوش المتحدة الالمانية في فاهلشتات. ثم مضى « باطو وسبوتاي » إلى غاليسيا فسحقا جيش المجر ، وقادا المغول إلى كرواتيا بعد أن اجتاحا بلاد المجر. **وفي تلك الفترة توفي الخان الكبير «اوكيتاي» في قراقورم يوم ١١ كانون الأول سنة ١٢٤١ م .**

كان من المفروض أن يدبر قادة العالم المسيحي في الغرب وأمرائه القيام بإجراء مشترك لمواجهة التهديد المغولي ، فحينما دمّر « شورماجان » سلطان الخوارزمية فارس سنة ١٢٣٢ ، وتعرّض مقر قيادة طائفة الحشيشية «الاسماعيلية» في آلموت بجبال فارس لخطر المغول ، أوفد الحشيشية الرسل إلى اوروبا لتحذير المسيحيين والتماس النجدة منهم . غير أن أسطورة « بريستر يوحنا » والتي كانت تؤكد: « ما انطوت عليه الرؤيا من اعتقاد بأن الخلاص سوف يجيء من الشرق» بقيت هذه الأسطورة قوية التأثير ، بالرغم مما تعرضت له المسيحية في أوروبا من التدمير على أيدي المغول القادمين من الشرق .

وقد لا يكون خاقان المغول الأكبر مسيحياً ، وقد لا يكون فعلاً « بريستر يوحنا » ، إلا أن كل فرد كان يؤثر أن يتذكر بأن المغول قاتلوا المسلمين وأزالوا أكبر قوة لهم في الشرق ، وبأن الأميرات المسيحيات تزوجن في الأسرة الامبراطورية المغولية . ولهذا أصبح مأمولاً أن يوطن الخان الأكبر نفسه على الحرص على مساندة القوى المسيحية ضد المسلمين . وهكذا فإن ظهور حليف قوي في الشرق جعل الفرصة ، فيما يبدو ، ناضجة للدعوة إلى حملة صليبية جديدة.

ج – الصليبيون يحرّضون المغول

أظهرت الحملتـان الصليبيتان الثالثة والرابعة ضعف الموارد البشرية للغرب وتناقص الحماسة وبروز اتجاهات مغايرة لأهداف الكنيسة . وفي الوقت ذاته ، أبرزت العمليات في مصر والشام صمود المسلمين وعنادهم في مجابهة الغزو الصليبي. فتابع البابا أنوسنت الرابع جهود أسلافه لحشد طاقات الغرب ، وإنقـاذ العالم المسيحي – على ما يزعم – فأرسل ضمن هذا المجهود سفارتين إلى منغوليا، للمثول في بلاط الخـان الكبير ، فغادرت السفارة الأولى برئاسة الراهب الفرنسيسكاني **«يوحنا بيان دل كاربيني»** مدينة ليون في شهر نيسان (ابريل) سنة ١٢٤٥ م . وبعد أن أمضت هذه السفارة خمسة عشر شهراً في اجتياز روسيا وسهول آسيا الوسطى، وصلت إلى المعسكر الامبراطوري في « سيرا اوردو » قرب قراقورم في شهر آب (أغسطس) سنة ١٢٤٦ .

وتصادف وصول السفارة مع اجتماع مجلس زعماء قبائل المغول « قوريلتاي » لانتخاب « **كيوك** » خاناً كبيراً . وأحسن « كيوك » استقبال رسل البابا ، غير أنه حينما قرأ رسالة البابا التي يطلب فيها أن يعتنق المسيحية ، كتب رداً عليها بأن طلب إلى البابا : « أن يعترف بسيادته العليا ، وأن يقـــدم عليه مع سائر أمراء الغرب ليحلفوا يمين التبعية » .

ولما عاد «يوحنا بيان دل كاربيني» إلى المجلس البابوي في بداية سنة ١٢٤٧م، قدم إلى البـــابا أنوسنت الرابع مع هذه الرسالة المخيبة للآمال ، تقريراً مفصلاً أشار فيه إلى أن المغول لم يخرجوا إلا للغزو والفتح . غير أن البـــابا أنوسنت الرابع لم يرضَ لجهوده أن تضيع ، فأرسل سفارته الثـانية برئاسة الراهب الدومينيكاني « اسكلين الليومباردي » ، وذلك بعـــد فترة قصيرة من وصول السفارة الأولى ، فاجتازت هذه السفارة سوريا ، والتقت في تبريز بالقائد المغولي « بيجو » في أيار (مايو) سنة ١٢٤٧ .

وأعرب « بيجو » عن استعداده لمناقشة قيام تحالف لمناهضة الأيوبيين ، إذ

جعل خطته تستند إلى مهاجمة بغداد ، ولذا فإن من مصلحته قيـام حملة صليبية تصرف عنه مسلمي الشام . وأرسل « بيجو » رسولين هما « ايبك وسر كيس » بمهمة مرافقة اسكلين عنـد عودته إلى روما . ومع أنه لم يكن لهذين المندوبين صلاحية السفراء المفوضين، إلا أن الآمال انتعشت في الغرب من جديد. ومكث هذان المندوبان نحو سنة في ضيافة البابا، ثم حدث في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٢٤٨ أن أخطرا بأن يعودا إلى بيجو ، بعـــد أن جرى الإعراب لهما عن الأسف بأنه لم يطرأ شيء جديد على التحالف .

ومن المعروف أن الملك لويس التاسع قد توقف في قبرص لفترة قبل التوجه بحملته للهجوم على مصر . وتصادف أنــه بينما كان في قبرص وصل إلى نيقوسيا في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٢٤٨ مبعوثان نسطوريان، وهما مرقص وداوود، وأنهيا بأن الذي أنفذهما القائد المغولي «الجيهيداي» الذي كان مندوباً سامياً للخان الكبير في الموصل . وحمل المبعوثان رسالة تحدثت في عبارات جافة غليظة عن عطف المغول على المسيحية . فأعرب لويس عن اغتباطه ، وبادر بإرسال بعثة مؤلفة من راهبين دومينيكانيين برئاسة « **أندرو لونجيمو** » اللذين يتحدثان اللغة العربية . والواقع أن « أندرو » كان كبير مندوبي البابا فيما دار أخيراً من مفاوضات مع المونوفيزتيين .

وحمل الأخوان معهما كنيسة متنقلة تعتبر هـــدية تليق بخان بدوي حديث العهد باعتنــاق المسيحية ، وما يلزم مذبحها من التوابع الدينيــة فضلاً عن هدايا أخرى دنيوية . فغـــادرا قبرص في كانون الثاني (يناير) سنة ١٢٤٩ قاصدين معسكر « الجيهيداي » فأرسلها إلى منغوليا . ولما وصلا إلى قراقورم تبيّن لهما أن « كيوك » قد مات ، وأن أرملته «**أغول قايميش**» تولت الوصاية على العرش. فاستقبلت البعثة في شيء من الظرف ، غير أنها اعتبرت هـــدايا الملك أتاوة من تابع لسيد .

ثم عاد أندرو بعد ثلاث سنوات ، ولم يحمل معه إلا رسالة تؤكد سيادتها ،

وانطوت على شكر الوصية لما يبديه تابعها من الاهتمام بها . وطلبت الوصية أنه لا بد للتابع أن يبعث إليها كل سنة هدايا من هذا القبيل .

وارتاع الملك لويس لهذا الرد ، غير أنه ظلَّ يأمل في أن يتحقق في يوم من الأيام التحالف مع المغول . وعندما انتهت حملة لويس التاسع بالفشل ، عاد إلى عكا يجرُّ أذيال الهزيمة ،واستبدل وسيلة الصراع السياسي بالصراع المسلح،فتحالف مع الحشاشين (الاسماعيلية) في سنة ١٢٥٢ ، ولكن أهم ما كان يطمح إليه لويس هو أن يظفر بصداقة المغول ألدّ أعداء الحشاشين .

وحدث في زمن مبكر من سنة ١٢٥٣ أن وصل إلى عكا تقرير بأن أحد أمراء المغول وهو « سارتاق بن باطو ، قد تحوّل إلى المسيحية ، فبادر لويس إلى إرسال راهبين دومينيكانيين «**وليم روبروق وبارثولوميو الكريموني**» كيما يحث الأمير المغولي على النهوض لمساعدة إخوانه المسيحيين في سوريا . ولما وصل وليم روبروق إلى بلاط الخان الكبير في الأيام الأخيرة من سنة ١٢٥٣ ، صادف حكومة بالغة الاختلاف عن تلك التي سبق أن احتفلت « بأندرو لونججيمو » المبعوث السابق للملك لويس . فقد سبق انتخاب « باطو » في أول تموز (يوليو) سنة ١٢٥١ خاناً أكبر . وإذ تولى منكو العرش ، أحيا المغول سياستهم التوسعية ، وعاد كبار الأمراء إلى حكومتهم . وانتقلت حكومة فارس إلى يد هولاكو — ثالث إخوة منكو — وأضحت جهود المغول الرئيسية موجهة إلى طرف فارس وطرف قبيلاي في الشرق. وعندما عاد « **وليم روبروق** » من مهمته في آب (أغسطس) سنة ١٢٥٤ ، كان يعرف أن هجوم المغول قد أصبح وشيكاً .

كانت مملكة الأرمن بقليقية أول الامارات الصليبية التي أدركت أهميـــة التوسع المغولي ، وتابعت باهتمام تدمير المغول للجيش السلجوقي في سنة ١٢٤٣ ، وعلى أثر ذلك أرسل «**الملك هيثوم**» كتاباً إلى «بيجو» يفيض بالولاء والاحترام.

وفي سنة ١٢٤٧ أرسل الملك هيثوم (ملك أرمينيا) سفارة إلى بلاط الخان الكبير ، برئاسة أخيه الكندسطبل سمباد ، الذي حصل على وعد من كيوك

ببذل الدعم لأرمينيا ، ومساعدتها على استرداد ما انتزعه السلاجقة .

وفي سنة ١٢٥٤ قـام هيثوم (ملك أرمينيا) بزيارة لبلاط الخان الأكبر في قراقورم ، حيث أقيم حفل استقبال رسمي في يوم ١٣ ايلول (سبتمبر) تمّ فيه منح ملك أرمينيا وثيقة تكفل لشخصه ومملكته السلامة وعدم انتهاك حرمتها. وجرت معاملته على أنه كبير مستشاري الخان المسيحيين في كل ما يتعلق بأمور غرب آسيا . ووعـده « منكو » بأن يعفي كل الكنائس والأديرة المسيحية من الضرائب ، وصرح بأن أخاه «هولاكو» الذي استقر في فارس قد تلقى الأوامر بالاستيلاء على بغداد وتدمير الخلافة الإسلامية . وتعاهد أنه إذا تعاونت معه كل القوى المسيحية ، فسوف يعيد إلى المسيحيين مدينة القدس ذاتها . وغادر هيثوم قراقورم في أول تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٢٥٤ مثقلاً بالهدايا ومبتهجاً بمـا تكللت به جهوده من نجاح .

٢ - الموقف الخاص على جبهة المسلمين

استطاع صلاح الدين الأيوبي المحافظة على ما حققه المسلمون من انتصارات في حطين وتحرير القدس وما تبع ذلك من فتوحات بالرغم من محاولات الحمـلة الصليبية الثالثة التي استمرت حتى وفاته تقريباً سنة ١١٩٣ م .

وجاء أخوه الملك العـادل ، فنجح في المحافظة على الوحدة الإسلامية وإزالة الخلافات التي نشبت بين الأيوبيين . وكان ميّالاً إلى السلم ، ممـا أضعف الروح القتالية للمجاهدين في سبيل الله. وعندما توفي في ٣١ آب (أغسطس) سنة ١٢١٨ كان الصليبيون قد استولوا على دمياط (وكانت هذه الصدمة أكبر من أن يحتملها وقد ناهز الخامسة والسبعين من عمره ، فقضى نحبه) وتولى ابنه الأكبر الكامل محمد الحكم في مصر ، في حين تولى ابنه الأصغر المعظم عيسى الحكم في دمشق، وبقي الأشرف (الابن الثالث) ملكاً على حلب . وأظهر الإخوة تعاوناً جيداً في حرب الصليبيين وإخراجهم من مصر ، إلا أن الخلاف بين الإخوة الثلاثة عاد

قوياً بعد انتصارهم على الحملة الصليبية الخامسة .

وزاد من خطورة هـذا التمزق الصراع بين الأيوبيين وبين الخوارزميين (جلال الدين خوارزم شاه) . وأفاد الفرنج من ذلك فاستعادوا سيطرتهم على بيت المقدس بالاتفاق مع الكامل سنة ١٢٢٩ ، الذي نجح في النهـاية بإعادة توحيد المملكة الأيوبية . ولكن الحروب بين الأيوبيين لم تتوقف حتى وفـاة الأشرف سنة ١٢٣٧ ووفاة أخيه الكامل في ٨ آذار (مارس) ١٢٣٨ ، فتجدد الصراع . وتولى الصالح أيوب بن الكامل الحكم في مصر سنة ١٢٤٠ بعد أن طرد أخاه العادل من حكمها ، في حين تولى حكم دمشق الصالح اسماعيل .

وما نشب من منازعات بين ورثة الكامل هيّأت للمسيحيين الفرصة لإعادة بنـاء قوتهم ، والمساومة على حساب المسلمين للحصول على امتيازات سخيّة من كل الأحزاب المتصارعة. إلا أن هذه النزاعات لم تكن دائمة وعلى درجة واحدة من الشدة ، وهذا ما ساعد فرسان الخوارزمية على تحرير بيت المقدس وإخراج الفرنج منها نهائياً سنة ١٢٤٤ .

وعندما جاءت حمـلة لويس التاسع إلى مصر سنة ١٢٤٩ ، تصدّى لمقاومتها الصالح أيوب ، إلا أن وفاته في ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٢٤٩ أحدثت فراغاً لم تلبث زوجته شجرة الدر أن عالجته بكفاءة . فمنحت ثقتهـا للطواشي جمال الدين محسن الذي خضع البلاط لسلطانه ، وفخر الدين الذي عيّنته قائداً عاماً للجيش ، وزوّرت وثيقـة تحمل توقيعه وتقضي بتعيين توران شاه ولياً للعهد وفخر الدين قائداً عاماً للجيش . ولكن فخر الدين معظم قُتل وهو ينظم الدفاع أمام المنصورة ، فتولى القيادة ركن الدين بيبرس البندقداري .

وفي ٢٨ شباط (فبراير) سنة ١٢٥٠ وصل توران شاه إلى مصر ، وتوجه مباشرة إلى المنصورة، وكان قدومه إيذاناً بأن يصعّد المسلمون في مصر جهادهم. واستمر الصراع المرير إلى أن تمّ تطويق الجيش الصليبي في منتصف نيسان (ابريل) ، وفي ٣٠ نيسان تسلّم المسلمون دمياط ، ودخلوها ، إلا أن بيبرس

غدر يوم ٢ أيار (مايو) بالسلطان توران شاه وقتله، مما أبرز الصراع من جديد بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر .

وفي أوائل سنة ١٢٥٣ استنجد الناصر يوسف سلطان دمشق بخليفة بغداد للتوسط بينه وبين المماليك. وإذ حرص الخليفة المعتصم على توحيد العالم الإسلامي لمجابهة خطر المغول ، فقد حثّ ايبك زعيم المماليك في مصر على قبول شروط الناصر يوسف ، وتقرر الاعتراف بأيبك سلطاناً على مصر ، وله أن يضيف إلى حدوده من جهة الشمال ما يقع من فلسطين حتى الجليل وحتى نهر الأردن من جهة الشرق . وتمّ إبرام الصلح في نيسان (ابريل) سنة ١٢٥٣ ، وبذلك تمّ القضاء على اتفاق ايبك مع الفرنج .

وإدراكاً من السلطان يوسف حاكم دمشق للخطر المغولي ، فقد عقد مع الملك لويس – ملك فرنسا – معاهدة ، قبيل رحيل لويس إلى بلاده ، تنص على إقامة الهدنة لمدة سنتين وستة شهور وأربعين يوماً،ابتداء من ٢١ شباط (فبراير) سنة ١٢٥٤ . كما أن ايبك سلطان مصر عقد هدنة مع الفرنج لمدة عشر سنوات، تبدأ من سنة ١٢٥٥ .

ولم تمضِ على ذلك فترة طويلة حتى بدأ تحرك المغول . فقد اجتاز هؤلاء بقيادة هولاكو نهر جيحون في بداية سنة ١٢٥٦ ، واصطحب معه زوجته « طقز خاتون » التي اشتهرت بنفوذها القوي ، وبتأثيرها الكبير على هولاكو ، وبعدائها الشديد للمسلمين وحرصها على مساعدة المسيحيين على اختلاف مذاهبهم.

وكان الهدف الأول لهولاكو هو تدمير الحشاشين في فارس والاستيلاء على مقرهم في آلموت . وأمكن لهولاكو تدمير هؤلاء ، بحيث لم تنتهِ سنة ١٢٥٧ ، حتى لم يبقَ منهم إلا أعداد قليلة في جبال فارس .

ولما فرغ هولاكو من استئصال الاسماعيلية ، تحرّك مع الجيش المغولي لمهاجمة مقرّ الخلافة ببغداد ، وكان الخليفة المستعصم هو الخليفة الثالث والثلاثون من الخلفاء العباسيين . وقد حاول المستعصم إعادة بناء الجيش وتنظيم الخلافة ، إلا

أن الخلاف بين وزيره الشيعي « مؤيد الدين بن العلقمي » وكاتبه السني « ايبك » مزّق جهاز الحكم وأضعفه [1] .

وهكذا ، فعندما رفض الخليفة المستعصم الخضوع لهولاكو ، جمع هذا قادته وتحدّث إليهم في شيء من الاضطراب والقلق ، إذ كان يخشى الخيانة من قِبَل أتباعه المسلمين ، كما كان يخشى تدخل أمراء دمشق ومصر . غير أن ما اتخذه من تدابير لدرء الخيانة كانت قوية . وما من أحد نهض لنجدة بغداد . وفي تلك الأثناء ازداد جيشه قوة بوصول كتيبة من القبيلة الذهبية ، وبقدوم الجيش الذي ظلّ « بيجو » يحتفظ به على أطراف الأناضول في السنوات العشر الأخيرة ، فضلاً عن كتيبة من فرسان الكرج الذين تلهّفوا على مهاجمة حاضرة الإسلام [2] .

لقد استمر الصراع حول بغداد لمدة أكثر من شهر . ففي نهاية سنة ١٢٥٧ تحرك الجيش المغولي من قاعدته في همذان . وعبر « بيجو » بجيشه نهر دجلة عند الموصل ، وسار إزاء الشاطىء الغربي للنهر . أما كتبغا والجناح الأيسر للجيش فقد دخل سهل العراق الواقع شرقي العاصمة مباشرة ، بينما زحف هولاكو بقلب

---

(١) كانت العاصمة بغداد شهيرة بمناعة استحكاماتها وقوة تحصيناتها ، وكان باستطاعة الخليفة أن يحشد جيشاً ضخماً يزيد عدد خيالته وحدهم على مائة وعشرين ألف فارس، إلا أن الوزير الشيعي « مؤيد الدين بن العلقمي » والذي كان عميلاً للمغول في البلاط العباسي ، أثار شكوك الخليفة في قدرته على المقاومة ، ونصحه بتخفيض عدد أفراد الجيش وتوفير الأموال لدفعها اتاوة للمغول حتى يبتعدوا عن مهاجمته ، وقد فعل الخليفة كل ذلك ، إلا أن هولاكو طلب إلى الخليفة المستعصم الاعتراف بحقوق السيادة على الخلافة ذاتها ، فما كان من الخليفة إلا أن رفض شروط هولاكو ، وهذا ما زاد من نفوذ الكاتب السني « ايبك » الذي أخذ على عاتقه قيادة الحرب ، فلقي هزيمة يوم ١١ كانون الثاني (يناير) سنة ١٢٥٨ . وقد كافأ هولاكو الوزير العلقمي على خيانته ، بعد تدمير بغداد وإبادة أهلها ، بأن عينه حاكماً على بغداد تحت الإشراف الدقيق للموظفين المغول .

(٢) تاريخ الحروب الصليبية – رنسيمان – ٣ / ٥٠٥ – ٥٣٩ .

الجيش مخترقاً كرمان شاه ، ولم يكد الجيش الرئيسي للخليفة ينهض بقيادة «ايبك» ليلتقي بهولاكو حتى علم باقتراب جيش بيجو القادم من جهة الشمال الغربي فعبر ايبك نهر دجلة من جديد .

وفي ١١ كانون الثاني (يناير) سنة ١٢٥٨ باغت المغول قرب الأنبار على مسافة نحو ثلاثين ميلاً من بغداد، فتظاهر بيجو بالارتداد وبذا جر العرب إلى أرض منخفضة تغطيها المستنقعات ، وأرسل المهندسين ليقطعوا ما يقع خلفهم على نهر الفرات من السدود. وتجدد القتال في اليوم التالي، وارتد جيش ايبك إلى الحقول المغمورة بالمياه ، وبدأت المذبحة الرهيبة التي دمرت جيش بغداد ولم تترك منه أكثر من بقايا تمزقت في كل اتجاه .

وفي ١٨ كانون الثاني (يناير) سنة ١٢٥٨ ظهر هولاكو أمام الأسوار الشرقية لعاصمة المسلمين ، وفي ٢٢ كانون الثاني تعرضت المدينة للهجوم من كل الجهات . وفي نهاية شهر كانون الثاني (يناير) فقد المستعصم الأمل بالدفاع عن عاصمته ، فأرسل وزيره الذي كان يطالب دائماً بمصالحة المغول (الوزير الشيعي مؤيد الدين ابن العلقمي) ومعه البطريرك النسطوري الذي كان الخليفة يأمل بوساطته عند «طقز خاتون» لمحاولة التفاوض مع هولاكو . غير أنه تقرر إعادة الرسولين دون أن يحظيا بمقابلة هولاكو .

وأخذ السور الشرقي لبغداد يتداعى بعد أن تعرض للقذف الشديد في الاسبوع الأول من شهر شباط (فبراير) سنة ١٢٥٨ ، وفي يوم ١٠ شباط – وبينما كان المغول يتدفقون إلى داخل المدينة ظهر الخليفة وسلم نفسه لهولاكو ومعه كبار قادة الجيش وكبار موظفي الدولة . وبعد أن صدرت إليهم الأوامر بإلقاء سلاحهم تم الاجهاز عليهم . وبدأت مذبحة رهيبة سقط فيها خلال أربعين يوماً نحو ثمانين ألف من سكان بغداد . ولم يبق على قيد الحياة إلا فئة قليلة واتاها الحظ فلم يكتشف المغول الحواصل التي اختبأوا فيها فضلاً عن عدد من الغلمان والفتيات

الذين أصبحوا أرقاء . وكذا الجالية المسيحية التي لجأت إلى الكنائس فلم يتعرض لها أحد بسوء وفقاً لأوامر «طقز خاتون»[1] .

وكان لذيوع أنباء تدمير بغداد أثر عميق في جميع أنحاء آسيا ، فابتهج المسيحيون في كل مكان بآسيا ، إذ كتبوا في نشوة النصر عن سقوط بابل الثانية ، وهللوا لهولاكو وطقز خاتون واعتبروهما قسطنطين وهيلينا . لا سيما وأن هولاكو قد غمر البطريرك النسطوري – ماكيطا – بالأحباس وجعل له أحد قصور الخليفة مقراً وكنيسة .

وجه هولاكو بعد ذلك اهتمامه إلى ميافارقين التي كان يحكمها السلطان الأيوبي الكامل محمد والذي رفض الخضوع لهولاكو وأقدم على إعدام القسيس اليعقوبي الذي أرسله هولاكو لإقناع الكامل محمد بالاستسلام . ونجح هولاكو بالاستيلاء على ميافارقين في بداية سنة ١٢٦٠ بفضل مساعدة حلفائه الأرمن والكرج ودارت

---

(١) احتفظ هولاكو بالخليفة المستعصم لمدة خمسة أيام حتى دخل هولاكو المدينة والقصر في يوم ١٥ شباط (فبراير) سنة ١٢٥٨ حيث أمر هولاكو بذبحه بعد أن كشف الخليفة عن الأماكن التي اختبأت فيها ثروة الدولة وكنوزها . وفي تلك الأثناء ظلت المذابح مستمرة في جميع أنحاء المدينة (بغداد) وتعرض للقتل على السواء اولئك الذين بادروا إلى التسليم وهؤلاء الذين مضوا في القتال . وهلك النساء والأطفال مع رجالهم . وعثر أحد المغول في شارع جانبي على أربعين طفلا حديثي الولادة فاجهز عليهم. أما عساكر الكرج الذين كانوا أول من اقتحم الأسوار ، فاشتهروا بشدتهم وقسوتهم في الإبادة والذبح والتدمير. أما الدور والمتاجر فتعرضت للنهب والحرق. والقي بما حفلت به مكتبات بغداد من الكتب بنهر دجلة حتى تحول ماؤه إلى اللون الأسود ، ومع نهاية شهر آذار (مارس) سنة ١٢٥٨ بلغت رائحة الجثث المتعفنة بالمدينة، والتي لم يكن هناك من يقوم بدفنها درجة خشي معها هولاكو على جنده من التعرض للأوبئة فامرهم بمغادرتها . وحزن كثير من المغول لمغادرة المدينة لاعتقادهم أنه لا زال بها من التحف الثمينة ما يمكن العثور عليه . وأرسل هولاكو إلى أخيه منكو شطراً كبيراً من الغنائم التي كدسها الخلفاء العباسيون على امتداد خمسة قرون ، ثم توجه إلى همذان حيث شيد قلعة منيعة في شها على شاطىء بحيرة أرمية وجعلها مستودعاً لكل ما حازه من الذهب والمعادن الثمينة والجواهر. ولم تعد بغداد أبداً لما كانت عليه، بحيث أنها لم تصل بعد أربعين سنة إلى عشر حجمها السابق .

مذبحة رهيبة في المسلمين لم تبق منهم على أحـــد . وتعرض الكامل للتعذيب والتنكيل بأن أرغموه على أن يأكل من لحم جسده حتى مات .

وكان هولاكو قد تولى قيادة كتلة جيشه الرئيسية فبلغ حلب في أوائل سنة ١٢٦٠ وقـام بحصارها من كل الجهات . وإذ رفضت حامية المدينة الاستسلام ، تقرر اقتحامها في ١٨ كانون الثاني (يناير) سنة ١٢٦٠ ، واستبسل في الدفاع عن حلب توران شاه عم الناصر يوسف، غير أن الأسوار لم تلبث أن انهارت بعد أن تعرضت لقذف المجانيق ستة أيام متوالية ، وتدفق المغول إلى داخـــل المدينة . وحدث بحلب مثلما حـــدث في كل مكان ، إذ دارت المذابح في المسلمين بينما لم يتعرض المسيحيون لسوء . وظلت قلعة حلب تقاوم بقيادة توران شاه أربعـــة أسابيع أخرى ، فلما سقطت آخر الأمر أظهر هولاكو من الرحمة ، مـا لم يكن متوقعاً منه إذ أبقى على حياة توران شاه لكبر سنه وشجاعته. وتعرضت حلب لمـــا سبق أن تعرضت له بغداد من التدمير والنهب ، وتعرضت حارم لمثل ما تعرضت له حلب . وكافأ هولاكو حلفاءه الأرمن وإمارة انطاكية بإضافة بعض الأقاليم والمدن لإماراتيهما مكافأة لما قدمته الإمارتان (أرمينيا وانطاكية) من مساعدات لجيوش المغول .

عرف الناصر يوسف حاكم دمشق أنـــه لا يستطيع مقاومة المغول ، فقرر التوجه إلى مصر والتخلي عن المدينة ، ودخل « كتبغا » قائـد المغول دمشق في أول آذار (مارس) سنة ١٢٦٠ على رأس جيش مغولي وصحبه ملـــك أرمينيا وأمير انطاكية. وشهد سكان العاصمة (عاصمة الأمويين) لأول مرة (منذ ستة قرون) ثلاثة أمراء مسيحيين يركبون معاً ويشقون بموكبهم شوارع المدينة. على أن قلعة دمشق ظلت تقاوم الغزاة بضعة أسابيع غـير أنها أذعنت في ٦ نيسان (ابريل) سنة ١٢٦٠ .

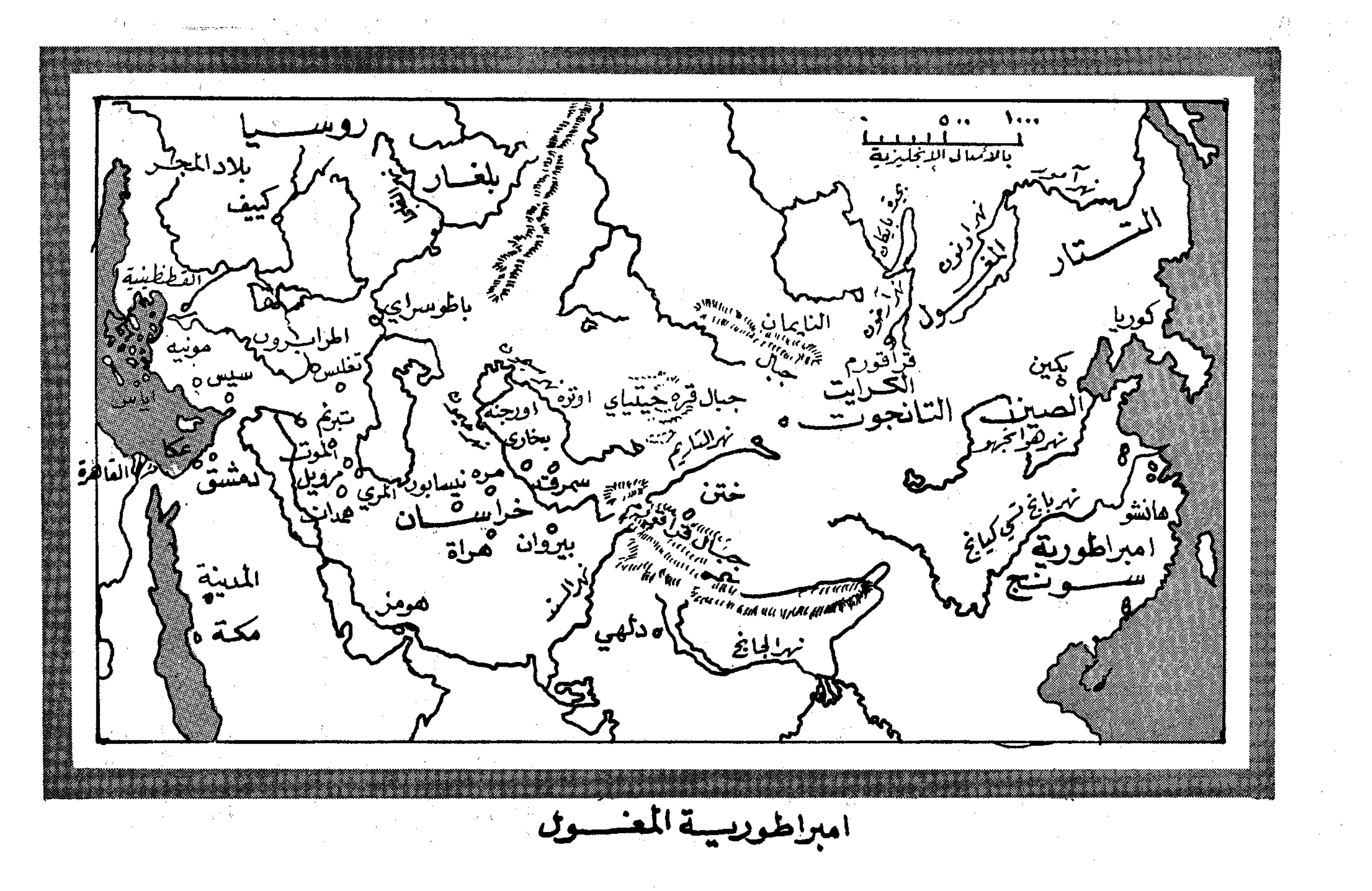
وبسقوط المدن الثلاثة الكبيرة بغداد وحلب ودمشق تراءى وكأنه قـد تم القضاء على الاسلام في بـلاد الاسلام . وأضحى المسلمون بداخل بلاد الشام وهم

مغلوبون على أمرهم منذ ظهور الإسلام فأخذوا يتحرقون للانتقام. وأرسل كتبغا أثناء فصل الربيع من سنة ١٢٦٠ سرايا من جيشه فاحتلت نابلس وغزة غير أنها لم تصل إلى بيت المقدس ذاتها ، كما تجنبت قوات المغول الاصطدام مع إمارات الفرنج الصليبيين .

٣ – عين جالوت

تولى السلطة في مصر بعد مقتل توران شاه في ٢ أيار (مايو) سنة ١٢٥٠ قائد الجيش (الأتابك) عز الدين ايبك الذي تم انتخابه من قبل قادة المماليك ، فعمل عز الدين على تمزيقهم وفرّ أكثرهم إلى الشام . وقد حاول عز الدين اكتساب الشرعية فتزوج من السلطانة «شجرة الدر» التي كانت زوجة الصالح أيوب والد توران شاه ، كما حاول تنصيب الأشرف موسى الأيوبي سلطاناً خاضعاً لوصاية عز الدين ، غير أن مؤامرة نظمتها السلطانة شجرة الدر أودت بحياته [١] ، ولم تلبث شجرة الدر حتى لحقت به في سنة ١٢٥٧ ، وتولى المظفر قُطزْ السلطنة ،

(١) كانت شجرة الدر وراء اغتيال توران شاه بمساعدة الظاهر بيبرس ، وكان لها أنصارها من قادة المماليك الذين اعتبروها رمزاً للشرعية ، وعلى هذا كان من الطبيعي أن تحاول المحافظة على مواقعها والامساك بمراكز القوى. وكان من الطبيعي أيضاً أن يحاول عز الدين ايبك مقاومة مراكز القوى التي تعتمدها شجرة الدر والتي كان أبرز قادتها المظفر قطز والظاهر بيبرس . وتطور الصراع فعملت شجرة الدر على تنظيم مؤامرة لاغتيال عز الدين ايبك بواسطة الطواشية وذلك أثناء استحمامه ، وتم تنفيذ المؤامرة في شهر نيسان (ابريل) سنة ١٢٥٧ . وكاد مصرعه يثير حرباً أهلية . إذ تداعى بعض المماليك للانتقام من السلطانة شجرة الدر بينما تصدى الفريق الآخر من المماليك لدعمها ومساندتها باعتبارها رمز الشرعية في حكم البلاد . وكسب اعداؤها آخر الأمر المعركة ، ففي ٢ أيار (مايو) سنة ١٢٥٧ تعرضت شجرة الدر للضرب الشديد حتى لقيت حتفها ، وتقرر المناداة بنورالدين علي ابن السلطان ايبك – الذي لم يكن يتجاوز الخامسة عشرة من عمره سلطاناً – ولما لم يظهر هذا الشاب كفاءة تؤهله للقيادة ، فقد عمل أحد رفاق أبيه القدامى – المظفر قطز – على عزله في شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٢٥٩ ، وحل مكانه في السلطنة .



امبراطورية المغول

فعـــاد إلى مصر سائر المماليك الذين هربوا من مصر إلى دمشق خوفاً من بطش عز الدين ايبك وبينهم «بيبرس البندقداري» .

ولم تمض فـترة طويلة حتى وردت إلى القاهرة سفارة أرسلها هولاكو لمقابلة المظفر ُقطز تطالبه بالخضوع والاذعان لحكم المغول – وكان ذلـك في بداية سنة ١٢٦٠ – وإذ عرف ُقطز ْمـــا يمكن أن تكون عليه نتيجة الاستسلام ، قرر المقاومة ، وأمر بقتل رسول هولاكو وأخذ في الاستعداد للحرب والاعداد بها. ونظم ُقطزْ جيشه فضم إليـــه القوات الخوارزمية التي مزقتها قوات المغول بالإضافـة إلى قوات الأيوبيين التي انسحبت من حلب وحمص ودمشق والتحقت بالقاهرة ، فزاد ذلك من قوة جيش مصر .

وفي ٢٦ تموز (يوليو) اجتاز الجيش المصري الحدود وزحف على غزة، وتولى بيبرس قيادة المقدمة. ولم يكن بغزة سوى قوة قليلة من المغول بقيادة «بايدار» الذي أرسل إلى كتبغا يعلمه بتحرك قوات مصر ويطلب دعمـه ، إلا أن قوات مصر كانت أكثر سرعة في تحركها وأكثر تصميماً على انتزاع النصر ، فنجح الظاهر بيبرس في الاستيلاء على غزة وتدمير قوات المغول قبـــل أن تصلها قوات الدعم .

كان قائد المغول « كتبغا» في بعلبك عندما وردته أنباء تحرك المسلمين، فتجهز على الفور للمسير إلى وادي نهر الأردن بعد أن يتجاوز بحر الجليل ، غير أنـه منعه ما حدث من نشوب ثورة المسلمين في دمشق ، فتحطمت دور المسيحيين وكنائسهم واشتدت الحاجة إلى العساكر المغولية لاعـــادة الامن إلى نصابه والقضاء على الثورة التي لم يكن باستطاعته تجاوزها نظراً لما تشكله من تهديد لمؤخرته .

وفي تلـك الأثناء قرر المظفر ُقطزْ السير على الساحل الفلسطيني ، ثم المضي إلى داخل البلاد في اتجاه أقصى الشمال لتهديد مواصلات «كتبغا» إذا ما زحف على فلسطين . ولذا تقرر إيفاد سفارة مصرية إلى عكا تطلب الاذن باجتياز

المناطق التي يحتلها الفرنج والحصول على المؤن اللازمة للجيش أثناء مسيره. هذا إذا لم يرغب الفرنج بتقديم دعم عسكري حقيقي لمجابهة المغول. واجتمع البارونات معاً في عكا لمناقشة هذا الطلب.

كان البارونات يحسون بالمرارة من المغول لما أقدموا عليه منذ زمن قريب من نهب صيدا. كما أنهم لم يثقوا بهذه القوة المدمرة القادمة من الشرق، والتي حفل سجلها الحربي بالمذابح الجماعية. لقد ألف الفرنج الحضارة الإسلامية، وكان معظمهم يؤثرون المسلمين على المسيحيين الوطنيين الذين حباهم المغول بقدر كبير من عطفهم. وأظهر البارونات أول الأمر ميلهم إلى أن يقدموا للمظفر "قطز" قوات مسلحة إضافية. غير أن مقدم طائفة الفرسان التيوتون (أنو سانجر هاوزن) حذرهم بأنه من الحماقة المبالغة في المسلمين، ولا سيما إذا اشتد زهوهم بما يحرزونه من النصر على المغول[1]. وكان لعباراته شيء من التأثير، إذ قرر الفرنج رفض التحالف العسكري، على أنهم وعدوا المظفر "قطز" بأن يسمحوا له باجتياز أراضيهم، وأن يقدموا التسهيلات اللازمة لتموين جيش المسلمين.

قاد السلطان قطز جيش المسلمين في شهر آب (أغسطس) فسار به على امتداد الطريق الساحلي حتى وصل مدينة عكا حيث أقام معسكره لمدة عدة أيام في الحدائق الواسعة خارج عكا. وقام الصليبيون بدعوة أمراء جيش المسلمين لزيارة المدينة – باعتبارهم ضيوف مملكة عكا – وكان الظاهر بيبرس ممن قاموا بزيارة المدينة فقام عقب عودته إلى المعسكر بتقديم اقتراح للاستيلاء على عكا بصورة مباغتة بعد أن تبين له ضعف الحامية المدافعة عنها. غير أن المظفر "قطز" لم

---

(١) كان لطائفة الفرسان التيوتون – الألمان – ممتلكات كثيرة في مملكة أرمينيا المتحالفة مع المغول. كما كان (أنو سانجر هاوزن) يؤيد سياسة الملك هيثوم ملك أرمينيا التي تميل للتعاون مع المغول لتدمير المسلمين. ولهذا فقد كان يفضل عدم التعاون مع المسلمين في حين كانت أكثرية الفرنج في الشام تفضل دعم المسلمين ضد المغول، ولهذا فقد حاول (هاوزن) قدر استطاعته الحد من دعم الفرنج للمسلمين.

يظهر استعداداً للغدر بهؤلاء الذين تحالف معهم حديثاً . كما أنـــه لم يرغب باستثارتهم قبل أن ينهي معركته مع المغول ، وذلك حتى يضمن مؤخراته من كل عمل عدواني . وفي الوقت ذاتـه أثارت زيارة المسلمين باعداد كبيرة مخاوف الفرنج في عكا ، إلا أنهم استعادوا ثقتهم عندما وعدهم المظفر "قطز" ببيعهم ما قد يقع في أيدي المسلمين من خيول المغول بأثمان زهيدة .

بينما كان المظفر قطز في عكا ، علم أن كتبغا عبر نهر الأردن ، وأنه نفذ إلى الجليل الشرقي ، فبـادر على الفور بقيادة جيشه صوب الجنوبي الشرقي – مجتازاً الناصرة – فوصل في ٢ ايلول (سبتمبر) سنة ١٢٦٠ إلى عين جالوت (حيث سبق للجيش المسيحي أن تحدى صلاح الدين سنة ١١٨٣) .

وفي صبيحة اليوم التالي قدم الجيش المغولي وبصحبته كتائب كرجية و كتائب أرمنية . وافتقر «كتبغا» إلى الكشافة ولم يكن السكان المحليون موالين له ، فـلم يعلم أن كل جيش المسلمين أضحى قريباً منه . و كان قطز قد نظم قواته ، فأخفى الكتلة الرئيسية من قواته في التلال القريبة. ولم يعرض للمغول إلا المقدمة التي تولى قيادتها الظاهر بيبرس . ووقع كتبغا في الكمين ، إذ ألقى بكامل قوتـــه لتدمير القوة التي جابهته فأسرع بيبرس بالتراجع نحو التلال بعـــد أن اشتدت مطاردة كتبغا له. فلم يلبث الجيش المغولي بأسره أن جرى تطويقه فجأة ، وأبلى كتبغا في القتال بحيث استطاع تمزيق صفوف قوات المسلمين مما دفع المظفر قطز إلى التدخل وإعادة تنظيم القوات ، على أنه لم تمض أكثر من بضعة ساعات حتى ظهر التحول لمصلحة المسلمين .

ومع أن جماعة من رجال « كتبغا » استطاعت أن تشق لهـا طريقاً للخروج من ميدان المعركة ، إلا أن كتبغا رفض البقاء على قيد الحياة بعد هزيمته ، إذ كاد أن يكون بمفرده حين لقي حصانه مصرعه ووقع أسيراً. وبأسره انتهت المعركة ، حيث تمّ حمله مقيداً بالأغلال إلى السلطان الذي سخر لسقوطه . غير أنه أجاب في اعتزاز – بعـد أن تنبأ بما سوف يتعرض له من انتقام – متباهياً بأنه يختلف

عن أمراء المماليك بأنه ظل دائماً محافظاً على ولائه لسيده ، فاجتزوا رأسه [1] .

وعندما بلغت هولاكو أنباء الهزيمة وضياع سوريا من قبضته ، غضب لذلك، فأرسل جيشاً لاسترداد حلب في شهر كانون الأول (ديسمبر) ، إلا أن هذا الجيش اضطر للانسحاب بعد أربعين يوماً ، أجرى خلالها مذابح جماعية سقط فيها عدد كبير من المسلمين انتقاماً لمصرع كتبغا ، غير أن ذلك هو كل ما استطاع هولاكو أن يفعله للانتقام لصديقه الوفي .

وفي تلك الأثناء كان المظفر قطز قد دخل دمشق بعد خمسة أيام من (يوم عين جالوت) ، ورجع أمراء حمص وحماة إلى مدنهم بعد أن تمّ طرد المغول ، وتمّ استرداد حلب بعد شهر واحد ، وزال الخطر المغولي .

٤ – نتائج معركة عين جالوت

آ – النتائج السياسية

كانت معركة عين جالوت نقطة تحوّل في مسيرة الصراع ضد الغزاة البرابرة،

---

(١) لم تمض فترة طويلة حتى تحققت نبوءة كتبغا ، فقد تزايدت شكوك المظفر قطز بقائده بيبرس الذي أظهر استعداده للغدر منذ قتل توران شاه . وعندما طلب بيبرس تعيينه والياً على حلب ، رفض المظفر قطز ذلك . ولم ينتظر بيبرس طويلاً حتى يتخذ قراره ، ففي ٢٣ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٢٦٠ ، وحينما وصل الجيش المظفر إلى حافة الدلتا ، رأى قطز أن يمضي يوم العطلة في الصيد ، فخرج في جماعة من أمرائه ، من بينهم بيبرس وبعض الأصدقاء ، ولم يكد المظفر قطز يبتعد عن المعسكر حتى أقبل أحدهم على السلطان كأنما يتقدم بطلب إليه ، وبينما أمسك بيد السلطان كأنه يهم بتقبيلها ، اندفع بيبرس فأتاه من الخلف ، وغرس سيفه في ظهر سيده . وعندئذ ركض المتآمرون بخيولهم إلى المعسكر ، وأعلنوا نبأ مصرع السلطان . وكان (أقطاي) أتابك العساكر في خيمة السلطان حينما وصل المتآمرون ، فبادر بالسؤال أيهم قتل السلطان ؟ فلما اعترف بيبرس بأنه هو الذي فعل ذلك، طلب إليه أقطاي أن يجلس في دست السلطنة ، وكان أول من بذل الولاء لبيبرس ثم حذا حذوه جميع قادة الجيش . وبذا عاد بيبرس إلى القاهرة سلطاناً في حكم مصر .

سواء منهم هؤلاء الذين قدموا من الشرق (المغول) ، أو أولئك الذين سبق لهم أن قدموا من الغرب (الفرنج)، ولهذا تعتبر من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ .

ولقد أبرز العرض السابق تقدم المغول مسافة أربعة آلاف ميل من قلب (منغوليا) وحتى بلاد الشام ، وخاضوا أثناء ذلك مجموعة كبيرة من المعارك في أوروبا وآسيا ، لم تنتكس لهم راية ، ولم يهزم لهم جمع ، بمثل ما حدث لهم في عين جالوت .

ولقد كان انتصار عين جالوت بداية هزائم متتالية أعادت المغول إلى قواعدهم وحرّرت البلاد الإسلامية في آسيا من وجودهم . وكان من أبرز التحوّلات انضمام أعداد كبيرة من المغول إلى جانب المسلمين . ومن المعروف أن انحياز بلاط هولاكو إلى جانب المسيحيين قابله انحياز القبائل الذهبية بقيادة خان بركة إلى جانب المسلمين ، وقد أنكرت القبائل الذهبية على هولاكو ما اتبعه من سياسة مناهضة للمسلمين ، ووقع الاحتكاك في جبال القوقاز التي تعتبر الحد الفاصل بين منطقتي نفوذ بركة وهولاكو ، فدأب بركة وقادته على اضطهاد القبائل المسيحية .

وما أقدم عليه هولاكو من محاولة لتوطيد سلطته في الجانب الشمالي لجبال القوقاز ، أحبطتها الهزيمة الساحقة التي أنزلها نوغاي ابن أخت بركة بجيش هولاكو سنة ١٢٦٥ قرب نهر تريك . وكان انتصار نوغاي نتيجة لزيادة قوة العنصر الإسلامي وإضعاف العنصر المسيحي مما برز بعد يوم عين جالوت . وقد كان هذا العامل ذاته هو الذي أغرى المغول الذين بقوا فيغربي آسيا على اعتناق الإسلام . وعجلت هذه المعركة بزوال الإمارات الصليبية ، لأن المسلمين المظفرين أضحوا حريصين على التخلص نهائياً من أعداء الدين . وفي الوقت ذاته ، فقد ساعدت نتائج هذه المعركة على إقناع الصليبيين في الشرق والغرب بحتمية الانتصار النهائي للمسلمين الذين استطاعوا تدمير قدرة المغول والتي لم يتمكن أحد من إلحاق الهزيمة بها من قبل .

من المحتمل هنا القول أن وفاة الخان الكبير «منكو» في ١١ آب (أغسطس) سنة ١٢٥٩ قد أضعفت من قدرة المغول، وحرمت هولاكو من حرية العمل نظراً لاضطراره لإبقاء قوات كبيرة في قاعدته في فارس . ولكن هنا أيضاً لا بد من القول إن جيوش المغول قد نظمت للعمل على محاور مستقلة ومتباعدة ، فالقوات التي كان يقودها بيجو في أوروبا لم تكن مرتبطة بجيوش هولاكو . كما أن تصدّي المظفر قطز للمغول والإعداد للمعركة الحاسمة معهم قد سبق موت منكو . ولم يكن هولاكو قد عمل على التخفيف من قواته في سوريا. كما أن معركة عين جالوت سبقت هزيمة جيوش هولاكو على نهر تريك بمدة خمس سنوات . وعلى هذا يمكن اعتبار يوم عين جالوت هو بداية النهاية للهجمة المغولية التي دمرت عاصمة الخلافة .

يمكن التساؤل بعد ذلك : ترى هل كان باستطاعة جيش مصر وجيش حلب والشام أن ينطلقا لنجدة بغداد عندما هاجمتها قوات المغول، وتدمير هذه القوات قبل أن تنال من عاصمة الخلافة ؟

ثم هل كان للاسلام كيان لو أمكن للمغول تدمير قوات المسلمين في عين جالوت والاستيلاء على مصر التي أصبحت بعد خروج القوات منها محرومة من وسائل الدفاع ؟. ثم ما هو موقف الإمارات الصليبية وسط المحيط الذي يسيطر عليه المغول لو انتصروا في عين جالوت ؟

قد يكون من المحال وضع إجابة حاسمة ، وكل إجابة لا تتجاوز حدود الاجتهاد الذي لا يستطيع إلغاء اجتهاد مضاد له . ولهذا فليس بالإمكان تجاوز تقرير الوقائع والنتائج بصورتها الوضعية، وكما حدثت في إطاريها الزماني والمكاني. وضمن هذين الإطارين المحددين تبرز معركة « يوم حطين » كأكبر المعارك الحاسمة في التاريخ ، لا بالنسبة لحجم القوى، ولا بالنسبة لأهميتها العسكرية المحدودة على مسرح العمليات ، وإنما بالنتائج السياسية والعسكرية التي أمكن استثمارها من خلال النصر .

ب – الدروس العسكرية

١ً – لعل أول ما يبرز في معركة عين جالوت ، هو تصميم القائد على انتزاع النصر والإعدد المناسب للحرب . وتبرز أهمية هذا التصميم عند تصوّر المناخ العام الذي هيمن على العالم الإسلامي خلال تلك الحقبة التاريخية . فقد اجتاح المغول العالم الإسلامي في المشرق ، ودمروا جميع مراكز القوى التي جابهتهم ، وأبادوا الحياة إبادة تامة . وقد خلق ذلك كله مناخاً من الرعب لا يمكن إنكاره . ولهذا فقد كانت استجابة المظفر قطز هي النموذج الأعلى للقدرة على التحدي ، وهي الأمثولة الرائعة لتصميم القائد على انتزاع النصر ، وهي أيضاً القدوة لرفض استراتيجية الهجوم غير المباشر وعدم الخضوع لها .

٢ً – وتبرز في معركة عين جالوت إرادة الحرب – بصرف النظر عن النتائج – في مجموعة المعارك التي جابهها المغول عند اصطدامهم بالعالم الإسلامي. وقد صمدت بغداد وقاومت لمدة تزيد على الشهر ، بالرغم من معرفة الخليفة المستعصم بالنتائج المحتملة لانتصار المغول . وفعلت مثل ذلك ميافارقين وحلب وحارم ، وتبعتهم قلعة دمشق . فكان ذلك برهاناً على إرادة القتال المتوافرة في العالم الإسلامي ، والتي ترفض الخضوع لأعداء الدين من الأجانب .

٣ً – ربط العلاقة السياسية بالمتطلبات العسكرية . فقد اضطر المظفر قطز إلى عقد شبه تحالف مع الفرنج ، وكان عز الدين ايبك والناصر يوسف من قبل قد عقدا هدنة مع الفرنج لمجابهة خطر المغول . ولا يبرز ذلك إعطاء الأفضليات للحرب فقط ، وإنما تبرز أيضاً أهمية ربط التحرك السياسي بهدف الحرب .

٤ً – وتُبرز معركة عين جالوت أهميـة العامل الديموغرافي السكاني ، في مسرح العمليات . فقد كان الشعور العام مضاداً للمغول ، معادياً لهم . ولهذا فقد برزت الثورة في دمشق واندلعت في تواقت واحد مع تحرك جيش مصر إلى فلسطين ، وكان لذلك دوره الحاسم في توفير هامش التحرك الزمني الذي كان

يحتاجه المظفر قطز لتنظيم قواته وإجراء الاستطلاع المناسب ووضع الخطة الملائمة للمعركة . كما تبرز أهمية هذا العامل أيضاً عند تحرك « كتبغا » إلى فلسطين ، حيث أصبح محاطاً بالأعداء ، مما حرمه من الدعم المادي والمعنوي ، وجعله يتحرك في فراغ مجهول ، مما ضمن للمظفر فرصة تحقيق المباغتة والإمساك بالمبادأة .

٥ً – وقد برهنت معركة عين جالوت أيضاً على أهمية الأرض في تقرير نتيجة المعركة ، إذ أفاد المظفر قطز من المرتفعات لإخفاء قواته بقدر ما أفاد أيضاً من محاور التحركات لنصب كمين أحاط به بجيش المغول ودمره ، وتتشابه خطة المعركة مع مخطط عمليات معركة حطين ، من حيث تطويق جيش العدو وإبادته .

٦ً – الاهتمام بالأمن الإداري للقوات ، ويظهر ذلك من خلال حرص المظفر قطز على التحالف مع الفرنج لضمان التأمين الإداري لقواته ، بقدر ما يظهر أيضاً من خلال تفكير المظفر قطز للتوجه شمالاً من أجل ضرب مؤخرات المغول وعزل قوات كتبغا وحرمانها من محاور إمدادها الإداري .

٧ً – وتبرز في معركة عين جالوت الطريقة التي كان يطبقها قادة المسلمين ويستخدمونها في حروبهم ، وهي إحراز انتصارات صغرى قبل المعركة الحاسمة ، وذلك لدعم الروح المعنوية لقوات المسلمين ، مقابل تفتيت الروح المعنوية لأعدائهم . وهكذا فقد كان لمعركة غزة دورها المعنوي الذي يتجاوز كل أهمية مادية .

٨ً – وتظهر في معركة عين جالوت أهمية التنسيق بين الأعمال الثورية وأعمال القوات النظامية على مسرح العمليات . ومن المحتمل جداً أن تكون ثورة دمشق قد جاءت بصورة عفوية وكردّ فعل (دون تحريض خارجي من جانب المظفر قطز) . وتكون صدفة الحرب هنا قد مارست دور التخطيط

المنظم لتحقيق النتيجة ، وهي ربط الأعمال الثورية بعمل القوات النظامية في تواقت واحد ، مما يضمن الظروف المناسبة لتحقيق النصر وحسم الصراع .

وبعـــد ، فليست هذه كل الدروس المستفادة ، وإنما هي أبرزها وأكثرها أهمية . ويبقى بعـــد ذلك العامل الحاسم في تقويم المعركة ، وهو ما أمكن الوصول إليه من نتائج . ولعل في ذلك ما يضع معركة عين جـــالوت فوق كل تقويم .



« حشد الفرنج وجمعوا ، وذهب سلطانهم دون بطره - دون بــدرو - إلى طليطلة . ودخل على مرجعهم الذي يقال له البابا . وسجد له وتضرع ، وطلب منه استئصال ما بقي من المسلمين بالأندلس ، وأكد عزمــه ، فقلق المسلمون بغرناطة وغيرهــا ، وعزموا على الاستنجاد بالمريني أبي سعيد صاحب فـاس ، وأنفذوا إليه رسلاً ، فلم ينجع ذلك الدواء . فرجعوا إلى أعظم الأدوية، وهو اللجوء إلى الله تعالى . وأخلصوا النيات ، وأقبل الفرنج في جموع لا تحصى ، فقضى ناصر من لا ناصر له سواه بهزم أمم النصرانية، وقتل طاغيتهم دون بطره ومن معه - وكان نصراً عزيزاً ويوماً مشهوداً » .

(نفح الطيب - المقري - ٢ / ٤٤٩ - ٤٥٠)

٧

يوم في غرناطة

بين (دون بطره) وأبي الوليد ابن الأحمر

(٧١٩ هـ = ١٣١٩ م)

١ - الوضع على جبهة المسلمين .

٢ - يوم في الحمراء .

٣ - استعادة جبل الفتح وتحصينه .

٤ - ملوك بني الأحمر .

٥ - الأيام الأخيرة لغرناطة .

٦ - اتفاقيــة الصلح .

٧ - الدروس المستفادة .

آ - النتائج السياسية .

ب - الدروس العسكرية .

وجيز الأحداث

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٥٩١	١١٩٤	غزوة الأرك وانتصار المسلمين .
٥٣٤ – ٦٥٥	١١٣٩ – ١٢٥٧	البرتغاليون والانكليز يتعاونون لدعم البرتغال الجنوبية، والملك الفونسو هنريك يقود عمليات القتال وينتزع من المسلمين لشبونة (٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م) وشلب (سنة ٥٩٤ هـ = ١١٩٧ م) ومارتيلة (٦٣٧ هـ = ١٢٣٩ م) .
٦٠٩	١٢١٢	غزوة العقاب وهزيمة المسلمين في الأندلس.
٦١٥	١٢١٨	حملة الملك يوحنا على مصر واحتلال دمياط.
٦٢٢	١٢٢٥	ضياع لوشة من مسلمي الأندلس .
٦٢٦	١٢٢٨	ضياع ماردة من مسلمي الأندلس .
٦٢٨	١٢٣٠	جيمس الأول ينتزع من المسلمين جزيرة مينورقة (مجورقة) – من جزر الباليئار .
٦٢٩	١٢٣٠	استقلال محمد بن يوسف بن هود بمرسية وتغلبه على شرقي الأندلس .

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٦٣٠	١٢٣٢	جيمس الأول ينتزع من المسلمين جزيرة «مينورقة» من جزر الباليئار .
٦٣٣	١٢٣٥	بني مرين يسيطرون على المغرب الإسلامي بعد الموحدين .
٦٣٤	١٢٣٦	ضياع شقر في الأندلس من المسلمين .
٦٣٤	١٢٣٦	نصارى الشمال ينتزعون قرطبة من المسلمين.
٦٣٦	١٢٣٨	نصارى الشمال ينتزعون بلنسية ومرسية من مسلمي الأندلس .
٦٤٥	١٢٤٧	ضياع أشبيليا من مسلمي الأندلس .
٦٤٧	١٢٤٩	الملك الفرنسي «لويس التاسع» يقود حملة صليبية ويهاجم مصر ويستولي على دمياط.
٦٥٧	١٢٥٨	المغول بقيـــادة هولاكو يدمرون بغداد ويزيلون الخلافة العباسية .
٦٥٩	١٢٦٠	المظفر قطز يدمر جيش المغول الذي كان يقوده « كتبغا» في عين جالوت .
٦٦٠	١٢٦١	يعقوب عبد الحق (بني مرين) يرسل إلى الأندلس دعمـــاً مكوناً من ثلاثة آلاف مقاتل .
٦٩٠	١٢٩١	تحرير عكا وإخراج بقـــايا الصليبيين من بلاد الشام .
٦٣٠ — ٨٩٨	١٢٣٢ — ١٤٩٢	مملكة «بنو الأحمر» في غرناطة .
٧١٩	١٣١٩	يوم في غرناطة (وقعة دون بدرو — وأبو الوليد ابن الأحمر) .

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
٨٩٨	١٤٩٢	القشتاليون يستولون على غرناطة . وإخراج المسلمين من الأندلس .
١٠١٨	١٦٠٩	إخراج بقيـــة المسلمين من الأندلس وهم المعروفون (بالمغاربة أو الموريسكو) .
٧٩٩	١٣٩٦	معركة نيقوبوليس وانتصار الأتراك العثمانيين على الصليبيين في اوروبا .
٨٠٣	١٤٠٠	تيمورلنك يهاجم بـــلاد الشام ثم يهاجم الأناضول وينتصر على بايزيد في أنقرة سنة ٨٠٥ هـ = ١٤٠٢ م .
٨٥٧	١٤٥٣	استيلاء العثمانيين على القسطنطينية .

« لم تزل جزيرة الأندلس منتظمة لمالكها في سلك الانقياد والوفاق ، إلى أن طما بمترفيها سيل العناد والنفاق ، فامتاز كل رئيس منهم بصقع كان مسقط رأسه ، وجعله معقلاً يعتصم فيه من المخاوف بأفراسه ، فصار كل منهم يشنّ الغارة على جاره ، ويحاربه في عقر داره، إلى أن ضعفوا عن لقاء عدو في الدين يعادي ويراوح معاقلهم بالعيث ويُغادي ، حتى لم يبقَ في أيديهم منها إلا ما هو في ضمان هدنة مقدرة ، وإتاوة في كل عام على الكبير والصغير مقررة ، وذلك قبل أن يستولي العدو على جميعها . وطرقت الدهياء الأندلس ، وهو القطر الذي ليس له في الحسن مثال، ونسل الخطب إليه من كل حدب وانثال. وكل ذلك من اختلاف رؤسائه وكبرائه،ومقدميه وقضاته وأمرائه ووزرائه، فكلٌ يروم الرئاسة لنفسه، والنصارى يضربون بينهم بالخداع والمكر والكيد، حتى تمكنوا من أخذ البلاد .

ومَن استقرأ التواريخ ، علم أن النصارى لم يدركوا في المسلمين ثأراً ، ولم يدحضوا عن أنفسهم عاراً ، ولم يخربوا من الجزيرة منازل ودياراً ، ولم يستولوا عليها بلاداً جامعة وأمصاراً ، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف ، واجتهادهم في وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف ، وتضريبهم بالمكر والخديعة بين ملوك الجزيرة ، وتحريشهم بالكيد والخلابة بين حُماتها في الفتن المُبيرة ، وتطاولت الأيام بين مهادنة ومقاطعة، ومضاربة ومقارعة ، ومنازلة ومنازعة ، وموافقة وممانعة ، ومحاربة وموادعة ، ولا أمل للطاغية إلا في

التمرس بالاسلام والمسلمين ، وإعمال الحيـــلة على المؤمنين ، وإضمار المكيدة للموحدين ، واستبطان الخديعة للمجاهدين . وهو يظهر أنه ساعٍ للوطن في العاقبة الحسنى، وأنه مُنطوٍ لأهله على المقصد الأسنى، ومهتم بمراعاة أمورهم، وناظر بنظر المصلحة لخاصتهم وجمهورهم ، وهو يسرحسوا في ارتغانه ، ويعمل الحيلة في التماس هلك الوطن وابتغائه » [١] .

١ – الوضع العام على جبهة المسلمين

أظهرت معركة العقـــاب ضعف مسلمي الأندلس ، وأزالت هيمنة حكم الموحدين ، فأعلن محمد بن يوسف بن هود الجذامي ثورته وانضمّ إليه العرب ، ثم انشقّ عن ابن هود أيضاً محمـــد بن يوسف بن نصر المعروف (بابن الأحمر) وتلقّب محمد هذا بالشيخ ، وتحوّل الصراع من صراع بين الفرنج والمسلمين إلى صراع بين المسلمين بعضهم ضد بعض . وكان ابن هود يخطب للخليفة العباسي خليفة المسلمين ببغداد ، ثم حصلت لابن هود وأعقابه حروب وخطوب ، إلى أن كان آخرهم الواثق بن المتوكل ، فضايقه ألفونسو حاكم قشتالة وأمير برشلونة ، فبعث بالطاعة لابن الأحمر [٢] .

وحدثت خلال ذلك صراعات مريرة ، فقد ثار باشبيلية أبو مروان الباجي عند خروج ابن هود منها وتوجهه إلى مرسية ، فتدخّل محمد بن الأحمر بالصلح على أن يزوّجه ابنته ، فأطاعه ودخل اشبيلية سنة ٦٣٢ هـ = ١٢٣٤م، ثم فتك بابن الباجي وقتله، وعاد ابن هود إلى اشبيلية وأخرج منها ابن الأحمر، ثم تغلب على غرناطة سنة ٦٣٥ هـ = ١٢٣٧م ، وذلك بمساعدة أهلها ، فانتقل إليها وابتنى

---

(١) نفح الطيب – المقري – ٤ / ٤٤٦ و ٥٠٨ .

(٢) ابن الأحمر – هو مؤسس مملكة بني الأحمر – آخر ملوك الأندلس – أصلهم من أرجونة من حصون قرطبة ، ولهم فيها سلف من أبناء الجند ، ويعرفون ببني نصر ، وينتسبون إلى سعد ابن عبادة سيد الخزرج .

بها حصن الحمراء لنزوله . ثم تغلب على مالقة ثم تنـاول المرية من يد ابن الرميمي وزير إبن هود الثائر بها سنة ٦٤٣ هـ - ١٢٤٥ م ، ثم بايعـه أهل لورقة سنة ٦٦٣ هـ - ١٢٦٤ م .

وكان ابن الأحمر أول أمره قـد أظهر تعاونـاً مع الطاغية (ملك قشتالة) فنافسه ابن هود في التقرب وأعطى الطاغية ثلاثين حصناً في كف غربة بسبب ابن الأحمر ، وليعينه على ملك قرطبة فتسلمها،ثم تغلب على قرطبة سنة ٦٣٣هـ. واستولى بعد ذلك على اشبيلية سنة ٦٤٦ هـ واغتنم الفرنج الفرصة بـافتراق الكلمة فاستولوا على كثير مما بقي بأيدي المسلمين من البلاد والحصون . ولم يزل (الطاغية) يقتطع ممالك المسلمين كورة كورة وثغراً ثغراً إلى أن لجـأ المسلمون إلى سيف البحر مـا بين رندة من الغرب والبيرة من شرق الاندلس أي نحو عشر مراحل من الغرب إلى الشرق ، وفي قـدر مرحلة أو دونها في العرض ما بين البحر والجوف، ثم سخط ابن الاحمر، وطمع في الاستيلاء على سائر الجزيرة فامتنعت عليه .

وفي تلـك الفترة كانت دولة « بني مرين » في عدوة المغرب تتزايد قوة على حساب ضعف « دولة الموحـدين » . وفي سنة ٦٦٨ هـ = ١٢٦٩ م ، تمت تصفية دولة الموحدين نهائياً في المغرب ، وتوطدت السلطة لبني مرين فانتصر بهم أهل الأندلس على الافرنج الذين تـكالبوا عليهم ، وتـلاحق بالأندلس الغزاة من بني مرين وغيرهم، وعقد ملك المغرب يعقوب بن عبد الحق لنحو الثلاثة آلاف منهم فأجازوا في حدود الستين والستمائة. وتقبل ابن الأحمر إجازتهم ودفع بهم في نحر عدوه ، ورجعوا وتناسلوا،ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك الشيخ ابن الأحمر في سنة ٦٨١ هـ - ١٢٧٢ م وولي بعده ابنه محمد الفقيه ، وأوصاه باستصراخ بني مرين ملوك المغرب إن داهمه أمر من الفرنج .

وفي سنة ٦٧٢ هـ = ١٢٧٣ تعرض محمد الفقيه لعدوان من الفرنج فأرسل إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق (سلطان فاس والمغرب) فلبى يعقوب النداء ،

وأرسل ابنه وعساكره معه ، ثم قام السلطان ذاته بالعبور إلى الأندلس ، وتسلم الجزيرة الخضراء من ثائر كان بها وجعلها قاعدة لجهاده، ونزل إليه ابن الأحمر عن طريف وما إليها من الحصون . وهزم هو وابن الأحمر الفرنج أشد هزيمة حتى قال بعضهم: «ما نصر المسلمون من العقاب حتى دخل يعقوب المريني» وفتك في بعض غزواته بملك النصارى دوننه (أو ـ دون نينو)[1] ويقال إنه قتل من جيشه أربعين ألفاً وهزمهم أشد هزيمة .

ثم تتابعت غزواته بالأندلس ، وبث بعوثه وسراياه في أرض النصرانية ، وكان له من بلاد الأندلس رندة والجزيرة الخضراء وطريف وجبل طارق وغير ذلك . ولما مات ولي بعده ابنه يوسف بن يعقوب ، ففر إليه ألفونسو ملك النصارى لائذاً به وقبل يده ورهن عنده تاجه فأعانه على استرجاع ملكه . ولم يزل ملوك بني مرين يعينون أهل الأندلس بالمال والرجال ، وتركوا منهم حصة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غزاة ، فكانت لهم وقائع في العدو مذكورة ومواقف مشكورة. وكان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغرناطة وعليهم رئيس من بيت ملك بني مرين يسمونه «شيخ الغزاة» .

٢ – يوم في الحمراء

تولى دون بطره «دون بدرو»[2] قيادة الصراع ضد المسلمين بعد أن عمل المسلمون في المشرق على تحرير عكا وإخراج الصليبيين من بلاد الشام منذ ثلاثين عاماً تقريباً . وأمكن لدون بدرو حشد جيش لا يحصى فسار إلى الجنوب ومعه خمسة وعشرون ملكاً. فقلق المسلمون بغرناطة وغيرها. وعزموا على الاستنجاد بالمريني (أبي سعيد صاحب فاس) وأرسلوا إليه الوفود يستنجدونه ، ولكن

---

(١) – دوننه : Don – Nuno

(٢) دون – بدرو : Don – Pedro

سلطان المغرب لم يستجب لنداء الأندلسيين الذين أظهروا في تلك الفترة تصميماً على الجهاد وإرادة صلبة للقتال.

وكان السلطان إذ ذاك بالأندلس (**الغالب بالله أبو الوليد اسماعيل ابن الرئيس أبي سعيد فرج بن نصر المعروف بابن الأحمر**) وقد رغب أن يحصن البلاد والثغور ، فلما بلغ النصارى ذلك عزموا على منازلة الجزيرة الخضراء ، فانتدب السلطان ابن الأحمر لردّهم ، وجهّز الأساطيل والرجال، فلما رأوا ذلك اجتمعوا في طليطلة ، وعزموا على استئصال بلاد المسلمين ، وتأهبوا لذلك غاية الأهبة ، ووصلت الأثقال والمجانيق وآلات الحصار والأقوات في المراكب ، ووصل العدو إلى غرناطة ، وامتلأت الأرض بهم ، فتقدم السلطان إلى شيخ الغزاة (**الشيخ العالم أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء المريني**) بالخروج إلى لقائهم بأنجاد المسلمين وشجعانهم ، فخرج إليهم يوم الخميس الموافي ٢٠ ربيع الأول سنة ٧١٩ هـ = ١٣١٩ م .

ولما كانت ليلة الأحد أغارت سرية من العدو على ضيعة من المسلمين ، **فخرجت إليهم جماعة من فرسان الأندلس الرماة فقطعوهم عن الجيش ، وفرّت تلك السرية أمامهم إلى جهة سلطانهم ، فتبعهم المسلمون إلى الصبح ، فاستأصلوهم** ، وكان هذا أول النصر .

ولما كان يوم الأحد، ركب الشيخ أبو سعيد لقتال العدو **في خمسة آلاف** من أبطال المسلمين المشهورين،فلما شاهدهم الفرنج عجبوا من إقدامهم مع قلّتهم في تلك الجيوش العظيمة ، فركبوا وحملوا بجملتهم عليهم ، فانهزم الفرنج أقبح هزيمة ، وأخذتهم السيوف ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام .

وخرج أهل غرناطة لجمع الأموال وأخذ الأسرى ، فاستولوا على أموال عظيمة ، منها من الذهب – فيما يقال – ثلاثة وأربعون قنطاراً ، ومن الفضة مائة وأربعون قنطاراً ، ومن السبي سبعة آلاف نفس . وكان من جملة الأسرى امرأة الطاغية دون بدرو وأولاده، فبذلت فدية عن نفسها مدينة طريف وجبل

الفتح – اللذين سبق للفرنج احتلالهما قبل هذه المعركة – بالإضافة إلى ثمانية عشر حصناً، فلم يقبل المسلمون ذلك، **وزادت عدة القتلى في هذه المعركة على خمسين ألفاً**. ويقال : إنه هلك منهم بالوادي مثل هذا العدد لعدم معرفتهم بالطريق . وأما الذين هلكوا بالجبال والشعاب فلا يحصون. **وقتل الملوك الخمسة والعشرون جميعهم**، واستمر البيع في الأسرى والأسلاب والدواب ستة أشهر .

ووردت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر بلاد المسلمين . ومن العجب أنه **لم يقتل من المسلمين والأجناد سوى ثلاثة عشر فارساً** – مع العلم أن مجموع قوة المسلمين لم تتجاوز ألف وخمسمائة فارس والرجالة نحواً من أربعة آلاف راجل (فالمجموع ٥٥٠٠ – مقاتل) وسُلخ دون بدرو وحشي جلده قطناً وعلق على باب غرناطة وبقي معلقاً سنوات، وطلبت النصارى الهدنة فعقدت لهم بعد أن ملكوا جبل الفتح الذي كان من أعمال سلطان فاس والمغرب (وهو جبل طارق) ولم يزل بأيديهم إلى أن ارتجعه أمير المسلمين (أبو الحسن المريني صاحب فاس والمغرب) وتابع بطل المعركة (شيخ الغزاة) جهاده حتى مات سنة ٧٣٠هـ=١٣٢٩م وله من العمر ٨٨ سنة [١] .

---

(١) اتفق بنو الأحمر سلاطين غرناطة أن يجعلوا مشيخة الغزاة لواحد يكون من أقارب بني مرين سلاطين المغرب لأنهم أول من ولي الأندلس عند استيلاء بني عمهم على ملك المغرب لما بينهم من المنافسة . وكان لهؤلاء في الجهاد مواقف مشهورة، ومن ذلك ما كتب على قبر شيخ الغزاة عثمان ابن أبي العلاء والذي يبرز نموذج البطولات التي تجلت خلال تلك الفترة من حياة الأندلس، ونظراً لطول ما كتب على قبر شيخ الغزاة، فإنه بالإمكان انتقاء بعضه وفيه: « هذا قبر شيخ الغزاة عثمان ابن أبي العلاء، شيخ الحماة وصدر الأبطال الكماة وإمـــام الصفوف القائم بباب الجنة تحت ظلال السيوف، سيف الجهاد وقاصم الأعاد وأسد الآساد المرحوم أبي سعيد عثمان ابن الشيخ الجليل المرحوم أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق، كان عمره ثمانياً وثمانين سنة، أنفقه ما بين روحة في سبيل الله وغدوة حتى استوفى في المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة، وقطع عمره مجاهداً مجتهداً في طاعة الرب محتسباً في إدارة الحرب ماضي العزائم في جهاد الكفار مصادماً بين جموعهم تدفق التيار . وضع الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار ما سار ذكره في الأقطار حتى توفي رحمه الله وغبار الجهاد طي أثوابه، وهو مراقب لطاغية الكفار وأحزابه، فمات على ما عاش=

٣ - استعادة جبل الفتح وتحصينه

كان جبل طارق (أو جبل الفتح) هو مركز الثقل وحلقة الإتصال بين أندلس المسلمين والمغرب الإسلامي ، ولهذا فقد ركز نصارى الشمال جهدهم للاستيلاء عليه مما يساعدهم على قطع الإمدادات وإيقاف الدعم ، وكان الاستيلاء على جبل الفتح هو الذي استثار المسلمين لمعركة « يوم غرناطة » فلما تحقق ذلك الانتصار الرائع عمل أبو الحسن المريني (صاحب فاس والمغرب) على استرجاعه : « فأنفق عليه الأموال ، وصرف إليه الجنود والحشود ، ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه ، وضيقوا به — إلى أن استرجعوه ليد المسلمين . **واهتم ببنائه وتحصينه ، وأنفق عليه أحمال مال في بنائه وحصنه وسوره وأبراجه وجامعه ودوره ومخازنه ، ولما كاد يتم ذلك نازله العدو براً وبحراً . فصبر المسلمون وخيب الله سعي الكافرين .** فأراد السلطان المذكور أن يحصن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدو في منازلته ، ولا يجد سبيلاً للتضييق عند محاصرته ، ورأى الناس ذلك من المحال ، فأنفق الأموال ، وأنصف العمال ، فأحاط بمجموعه إحاطة الهالة بالهلال ، وكان بقاء هذا الجبل بيد العدو نيفاً وعشرين سنة ، وحاصره السلطان أبو الحسن ستة أشهر ، وزاد في تحصينه ابنه السلطان أبو عنان . وأدرك السلطان أبو الحسن أهمية القدرة البحرية لضمان الاتصال ما بين المغرب الإسلامي والأندلس ، **فأمر بانشاء الاساطيل الكثيرة برسم الجهاد بالاندلس واهتم بذلك غاية الاهتمام** » .

وأعاد الافرنج عدوانهم ، وجمعوا جموعاً كثيرة برسم الاستيلاء على ما بقي للمسلمين بالأندلس . فاستنفر أهل الأندلس السلطان أبا الحسن المذكور ، فجاء

= عليه، وفي ملحمة الجهاد قبضه الله تعالى إليه، واستأثر به سعيداً مرتضى، وسيفه على رأس ملك الروم منتضى ، فارتجت الأندلس لبعده - توفي يوم الأحد الثاني لذي الحجة من عام ثلاثين وسبعمائة » . نفح الطيب — المقري ١/٤٥٢ - ٤٥٣

بنفسه إلى سبتة فرضة المجاز ومحل أساطيل المسلمين، فإذا بالافرفج جاءوا بالسفن التي لا تحصى ومنعوه العبور وإغاثة أهل الأندلس وأنكوه في مراكبه أعظم نكاية واستولوا على كثير من تلك المراكب . وفي البر دارت معركة قاسية خاضها المسلمون بقيادة ابن الأحمر وانتصر الفرنج في معركة طريف واستولوا على الجزيرة الخضراء .

وعلى أثر ذلك كتب السلطان أبي الحسن المريني رسالة إلى الملك الصالح محمد ابن قلاوون سنة ٧٤٥ هـ = ١٣٤٤ م يشرح له فيها الموقف الخطير الذي وصل إليه الموقف في الأندلس وبقي جبل طريف في قبضة الفرنج إلى أن استطاع محمد – من بني الأحمر – (والذي كان لسان الدين بن الخطيب وزيراً له) استعادة الجبل وجملة بلاد كجيان [١] .

---

(١) جاء في رسالة أبي الحسن المريني إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون – وهي رسالة طويلة منها – : « وبحسب المصافاة ومقتضى الموالاة نشرح لكم المتزايدات بهذه الجهات؛ وننبئكم بموجب إبطاء هذا الخطاب على ذلكم الجناب : وذلك أنه لما وصلنا من الأندلس الصريخ ، ونادى مناد للجهاد عزماً لمثل ندائه يصيح : أنبأنا أن الكفار قد جمعوا أحزابهم من كل صوب، وحتم عليهم – باباهم – اللعين التناصر من كل أوب ، وأن تقصد طوائفهم البلاد الأندلسية بإيجافها ، وتنقص بالمنازلة أرضها من أطرافها ، ليمحوا كلمة الإسلام منها ويقلصوا ظل الايمان عنها ، فقدمنا من يشتغل بالأساطيل من القواد ، وسرنا على إثرهم إلى سبتة منتهى المغرب الأقصى وباب الجهاد ، فما وصلناها إلا وقد أخذه العدو الكفور ، وسدت أجفان الطواغيت على التعاون مجاز العبور ، وأتوا من أجفانهم بما لا يحصى عدداً . وأرصدوها بمجمع البحر حيث المجاز إلى دفع العدا ، وتقلصوا عن الانبساط في البلاد، واجتمعوا إلى الجزيرة الخضراء . . وجعلت أجفاننا ـ سفننا ـ تتردد في ميناء السواحل ، حتى تلف منها سبع وستون قطعة غزوية ... وقد كان من مددنا بالجزيرة جيش شريت شرارته ، وقويت في الحرب إدارته ، يبلون البلاء الأصدق ، ولا يبالون بالعدو وهم منه كالشامة البيضاء في البعير الأورق . إلا أن المطاولة بحصرها في البحر مدة ثلاثة أعوام ونصف ومنازلتها في البر نحو عامين معقوداً عليها الصف بالصف ، أدت إلى فناء الأقوات بالبلد حتى لم يبق لأهله قوت نصف شهر مع انقطاع المدد ، وبه من الخلق ما يربي على عشرة آلاف دون الحرم والولد . فكتب إلينا سلطان الأندلس يرغب في الاذن له في عقد الصلح – فأذنا له فتم الصلح إلى عشر سنين » .

(نفح الطيب – المقري ٣٨٦/٤ – ٣٩٤)

٤ – ملوك بني الاحمر

لما أخذت قواعد الأندلس مثل قرطبة واشبيلية وطليطلة ومرسية وغيرها، انحاز أهل الإسلام إلى غرناطة والمرية ومالقة ونحوها ، وضاق الملك بعد اتساعه وصار تنين العدو يلتقم كل وقت بلداً أو حصناً ، ويهصر من روح تلك البلاد غصناً ، وملك هذا النزر اليسير الباقي من الجزيرة ملوك بني الأحمر، فلم يزالوا مع العدو في تعب وممارسة ، وربما أثخنوا في الكفار كما علم في أخبارهم ، وانتصروا بملوك فاس (بني مرين) في بعض الأحايين .

ولما قصد ملوك الافرنج السبعة (في سنة ٨٠٠ هـ = ١٣٩٧ م) غرناطة ليأخذوها اتفق أهلها على أن يبعثوا لصاحب المغرب من بني مرين يستنجدونه، وعينوا للرسالة الشيخ أبا إسحاق بن أبي العاصي والشيخ أبا عبد الله الطنجالي والشيخ ابن الزيات البلشي ، ثم بعد سفرهم نازل الإفرنج غرناطة بخمسة وثلاثين ألف فارس ونحو مائة ألف راجل مقاتل،ولم يوافقهم سلطان المغرب أو يدعمهم، إلا أن ذلك لم يفت من ساعد المسلمين الذين خاضوا معركة قاسية وانتصروا فيها على جيوش الفرنج .

ثم إن بني الأحمر ملوك الأندلس الباقية بعد استيلاء الكفار على الجبل كانوا في جهاد وجلاد في غالب أوقاتهم، ولم يزل ذلك شأنهم حتى أدرك دولتهم الهرم، فلما كان زمان السلطان أبي الحسن علي بن سعد النصري الغالبي الأحمري ، واجتمعت الكلمة عليه بعد أن كان أخوه أبو عبدالله محمدبن سعد (المدعو بالزغل) قد بويع بمالقة بعد أن جاء بـه القواد من عند النصارى ، وبقي بمالقة برهة من الزمان ثم ذهب ألى أخيه ، وبقي مَن بمالقة من القواد والرؤساء فوضى ، وآل الحال إلى أن قامت مالقة بدعوة السلطان أبي الحسن وانقضت الفتنة .

واستقل السلطان أبو الحسن بملك ما بقي بيد المسلمين من بلاد الأندلس ، وجاهد المشركين وافتتح عدة أماكن ، ولاحت له بارقة الكرة على العدو الكافر

وخافوه ، وطلبوا هدنته ، وكثرت جيوشه ، فأجمع على عرضها كلها بين يديه ، وأعد لذلك مجلساً أقيم له بناؤه خارج الحمراء قلعة غرناطة . وكان ابتداء هذا العرض يوم الثلاثاء ٩ ذي الحجة سنة ٨٨٢ هـ = ١٤٧٧ م ولم تزل الجنود تعرض عليه كل يوم إلى الثاني والعشرين من محرم سنة ٨٨٣ هـ (أي لمدة شهر ونصف تقريباً) حيث تم اختتام العرض [١] .

وكان بين رؤساء الفرنج في ذلك الوقت اختلاف ، فبعضهم استقل بملك قرطبة ، وبعض باشبيلية وبعض بشريش ، وعلى ذلك كان صاحب غرناطة السلطان أبو الحسن قد استرسل في اللذات وركن إلى **الراحات وأضاع الاجناد وأسند الامر إلى بعض وزرائه واحتجب عن الناس ، ورفض الجهاد والنظر في الملك . وكثرت المغارم والمظالم ، فأنكر الخاصة والعامة ذلك منه ، وكان أيضاً قد قتل كبار القواد وهو يظن أن النصارى لا يغزون بعد البلاد ولا تنقضي بينهم الفتنة ولا ينقطع الفساد .**

واتفق أن صاحب قشتالة تغلب على بلادها بعد حروب وانقاد له رؤساء الشرك المخالفون [٢] . ووجدت النصارى السبيل إلى الإفساد ، والطريق إلى

---

(١) لقد رافق هذا العرض، كثير من الأعمال المنافية للدين ، مما أثار حفيظة المسلمين، ويذكر المقري في نفح الطيب ٤/٥١١ - ٥١٢ تعليقاً على ذلك ما يلي: «كان معظم المتنزهين والمتفرجين بالسبيكة وما قارب ذلك ، فبعث الله تعالى سيلاً عرماً على وادي حدره بحجارة وماء غزير كأفواه القرب، عقاباً من الله سبحانه وتأديباً لهم لمجاهرتهم بالفسق والمنكر، واحتمل -جرف- الوادي ما على حافتيه من المدينة من حوانيت ودور ومعاصر وفنادق وأسوار وقناطر وحدائق وبلغ تيار السيل إلى رحبة الجامع الأعظم ، ولم يسمع بمثل هذا السيل في تلك البلاد » .

(٢) « كان فرديناند الثاني ملك قشتالة قد قضى على استقلال الامارات التي تم انتزاعها من المسلمين مثل قرطبة وأشبيلية وغيرها ووحد الأندلس، كما كان قد تزوج الملكة ايزابيل الكاثوليكية ملكة أرغون، مما زاد من قدرة الملكة ايزابيل التي دفعت زوجها في سنة ٨٨٤ هـ = ١٤٧٩ م للقضاء على بني الأحمر نهائياً وتخرج المسلمين جميعاً من أرض الأندلس . وكان في الشقاق المتصل الذي شتت شمل هذه السلالة الاسلامية ما ساعد ايزابيل على انفاذ عزمها ذاك. فقد ثار =

الاستيلاء على البلاد ، ذلك أنه كان للسلطان أبي الحسن ولدان محمد ويوسف وهما من بنت عمه السلطان أبي عبد الله الأيسر ، وكان قد اصطفى على امهما رومية كان لها منه بعض ذرية ، وكانت حظية عنده مقدمة في كل قضية ، فخيف أن يقدم أولاد الرومية على أولاد بنت عمه السنية ، وحدث بين خدام الدولة التنافر والتعصب لميل بعضهم إلى أولاد الحرة ، وبعض إلى أولاد الرومية .

وكان النصارى أيام الفتنة بينهم هادنوا السلطان لأمدٍ حدّدوه وضربوه. ولما تمّ أمدُ الصلح وافق وقته هذا الشأن بين أولياء الدولة بسبب الاولاد ، وتشكى الناس مع ذلك بالوزير والعمال لسوء ما عاملوا به الناس من الحيف والجور ، فلم يصغ إليهم ، وكثر الخلاف واشتد الخطب وطلب الناس تأخير الوزير ، وتفاقم الامر ، وصح عند النصارى ضعف الدولة واختلاف القلوب، فبادروا إلى الحامة (الحمه) فأخذوها غدراً آخر أيام الصلح على يد صاحب قادس سنة ٨٨٧ هـ = ١٤٨٢ م .

وغدوا للقلعة وتحصنوا بهـا ، ثم شرعوا في أخذ البلد ، فملأوا الطرق خيلاً ورجالاً. وبذلوا السيف فيمن ظهر من المسلمين ونهبوا الحريم والناس في غفلة نيام من غير استعداد كالسكارى، فقتل من قتل وهرب البعض وترك أولاده وحريمه، واحتوى العدو على البلد بما فيه [1] .

=على (أبي الحسن علي) آخر أمراء غرناطة كل من ولديه أبي عبدالله محمد وأبي الحجاج يوسف. وفي هذا الصراع الذي نجح أبو عبد الله في ختامه إلى احتلال غرناطة . تدخل فرديناند زوج ايزابيل بلباقة ودهاء ، وبعد ان انتزع من العرب بعض المدن الصغرى التي دافعوا عنها أحياناً في شجاعة بالغة استسلمت له غرناطة أثر حصار متطاول في ٢ كانون الثاني – يناير – سنة ١٤٩٢ م » (تاريخ الشعوب الاسلامية – كارل بروكلمان – ٣٤٣) .

(١) عندما علم أهل غرناطة بهجوم الفرنج على (الحمة) خرج عامتهم وخاصتهم. وكان النصارى عشرة آلاف بين ماش وفارس . وكانوا عازمين على الخروج بما غنموه ، وإذا بالسرعان من أهل غرناطة وصلوا فرجع العدو إلى البلد فحاصرهم المسلمون وشددوا في ذلك ، ثم تكاثر المسلمون =

وفي سنة ٨٨٧ هـ = ١٤٨٢ م أيضاً ، تواترت الأخبـــار أن صاحب قشتالة – فرديناند الثاني – أتى في جنود لا تحصى ولا تحصر. فاجتمع الناس بغرناطة، وتكلموا في ذلك، وإذا به قصد لوشة ونازلها قصداً أن يضيفها إلى (الحمه) وجاء بالعدة والعدد ، وأغارت على النصارى جملة من المسلمين، فقتلوا من لحقوه، وأخذوا جملة من المدافع الكبار ، ثم جاءت جماعة أخرى من أهـــل غرناطة وناوشوا النصارى ، فألجؤوهم إلى الخروج عن الخيـــام . وأخذوها وغيرها ، فهرب النصارى وتركوا طعاماً كثيرة وآلة ثقيلة .

وفي هـذا اليوم ذاته (يوم ٢٧ جمادى الاولى ٨٨٧ هـ) هرب الاميران أبو عبدالله محمد وأبو الحجاج يوسف خوفاً من أبيهما أن يفتك بهما بإشارة حظيته الرومية (ثُريا) واستقرا بوادي آش . وقامت بدعوتهما ، ثم بايعتهما تلك البلاد المرية وبسطة وغرناطة وهرب أبوهما السلطان أبو الحسن إلى مالقا .

= خيلا ورجلا من جميع بلاد الأندلس ونازلوا الحمة، وتبين للعامة أن الجند لم يخلصوا في القتال، فأطلقوا ألسنتهم فيهم وفي الوزير وبينما هم كذلك ، إذا بالنذير جاء أن النصارى أقبلوا في جميع عظيم لاغاثة من بالحمة من النصارى، فأقلع جند المسلمين من الحمة ، وقصدوا ملاقاة الواردين من بلاد العدو ، ولما علم بهم العدو ، ولوا الأدبار من غير ملاقاة محتجين بقلتهم وكان رئيسهم صاحب قرطبة . ثم إن صاحب اشبيلية جمع جنداً عظيماً من جيش النصارى الفرسان والرجالة . وأتى لنصرة من في الحامة من النصارى. وعندما صح هذا عند العسكر اجتمعوا ، وأشاعوا عند الناس أنهم خرجوا بغير زاد ولا استعداد ، والصلاح الرجوع إلى غرناطة ليستعد الناس ويأخذوا ما يحتاج إليه الحصار من العدة والعدد . فعندما أقلع المسلمون عنها دخلتها النصارى الواردون . وتشاوروا في إخلائها أو سكناها . واتفقوا على الاقامة بها ، وحصنوها وجعلوا فيها جميع ما يحتاج إليه وانصرف صاحب اشبيلية ، وترك أجناده وفرق فيهم الأموال ، ثم عاد المسلمون لحصارها ، وضيقوا عليها ، وطمعوا فيها من جهة موضع كان النصارى في غفلة عنه ، ودخل على النصارى جملة وافرة من المسلمين وخاب السعد بذلك بأن شعر بهم النصارى ، فعادوا عليهم . وتردى بعضهم من أعلى الجبل وقتل أكثرهم – وكانوا من أهل بسطة ووادي آش – فانقطع أمل الناس من الحمة ووقع الاياس من ردها » .

(المقري – نفح الطيب ٤ / ٥١٣)

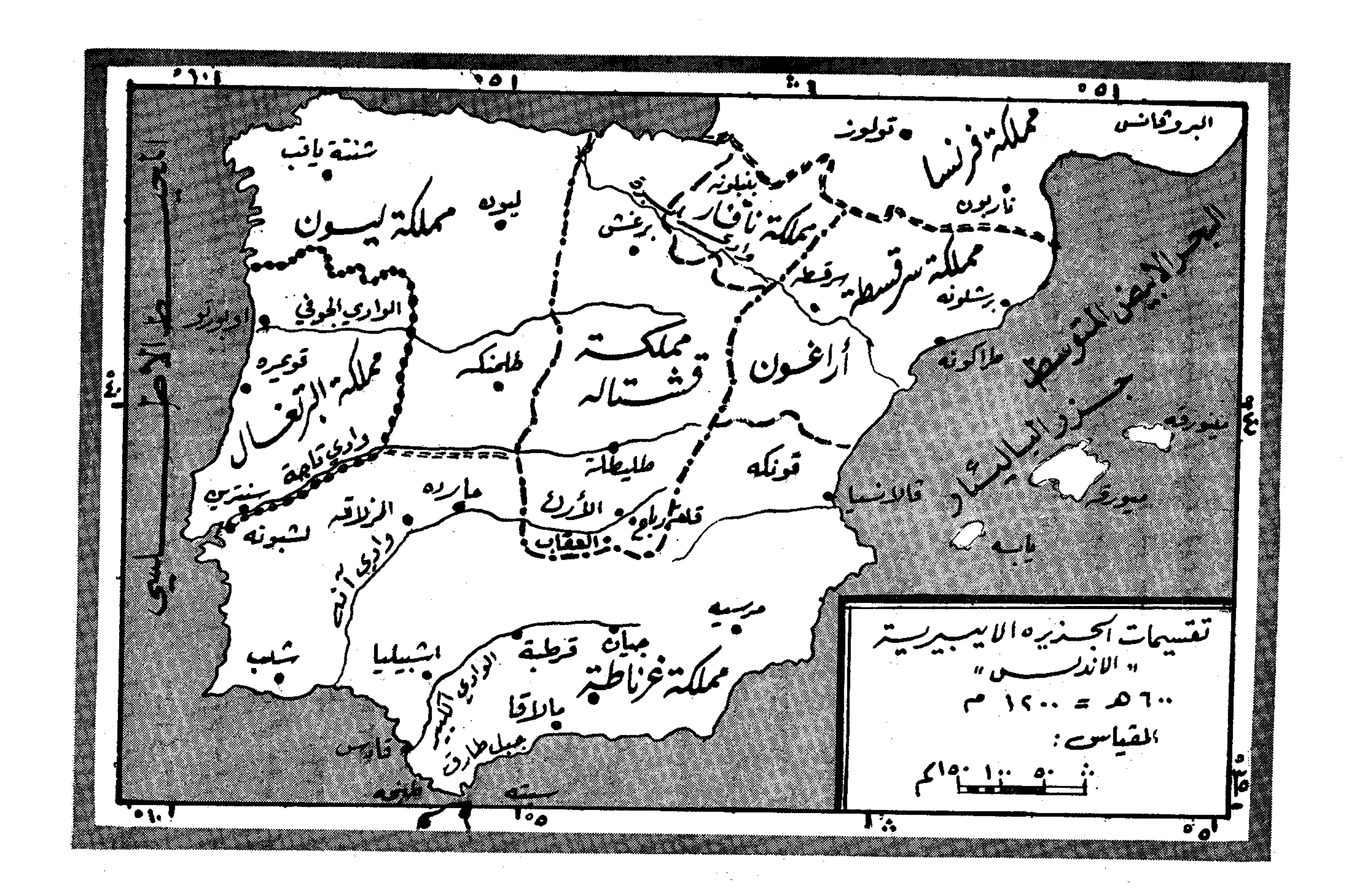
اجتمعت قوات الفرنج بعد ذلك في صفر سنة ٨٨٨ هـ = ١٤٨٣ م وقصدوا قرى مالقا وبلش في نحو الثمانية آلاف وفيهم حاكم اشبيلية وحاكم شريش وحاكم استجه وحاكم انتغيرة وغيرهم ، فلم يتمكنوا من أخذ حصن ونشبوا في أوعار ومضائق وخنادق وجبال . واجتمع عليهم أهل بلش ومالقا ، **وصار المسلمون ينالون منهم في كل محل حتى بلغوا مالقا، ففر كبيرهم، ومن بقي أسر أو قتل. وكان السلطان أبو الحسن في ذلك الوقت قد تحرك لنواحي المنكب [1] وبقي أخوه أبو عبدالله بمالقة ومعه بعض الجند وقتل من النصارى في هذه الوقعة نحو ثلاثة آلاف وأسر نحو ألفين ، من جملتها خال السلطان وحاكم اشبيلية وحاكم شريش وحاكم انتغيرة وغيرهم وهم نحو الثلاثين من الاكابر** ، وغنم المسلمون غنيمة وافرة من الأنفس والأموال والعدة والذهب والفضة ، وبعقب ذلك سافر أهل مالقا لبلاد النصارى فكسروا هنالك كسرة شنيعة قتل فيها أكثر قواد غرب الأندلس .

وعندما علم أبو عبد الله بأن عمه قد انتصر على النصارى بمالقا . قاد جيش غرناطة حتى وصل نواحي لشانة فتجمع عليه النصارى ودمروا جيشه وأخذوه أسيراً إلى ملك قشتالة — فرديناند الثاني — وعندئذٍ استقل أبو عبدالله المعروف بالزغل بالملك .

وفي سنة ٨٩٠ هـ = ١٤٨٥ م . خرج العدو في قوة إلى نواحي مالقا — بعد أن كان في السنة قبلها استولى على حصون — فاستولى هذه السنة على بعض

---

(١) قاد السلطان أبو الحسن قوات مالقا وقصد غرناطة لاسترجاعها ، وقاد ابنه السلطان أبو عبدالله جيش غرناطة والجهة الشرقية واصطدمت القوتان في ظاهر غرناطة (في موقع يقال له الدب) فكسر السلطان أبو عبد الله وانتصر عليه أبوه ، فما كان من أبو عبد الله إلا أن قاد قواته للقاء الفرنج حتى بلغ لشانه وقتل وأسر وغنم من الفرنج ، فتجمعت عليه النصارى من جميع تلك النواحي وحالوا بين المسلمين وبلادهم في جبال وأوعار فانكسر الجند وأسر من الناس كثير وقتل آخرون . وكان في جملة من أسر السلطان أبو عبدالله الذي حمل إلى ملك قشتالة .


تقسيمات الجزيره الايبيرية
" الاندلس "
٦٠٠ هـ = ١٢٠٠ م
المقياس :
٥٠ ١٠٠ ١٥٠ كم
المحيط الاطلسي
البحر الابيض المتوسط
جزر البليار
مملكة فرنسا
مملكة ليون
مملكة قشتاله
مملكة البرتغال
مملكة نافار
مملكة سرقسطة
أراغون
مملكة غرناطة
البروفانس
تولوز
ناربون
برشلونه
طراكونه
شنتة ياقب
ليون
برغش
بنبلونة
سرقسطة
الوادي الجوفي
اوبورتو
قلمرية
طلمنكه
طليطلة
قونكه
بلنسية
واد تاجة
سنترين
لشبونه
الزلاقة
ماردة
الأرك
قلعة رباح
العقاب
وادي آنة
مرسيه
جيان
قرطبة
اشبيليا
الوادي الكبير
بالاقا
شلب
قادس
جبل طارق
طنجة
سبته
ميورقة
منورقة
يابسه

الحصون وقصد ذكوان –ودخل ذكوان ألف مدرع عنوة– إلا أن أهل ذكوان قاتلوا بشجاعة حتى أبادوا قوات الأعداء، ثم طلبوا الأمان من القوات المحاصرة – وخرجوا – .

وانتقلت قوات الأعداء إلى رندة فاستولت عليها ودمرت حصونها . أما في غرناطة ، فقد تعرض أحد حصونها لهجوم ليلي مباغت ودارت معركة رهيبة وخرج المسلمون منتصرين بعد صراع مرير ، واستولى المسلمون على غنائم كثيرة وآلات وجعلوا ذلك كله بالحصن . وبعد فترة من الهدوء استمرت شهراً عاد النصارى للهجوم وأخذوا في الاستيلاء على الحصون المحيطة بغرناطة ، **فاحتلوا حصون قنبيل ومشاقر واللوز ، وضيق العدو ، بجميع بلاد المسلمين ، ولم يتوجه لناحية إلا استأصلها، ولا قصد جهة إلا أطاعته وحصلها، ثم ان العدو دبر الحيلة مع ما هو عليه من القوة ، فبعث إلى السلطان أبي عبدالله الذي تحت أسره وكساه ووعده بكل ما يتمناه ، وصرفه لشرقي بسطة ، وأعطاه المال والرجال ، ووعده أن من دخل تحت حكمه من المسلمين وبايعه من أهل البلاد فإنه في الهدنة والصلح والعهد والميثاق ، وخرج السلطان أبي عبد الله إلى بلش فدخلت في طاعته ، ونودي بالصلح في الأسواق ، وصرخت به في تلك البلاد الشياطين وسرى هذا الأمر حتى بلغ أرض البيازين – البانسين – من غرناطة، وتبعهم بعض المفسدين المحبين في تفريق كلمة المسلمين**[1] . وكان ذلك سبباً في استيلاء فرديناند على (لوشة) .

---

(١) حقق فرديناند الثاني ما يريده من ايقاع الفتنة بين المسلمين ويذكر المقري – في نفح الطيب – ٥١٧/٤ : «مال إلى الصلح عامة غرناطة لضعف الدولة، ووسوس للناس شياطين الفتنة وسماسرتها بتقبيح وتحسين ، إلى أن قام ربض البيازين – في ضواحي غرناطة – بدعوة السلطان الذي كان مأسوراً عند المشركين ، ووقعت فتنة عظيمة في غرناطة نفسها بين المسلمين . ورجموا البيازين بالحجارة من القلعة ، وعظم الخطب – واستمرت الثورة شهرين ونصف تقريباً (من ٣ ربيع الأول حتى منتصف جمادي الأولى سنة ٨٩٠ هـ = ١٤٨٥ م) وبلغ الخبر أن السلطان الذي قاموا بدعوته قدم على لوشة ودخلها على وجه رجاء الصلح بينه وبين عمه الزغل صاحب قلعة =

استراح فرديناند قليلاً حتى أعـاد تنظيم قواته ، ثم خرج إلى « البيرة » فهدّ بعض الأسوار ودمّرها ، وتوعد الناس فأعطاه أهله الحصن على الأمان فخرجوا وقدموا على غرناطة ، ثم فعل بحصن « المثلين » مثل ذلك ، وقاتلوا قتالاً شديداً ولما ضاقوا ذرعاً أعطوه بالمقادة على الأمان ، فخرجوا إلى غرناطة ، وأطاع أهل «قلنبيرة» من غير قتال، فخرجوا إلى غرناطة ، ثم وصل العدو إلى «منت فريد» فرمى عليها بالمحرقات وغيرها ، وأحرق دار العدة ، فطلبوا الأمان ، وخرجوا إلى غرناطة ، وانتقل للصخرة فأخذها ، وحصن هـذه الحصون كلها ، وشحنها بالرجال والعدة ، ورتب فيها الخيل لمحاصرة غرناطة ، ثم عـاد الكافر لبلاده ، وتعاهد مع السلطان الذي في أسره بـأن من دخل في حكمه وتحت أمره فهو في الأمان التام، وأشاعوا إن ذلك بسبب فتنة وقعت بينه وبين ملك فرنسا. وكان ذلك سبباً في تفاقم العداء بين البيازين والحمراء ، فعمل فرديناند على امداد زعيم البيازين بالرجال والعدة والمال والقمح والبارود وغيرها ، وعظمت أسباب الفتنة وفشا في الناس القتل والنهب .

ولم يزل الأمر كذلـك إلى يوم ٢٧ محرم سنة ٨٩٢ هـ = ١٤٨٧ م حيث عزم

= غرناطة ، بأن العم يكون له الملك ، وابن اخيه تحت إيالته بلوشة أو بأي المواضع أحب ، ويكونون يداً واحدة على أعداء الدين ، وبينما هم في هذا ، إذا بصاحب قشتالة – فرديناند – قد خرج بجند عظيم ومحلة قوية وعدد وعدد ، ونازل لوشة حيث السلطان أبو عبد الله الذي كان أسيراً – عنده – وضيق بها الحصار . وقد كان دخلها جماعة من أهل البيازين بنية الجهاد ولمعاضدة وليهم ، وخاف أهل غرناطة وسواها من أن يكون ذلك حيلة ، فلم يأت لنصرتهم غير البيازين ، واشتد عليهم الحصار ، وكثرت الأقاويل ، وصرحت الألسن بأن ذلك باتفاق بين السلطان المأسور وصاحب قشتالة . ودخل على أهل لوشة في ربضهم ، وخافوا من الاستئصال ، فطلبوا الأمان في أموالهم وأنفسهم وأهليهم ، فوفى لهم صاحب قشتالة بذلك . وأخـذ البلد – لوشة – يوم ٢٦ جمادي الأولى سنة ٨٩١ هـ = ١٤٨٦ م فصرح عند ذلك أهل غرناطة بأن السلطان ما جاء للوشة إلا ليدخل إليها العدو الكافر ، وإلا ما بقي معه في المدينة ، وقيل انه سرح له حينئذ ابنه إذ كان مرهوناً في الفداء . وكثر القيل والقال بينهم وبين أهل البيازين في ذلك . ثم رجع صاحب قشتالة إلى بلاده ومعه السلطان المذكور » .

أهل غرناطة على الدخول على البيازين عنوة وتكلم أهل العلم فيمن انتصر بالنصارى ووجوب مدافعته، ومن أطاعه عصى الله ورسوله. إلا أن أهل البيازين انتصروا على أهل غرناطة، فأرسل السلطان في غرناطة إلى الأجناد والقواد من أهل بسطة ووادي آش والمرية والمنكب وبلش ومالقا وجميع الأقطار فتجمعوا بغرناطة وتعاهدوا وتحالفوا على أن يدهم واحدة على أعداء الدين ونصرة من قصده العدو من المسلمين، وخاف زعيم البيازين، فبعث لصاحب قشتالة — فرديناند — فخرج هذا قاصداً نواحي بلش.

وكان زعيم البيازين قد بعث وزيره إلى ناحية مالقا وإلى حصن «المنشأة» يذكر ويخوف، ومعه النسخة من عقود الصلح، فقامت مالقا وحصن المنشأة بدعوته، ودخلوا في إيالته — حمايته — خوفاً من صاحب قشتالة وسطوته وطمعاً في الصلح وصحته، ثم اجتمع كبار مالقا مع أهل بلش وذكروا لهم سبب دخولهم في هذه الدعوة، فلم يرجع أهل بلش عما عاهدوا عليه أهل غرناطة وسائر الأندلس من العهود والمواثيق.

وخرج فرديناند وتوجه إلى بلش (في ربيع الثاني سنة ٨٩٢ هـ = ١٤٨٧ م) وعندما تقدمت قوات غرناطة وحشود البشرات وأهل وادي آش وغيرهم ووصلوا إلى «بلش» وعندئذٍ قامت ثورة في غرناطة واشيع انضمامها إلى «البيازين» فتمزقت قوات المسلمين ودخل فرديناند وقواته إلى بلش، **ثم انتقل إلى «مالقا» ونازلها براً وبحراً وقاتله أهلها قتالاً عظيماً بمدافعهم وعدتهم وخيلهم ورجلهم، وطال الحصار حتى أداروا على مالقا من البر الخنادق والسور — والأجفان أو السفن — من البحر، ومنع الداخل إليها، ولم يدخلها غير جماعة من المرابطين حال الحصار. وحاربوا حرباً شديدة، وقربوا المدافع ودخلوا الأرباض، وضيقوا عليهم بالحصار إلى أن فني ما عندهم من الطعام، فأكلوا المواشي والخيل والحمير، وبعثوا الكتب للعدوتين ـ المغرب الاسلامي ـ وهم طامعون في الاغاثة فلم يأت إليهم أحد، وأثر فيهم الجوع، وفشا في أهل**

نجدتهم القتل ، ولم يظهروا مع ذلك هلعاً ولا ضعفاً ، إلى أن ضعف حالهم ويئسوا من ناصر أو مغيث من البر والبحر ، فتكلموا مع النصارى في الأمان كما وقع بمن سواهم ، فعوتبوا على ما صدر منهم وما وقع من الجفاء ، وقيل لهم لما تحقق العدو التجاءهم : تؤمنون من الموت ، وتعطون مفتاح القلعة والحصن ، ويعاملكم السلطان إذا فعلتم معاملة جيدة . فلما تمكن العدو منهم أخذهم أسرى ، ولم يبق في تلك النواحي موضع إلا وملكه النصارى .

في سنة ٨٩٣ هـ = ١٤٨٨ م ، استولى القشتاليون على الشرقية وبلش ، واحتج المسلمون بالصلح ، فلم يلتفت إليهم . وأخذوا تلك البلاد كلها صلحاً ثم رجعوا لبلادهم .

في سنة ٨٩٤ هـ = ١٤٨٩ م ، خرج فرديناند لبعض حصون «بسطة» . وأسرعت قوات وادي آش والمرية والمنكب والبشرات لدعم اخوانهم المسلمين. ووقعت بينهم وبين النصارى حروب عظيمة ، حتى تقهقر العدو عن قرب بسطة . ومضت فترة ثلاثة أشهر من الاستعدادات قام فرديناند بعدها بتقريب المدافع والآلات من الأسوار حتى منع الداخل والخارج واشتد الحال ، وقل الطعام وجرت المفاوضات فتم عقد الصلح على أن يشمل بسطة ووادي آش والمرية والمنكب والبشرات . **(ودخل جميع هؤلاء في طاعة العدو على شروط شرطوها وأمور أظهروا بعضها للناس وبعضها مكتوم وقبض الخواص مالاً وحصلت لهم فوائد) .**

ودخل النصارى بسطة وملكوها ولم يعلم العوام كيفية ما وقع عليه الشرط والالتزام . وقالوا لهم : من بقي بموضعه فهو آمن ، ومن انصرف خرج بماله وسلاحه سالماً ، ثم أخرج العدو المسلمين من البلد . ثم ارتحل العدو « للمرية » وأطاعته جميع تلك البلاد . ولم يبق غير غرناطة وقراها. وصار كل وادي آش للنصارى في طرفة عين [1] .

---

(١) نظم فرديناند حصار غرناطة وعزلها ، فجعل في كل قلعة قائداً نصرانياً ، وإذا كان قائد من المسلمين من أصحاب هذه البلاد دفع لهم الكفار مالاً من عند صاحب قشتالة - فرديناند - =

وأرسل فرديناند إلى ملك غرناطة يعرض عليه الصلح ويغريه بمنحه ما يريد من الأموال. وخرج العدو لاستلام الحمراء وغرناطة (وهذا في سر بين السلطانيين) فجمع صاحب غرناطة الأعيان والكبراء والأجناد والفقهاء والخاصة والعامة وأخبرهم بما طلب منه العدو، وأن عمه أفسد عليه الصلح الذي كان بينه وبين صاحب قشتالة بدخوله تحت حكمه. إلى أن قال: «وليس لنا إلا إحدى خصلتين: الدخول تحت حمايته أو القتال» فاتفق الرأي على الجهاد والوفاء بما عقده من صلح.

ثم ان فرديناند - صاحب قشتالة - نزل على مرج غرناطة، وطلب من أهل غرناطة الدخول في طاعته وإلا أفسد عليهم زروعهم، فأعلنوا بالمخالفة، فأفسد الزرع. ووقعت بين المسلمين والعدو حروب كثيرة، ثم ارتحل العدو عند الإياس منهم ذلك الوقت، وهدم بعض الحصون، وأصلح برج همدان والملاحة، وشحنها بما ينبغي، ثم رجع إلى بلاده.

٥ - الأيام الأخيرة لغرناطة

ما ان ابتعد فرديناند بجنده إلى عاصمته في قشتالة، حتى قاد سلطان غرناطة «ابو عبدالله» جنده، فهاجم بعض الحصون التي استولى عليها فرديناند في هجومه الأخير ففتحها عنوة، وقتل قوات الحاميات المدافعة عنها، وأقام فيها حاميات من قوات المسلمين ورجع لغرناطة. ثم توجه بقوات إلى البشرات القريب من غرناطة فأخذ بعض القرى وهرب من بها من النصارى والمرتدين أصحابهم، ثم

= اكراماً منه لهم بزعمهم، فتباً لعقولهم، وما ذلك منه إلا توفير لرجاله وعدته. ودفع بالتي هي أحسن، ثم أخذ برج (الملاحة) وغيره، وبناه وحصنه، وشحن الجميع بالرجال والذخيرة، وأظهر الصحبة والصلح مع صاحب وادي آش. وأباح الكلام بالسوء في حق صاحب غرناطة مكراً منه وخداعاً ودهاء، ثم بعث في السنة نفسها رسلاً لصاحب غرناطة أن يمكنه من الحمراء، كما مكنه عمه من القلاع والحصون، ويكون تحت إيالته - حمايته - ويعطيه مالاً جزيلا على ذلك، وأي بلاد شاء من الأندلس، يكون فيها تحت حكمه.

هاجم حصن « أندرش » ففتحه وأطاعته منطقة جبل البشرات ، وقامت دعوة الإسلام بها وخرجوا عن ذمة النصارى .

ولما كان عم السلطان «أبو عبدالله محمد بن سعد» هناك ومعه قوة كبيرة، فقد توجه سلطان غرناطة لحربهم ، فانتقل عمه إلى المرية ، وأطاعت جميع البشرات حتى بَرْجَه سلطان غرناطة، ثم تحرك عمه مع النصارى إلى «أندرش» فأخذها وتوجه بعدها لقرية «همدان» وكان برجها العظيم مشحوناً بالرجال والعدة والطعام فحاصره أهل غرناطة ، ونصبوا عليه أنواعاً من الحرب ، ومات فيه خلق كثير منهم ، ونقبوا البرج الأول والثاني والثالث ، وألجؤوهم للبرج الكبير ، وهو القلعة ، فنقبوها ، ثم أسروا من كان بها ، وهم ثمانون ومائة ، واحتووا على ما هنالك من عدة وآلات حرب .

وقصد سلطان غرناطة بعد ذلك « شلوبانية » وأخذه عنوة بعد حصاره وامتنعت القلعة فتم تطويقها وحصارها ، إلا أن ورود معلومات عن توجه فرديناند إلى غرناطة ، اضطر قوات المسلمين لرفع الحصار، والتوجه إلى غرناطة حيث وصل بعد ذلك فرديناند ملك قشتالة ومعه المرتدون والمدجنون فعمل على هدم برج الملاحة وإخلائه مع برج آخر ثم توجه إلى وادي آش فأخرج المسلمين منها، ولم يبق بها مسلم في المدينة ولا الربض، وهدم قلعة أندرش وحاف على البلاد ، وجار على البلاد وظلم أهلها .

ولما رأى ذلك السلطان الزغل ، وهو أبو عبدالله محمد بن سعد عم سلطان غرناطة بادر بالجواز لبر العدوة، فجاز لوهران ثم لتلمسان واستقر بها ، ورجع فرديناند ملك قشتالة لأقاصي مملكته – على حدوده مع فرنسا – بسبب النزاع الذي نشب في تلك الفترة بين فرنسا وقشتالة . ثم تحرك ملك غرناطة فحاصر « برشانة » وأخذها وأسر من كان بها من النصارى .

جاءت المرحلة الحاسمة في الحرب طويلة الأمد . ففي ١٢ جمادى الآخرة ٨٩٦ هـ = ١٤٩١ م غادرت جيوش قشتالة قواعدها في الشمال ، حيث قادها

فرناندو إلى مرج غرناطة وأطلقها لإفساد الزرع وهدم القرى، وأمر ببناء موضع بالسور والحفير وأحكم بناءه . ولم ينصرف بعد ذلك كعادته ، وإنما ركز جهده على تنظيم الحصار ، وصار يضيق على غرناطة يوماً بعد يوم ، واستمر القتال المرير سبعة أشهر ، واشتد الحصار بالمسلمين ، وبقي هناك طريق بين غرناطة والبشرات يضمن لأهل غرناطة التموين بضرورات الحياة .

فلما جاء الشتاء وهبط الثلج انقطع الإمداد ، وقلّ الطعام واشتد الغلاء ، واستولى العدو على أكثر الأماكن خارج البلد ، ومضى العام وبدأ عام جديد ، فاجتمع الناس للتشاور ، وقالوا : انظروا في أنفسكم وتكلموا مع سلطانكم ، فأحضر السلطان أهل الدولة وأرباب المشورة ، وتكلموا في هذا المعنى ، وأن العدو يزداد مدده كل يوم ، ونحن لا مدد لنا ، وكان ظننا أنه يقلع عنا في فصل الشتاء ، فخاب الظن ، وبنى وأسّس وأقام وقرب منا ، فانظروا لأنفسكم وأولادكم . فاتفق الرأي على ارتكاب أخف الضررين .

وشاع أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الأجناد قبل ذلك في إسلام البلاد (تسليمها) خوفاً على نفوسهم وعلى الناس . ثم عدّدوا مطالب وشروطاً أرادوها ، وزادوا أشياء على ما كان في صلح وادي آش : منها أن صاحب روما (البابا) يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط ، إذا أمكنوه من حمراء غرناطة والمعاقل والحصون ، ويحلف على عادة النصارى في قطع العهود . وتكلم الناس في ذلك ، وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام في ذلك ، امتنّ عليهم النصارى بمال جزيل وذخائر ، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قُرئت على أهل غرناطة ، فانقادوا إليها ووافقوا عليها ، وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة ، فقبلها منهم ، ونزل سلطان غرناطة من الحمراء .

٦ – اتفاقية الصلح

استولى فرديناند على الحمراء ، واحتفظ بنحو خمسمائة من الأعيان رهائن

خوفاً من الغدر . وكانت شروط الصلح سبعة وستين ، منها : « تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال ، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم . ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ، ولا يحكم عليهم أحد إلا بشريعتهم . وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك ، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ، ولا يغصبوا أحداً ، وأن لا يولّى على المسلمين إلا مسلم ... وأن يفتكّ جميع مَن أسر في غرناطة من حيث كانوا ، وخصوصاً أعياناً نصّ عليهم ، ومَن هرب من أسرى المسلمين ودخل غرناطة فلا سبيل عليه لمالكه ولا سواه ، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه ، ومَن أراد الجواز للعدوة (المغرب) لا يمنع ، ويجوزون في مدة عُيّنت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ، ثم بعد تلك المدة يعطون عُشر مالهم والكراء ، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره ، وأن لا يُقهر مَن أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ، وأن مَن تنصّر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله ، ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى ، فإنْ أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد. ولا يعاقب على من قتل نصرانياً أيام الحرب ، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة . ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ، ولا يسفر لجهة من الجهات ، ولا يزيدون على المغارم المعتادة ، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة ، ولا يطلع نصراني للسور ، ولا يتطلع على دور المسلمين ، ولا يدخل مسجداً من مساجدهم . ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً على نفسه وماله ، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن ، ولا يمنع مؤذّن ولا مُصَلٍّ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ، ومَن ضحك منهم يُعاقَب ، ويُتركون من المغارم سنين معلومة . وأن يوافق على كل الشروط صاحب روما (البابا) ويضع خط يده ... وأمثال هذا مما تمّ تركه كثير »[1] .

دخلت قوات قشتالة قصر الحمراء يوم ٢ ربيع الأول سنة ٧٩٧هـ = ١٤٩٢م ،

---

(١) نفح الطيب - المقري - ٤ / ٥٢٦ .

وُعيّن فرديناند حاكماً للبلد والجهـــاز الإداري . ولما علم ذلك أهل البشرات دخلوا في هذا الصلح وشملهم حكمه على هذه الشروط . ثم أمر العدو ببنـاء ما يحتاج إليه في الحمراء وتحصينها وتجديد بنـاء قصورها وإصلاح سورها ، وصار فرديناند يتردد على الحمراء نهاراً ويبيت بمحلته ليلاً ، إلى أن اطمأنّ من خوف الغدر ، فدخل المدينة وتطوّف بها ، ثم أمر سلطان المسلمين أن ينتقل لسكنى البشرات ، وأنهـا تكون له ، فانصرف إليها وأخرج الأجناد منها . ثم احتال في ارتحاله لبرّ العدوة ، وأظهر أن ذلك طلبه منه المذكور ، فكتب لصاحب المرية : « أنه ساعة وصول كتابي هـــذا ، لا سبيل لأحد أن يمنع مولاي أبا عبدالله من السفر حيث أراد من برّ العُدوة ، ومَن وقف على هـذا الكتاب فليصرفه ، ويقف معه وفاءً بما عهد له ». فصرف في الحين بنصّ هذا الكتاب ، وركب البحر ، ونزل بمليلة ، واستوطن فاساً [1] .

ثم إن النصارى نكثوا العهـد ، ونقضوا الشروط عروة عروة ، إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصُّر سنة ٩٠٤ هـ = ١٤٩٨ م ، ولما فحش الأمر قام أهل البيازين (البائسين) على الحكام وقتلوهم ، فبدأت حمـــلة لإبادتهم ، إلا مَن تنصّر .

وامتنع قوم من التنصُّر واعتزلوا الناس ، فلم ينفعهم ذلك . وامتنعت قرى وأماكن كذلك ، منها بلفيق وأندرش وغيرهما ، فجمع لهم العـــدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبياً ، إلا ما كان من « جبل بللنقة » فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها حاكم قرطبة ، وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خفّ من مالهم دون الذخائر .

---

(١) ويذكر نسب السلطان المذكور الذي أُخذت على يده غرناطة وهو : أبو عبدالله محمد ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن الأمير علي ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغني بالله ابن السلطان أبي الحجـــاج يوسف ابن السلطان اسماعيل ـ قاتل سلطان النصارى دون بدرو ببرج غرناطة ـ ابن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن مضر بن قيس الأنصاري الخزرجي .

ثم بعد ذلك كله كان مَن أظهر التنصُّر من المسلمين يعبد الله خفيةً ويصلي ، فشدّد عليهم النصارى في البحث ، حتى أنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك. وتمّ إخراج بقـــايا المسلمين سنة ١٠١٧ هـ = ١٦٠٨ م ، وامّحى الإسلام من الأندلس بجهود محاكم التفتيش .

٧ – الدروس المستفادة

أ – النتائج السياسية

إنها سطور قليلة من ملحمة طويلة قـــد تصعب الإحاطة بها – وهي ملحمة تركت أخاديد عميقة لا يمكن محوها وهي تثير كلما تقادم الزمن عليها مزيداً من التساؤلات : ترى كيف سقطت غرناطة ؟ هـل هي الخيانة ؟ أم هو الانحلال ؟ أم هو الضعف والتخاذل ؟ أم هو التقصير ؟ ثم كيف امحى الإسلام بعـــد سبعة قرون من عمر الزمن ؟ وكيف تمزقت علاقـة المجتمع الذي أقامه المسلمون ؟ وأين هي جهود بني أمية ؟ وأين هي فتوحات موسى وطارق ؟ وأين هي غزوات الحاجب المنصور ؟.

لقد بقيت الاندلس شبه موحدة مدة ثلاثة قرون تقريباً . ثم بدأت الحملات الصليبية في الشرق والغرب في تواقت واحد .

ومن الملاحظ أن القدرة القتالية في المشرق والمغرب بقيت في مرحلة من التوازن، فعندما خاض صلاح الدين الأيوبي معركته الحاسمة في حطين كان يوسف ابن تاشفين والمعتمد بن عباد يخوضان معركة الزلاقة . ولكن ميزان القوى بـدأ في الاضطراب بعد ذلك . فقد استنزفت الحروب الصليبية في المشرق الاسلامي قدرة العرب المسلمين في المشرق ، كما استنزفت قدرة المسلمين من عرب وبربر على مسرح الأندلس .

ومن الملاحظ أن مرحلة الهجوم المضاد للمسلمين في الأندلس قـد أخذت في التسارع بعـــد انتهاء الحملات الصليبية في المشرق ، وبقي للمسلمين وجودهم في

الأندلس لمدة ٢٠٠ سنة بعد تحرير عكا واخراج الفرنج من بـلاد الشام ، فقد تم تحرير عكا سنة ١٢٩١ واحتل فرديناند غرناطة سنة ١٤٩٢ ، ولم يكن ذلك إلا بفضل المقاومة الضارية والروابط القوية والجـــذور العميقة التي كانت للمسلمين في الأندلس .

ولكن الحملات الصليبية عزلت الأندلس عن قاعدته في المغرب الاسلامي ، وأخذت في تفتيت المسلمين مادياً ومعنوياً بصورة بطيئة ، مـع تجريدهم بصورة مستمرة من مصادر قوتهم ، وبالرغم من ذلك كله فقد استمرت المقاومة الضارية قبل سقوط غرناطة وبعدها .

وبعـد ، فقد يكون التمزق بين أمراء المسلمين في جملة العوامل التي أضعفت قدرة المسلمين على الصمود والمقاومة ، وقـــد تكون حياة الترف والانغماس في الملذات قد أضعفت من إرادة القتال ، وقد يكون هنـاك مَن خان أو تخلى عن دينه وقومه . ولكن هذه كلها هي ظواهر لحالة الضعف وفقد التوازن في القوى والوسائط .

وعلى سبيل المثال ، فقد حدثت معركة الزلاقة وجاءت بعدها معركة الأرك ، وبالرغم من ذلك فإن أمراء المسلمين لم ينجحوا في إزالة قاعدة العدوان ، على نحو ما كان يفعله أمراء بني أمية حتى عهد الحاجب المنصور . ولا ريب أن الهجمات الصليبية على المشرق الإسلامي قد تركت لها انعكاسات قوية وحاسمة على صفحة صراع الأندلس ، ليس من الناحية المعنوية فحسب ، وإنما من الناحية المادية .

لقد سقطت الأندلس ، تلك هي حقيقة ثابتة . وليس بالمستطاع القول أنه لو توافر لها من دعم المشرق الإسلامي َلما سقطت ، أو لو تمكن المغرب الإسلامي من تقديم الدعم على نحو ما كان يفعله لقرون طويلة ، َلما سقطت الأندلس ، ذلك أن أحكام التاريخ لا تقبل التفسير بالافتراضات . ولكن بالمستطاع القول أن مسلمي الأندلس احتملوا فوق قدرة احتمال البشر على امتـداد قرون عديدة ، واحتمل مسلمو المغرب ما لا يمكن للتاريخ إنكاره . ولكن الحملات الصليبية حشدت من

القوى والوسائط ما يزيد كثيراً على قدرة احتمال المسلمين في عدوة المغرب وفي الأندلس على حد سواء ، فكان في ذلك نهاية الأندلس الإسلامي .

ولعل في استقراء السطور الأخيرة من حياة غرناطة ما يؤكد ذلك ويبرهن على صحته. ولقد سقطت الأندلس ويحقّ لكل إنسان عربي، وكل إنسان مسلم، أن يفخر بالتضحيات غير المحدودة التي بُذلت على صفحة الأندلس ، والتي عملت على إقامة الحضارة هناك طوال أكثر من سبعة قرون .

ب – الدروس العسكرية

لقد حدث يوم الحمراء سنة ٧١٩ هـ = ١٣١٩ م ، وكان سقوط الحمراء سنة ٨٩٨ هـ = ١٤٩٢ م ، وبين اليوم الأول والأخير مساحة زمنية تمتد ١٧٠ سنة تقريباً ، كانت كلها صراع دائم وجهاد مستمر . وحدثت خلالها ملاحم رائعة وانتصارات ضخمة كانت كلها برهاناً على حقيقة واحدة ، وهي أنه باستطاعة القائد إحراز النصر عندما يتوافر له التصميم على انتزاع هذا النصر ، وإذا ما توافرت له القدرة على إدارة الحرب بالشكل الصحيح .

ولكن ، وإلى جانب هذه الحقيقة ، تبرز حقيقة رهيبة وهي عدم أهمية الانتصارات على مسرح العمليات ، إن لم تكن مرتبطة بالسياسة الاستراتيجية. وإيضاحاً لذلك يمكن مقارنة انتصار الزلاقة أو الأرك بانتصار الحاجب المنصور عندما هاجم شنت ياقب في غاليسيا – أقصى شمال غربي الأندلس – ودمّر مملكة ليون ذاتها .

وهنا يمكن التساؤل : هل ذلك يعني خوض الصراع دائماً في إطار هجومي ؟ قد يكون ذلك . وفي الواقع ، فإن تحليل المعارك الحاسمة في التاريخ يؤكد ما عبّر عنه نابليون بقوله : الهجوم الهجوم ، ولا شيء غير الهجوم . ويظهر تحليل معارك الأندلس منذ يوم الحمراء وحتى سقوط الحمراء أن معارك المسلمين

كانت دفاعية باستمرار ، ولو أنها كانت تأخـــذ أحياناً الطابـع الهجومي على مسرح العمليات .

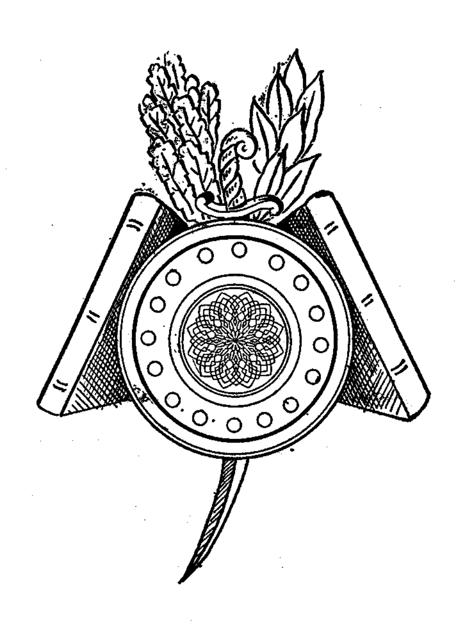
ومن المعروف أن الاضطلاع بالواجبات الهجوميـــة يتطلب حشد قوى ووسائط تتناسب مع قوى العدو ووسائطه، ولعل ذلك هو ما فرض على أمراء المسلمين في الأندلس الالتزام بالدفـاع ، والتفكير في إقـــامة تحصينات على امتداد جبل الفتح . وقد كان سقوط هذه التحصينات برهاناً حاسماً على سقوط وسائط الدفاع أمام وسائط الهجوم .

وتُبرز معـــارك الحمراء تشابك الصراع السياسي بوسائط الصراع المسلح ، بقدر ما تبرز أهمية استراتيجية الهجوم غير المباشر. لقد كان باستطاعة فرديناند احتلال غرناطة بالهجوم المبـــاشر ، كما كان باستطاعته الاستيلاء على كل مملكة غرناطة بالهجوم المباشر (بفضل ما توافر له من القوى والوسائط والتي عبّر عنها المؤرخون المسلمون بقولهم : إمداداتهم التي لا تنقطع) ، إلا أن الهجوم المباشر كان سيكبّد قوات قشتالة الخسائر الفـــادحة بالأموال والأرواح . ولهذا تمّ الوصول إلىالهدف المباشر وهو الاستيلاء على بلاد المسلمين بطرائق غيرمباشرة، وشراء ذلك بالأموال والوعود ، وهي أموال سيتمّ استردادها – على نحو مـــا حدث فعلاً – ووعود لا أهمية لهـــا بغياب القوة التي تدعم تنفيذها – وهذا ما حدث فعلاً – ولهذا فقد أمكن لفرديناند تحقيق انتصاراته والوصول إلى هدفه بدون ثمن ، عن طريق استراتيجية الهجوم غير المبـــاشر ، وعن طريق التلاحم بين الصراع المسلح والصراع السياسي .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مسلمي المشرق قد ساروا في هـــذا الاتجاه ذاته عندما حرّروا المشرق الإسلامي.وهذا يعني ببساطة أن القضية لم تكن بالنسبة للأندلسيين – أمرائهم وجماهيرهم – هي قضية قصور في الإدراك لحقيقة الموقف، بقدر ما كانت قضية عجز في توافر القوى والوسائط الضرورية للصراع ، بعد أن

استنزفت الحرب طويلة الأمد القوى والوسائط. وتُبرز السطور الأخيرة بصورة خاصة - من حياة غرناطة - هذه الحقيقة بشكل واضح .

ويبقى أهم درس يمكن تعلمّه من « يوم في الحمراء » هو ربط الصراع المسلح بالصراع السياسي . فبقدر ما يكون الهدف السياسي كبيراً (مثل هدف التحرير في المشرق الإسلامي) ، يكون للانتصار العسكري أهميته . إذ أن نتـــائج هذا الانتصار العسكري يتمّ توظيفهـــا لتحقيق الهدف السياسي ، في حين تبقى الانتصارات العسكرية في مسرح العمليات مجرد جهد ضائع بغياب الهدف السياسي .



« حشد الصليبيون في معركة نيقوبوليس جيشاً يزيد على ١١٠ آلاف مقاتل . وعندما انتصر « بايزيد » على هـذا الجيش ، أصبحت القسطنطينية معزولة عن الغرب ، وتقـرر مصيرها، بالرغم من أن سقوطها في قبضة المسلمين تأخر خمسين سنة أخرى » .

٨

معركة نيقوبوليس (NICOPOLI)

(٧٩٩ هـ = ٢٦ ايلول – سبتمبر – ١٣٩٦ م)

١ – الوضع العام قبل المعركة .

آ – الأتراك العثمانيون .

ب – الموقف على جبهة الغرب .

٢ – الوضع الخاص (حملة نيقوبوليس) .

آ – قوات الطرفين – المسير للمعركة .

ب – معركة نيقوبوليس .

٣ – نتائج المعركة .

آ – النتائج السياسية .

ب – النتائج العسكرية .

وجيز الأحداث

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٦٩٠	١٢٩١	السلطان الأشرف يحتل عكا ويُخرج بقايا الصليبيين من الشام .
٧٦٤	١٣٦٢	وفـاة اورخان – وخلافة ابنه الثاني مراد – على زعامة الترك العثمانيين .
٧٦٧	١٣٦٥	حملة صليبية بقيادة ملك قبرص «بطرس» تهاجم الاسكندرية وتنهبها وتدمرها.
٨٦٨	١٣٦٦	السلطان مراد يستولي على شبه جزيرة البلقـــان ويجعل « ادرنة » عاصمة للعثمانيين .
٧٧٧	١٣٧٥	انهيار مملكة أرمينيا واستيلاء العثمانيين عليها .
٧٨٧ – ٨٨	١٣٨٥ – ١٣٨٦	استيلاء العثمانيين على صوفيـــا ونيش (مقدونية) وغاليبولي وقمع حركة التمرّد التي قـادها « ووقاجين » على ضفاف نهر مريج .

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٧٨٩	١٣٨٧	الجيوش المتحالفة بقيادة قيصر بلغارية والتي ضمّت الصرب والبشناق، تُلحق الهزيمة بقوات العثمانيين التي كان يقودها لالا شاهين في معركة بلوشنك .
٧٩٠	١٣٨٨	القائد العثماني علي باشا ابن قره خليل جاندرلي يثأر لهزيمة بلوشنك في نيقوبوليس على نهر الطونة (الدانوب) وتنتهي الحرب بالصلح مع العثمانيين وحصولهم على سلسترة .
٧٩١	١٣٨٩	تحالفت قوات الصرب والبشناق والمجر والبلغار والالبان (الأرناؤوط) وخاضت معركة ضد العثمانيين الذين كان يقودهم مراد . وحدثت المعركة في قوصوه (ميدان الطيور السود) في يوم ١٥ حزيران (يونيو) وقتل مراد في المعركة، وأسر ملك الصرب، وتولى بايزيد بن مراد قيادة القوات وحصل على النصر .
٧٩٣	١٣٩٠	لويس الثاني (دوق بوربون) يهاجم المهدية قرب تونس ويفشل في حملته .
٧٩٩	١٣٩٦	ملك المجر سجسموند يقود حملة صليبية جديدة في الغرب . والسلطان بايزيد يقود العثمانيين في حملة نيقوبوليس

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
		وينتصر على الصليبيين يوم ٢٦ ايلول (سبتمبر) .
٨٠٣	١٤٠٠	تيمورلنك يهاجم بلاد الشام، ثم ينتقل إلى الأناضول ، وينتصر على بايزيد في أنقرة سنة ٨٠٥ ﻫ = ١٤٠٢ م .
٨٣٠	١٤٢٦	تدمير قبرص انتقاماً للاسكندرية .
٨٥٧	١٤٥٣	استيلاء العثمانيين على القسطنطينية .



نيقوبوليس مدينة بلغارية تقع على نهر الدانوب، وبها انتصر الامبراطور تراجان على الداسيين[1] (١٠١ - ١٠٥ م) ، ثم جاء السلطان بايزيد لينتصر على الهنغاريين الذين كان يقودهم سيجسموند وحلفاؤه من الفرنسيين في ٢٧ ايلول (سبتمبر) ١٣٩٦ م = ٧٩٩ ﻫ .

ويقع تصنيف هذه المعركة في إطار « حروب الايمان » أو إحدى الحملات الصليبية التي كان مسرح عملياتها في اوروبا بدلاً من الحملات السابقة التي كان مسرحها العالم العربي - الاسلامي .

وقد كانت هـــذه المعركة من معارك التاريخ الحاسمة ، إذ أنها عملت على زيادة قوة الأتراك العثمانيين، وتوطيد مركزهم في اوروبا ، الأمر الذي ساعدهم على تصفيـة الامبراطورية البيزنطية والاستيلاء على عاصمتها القسطنطينية بعد خمسين سنة (٨٥٧ ﻫ - ١٤٥٣م) . أما بالنسبة للغرب فقد تكوّنت قناعة نهائية بضرورة التوقف عن متابعة الحملات الصليبية ، خـــلال تلك الفترة التاريخية على الأقل .

---

(١) نيقوبوليس Nicopoli : انتصر فيها تراجان Trajan الامبراطورالروماني (٥٢ - ١١٧م) على الداسيين Daces (١٠١ - ١٠٥ م) الذين كانت تنتشر بلادهم مـا بين تييشا والدانوب والدينيستر والـكاربات ، وأصبحت بلادهم تحت حكم الرومان (وحملوا بعـد ذلك اسم الرومانيين في رومانيا) . ثم انتصر فيها بايزيد Bajazet على الهنغاريين الذين كان يقودهم سيجسموند Sigismond (١٣٩٦ م) ، فكانت حاسمة كسابقتها .

وأعقب ذلك تطورات كبيرة على المسرح الأوروبي ، أما التطورات الأكثر أهمية فقد جاءت من المشرق على شكل حملة جديدة للمغول قادها خلفاء جنكيزخان (تيمورلنك) الذي قام بغزو بلاد الشام (٨٠٣ هـ = ١٤٠٠ م) ، ثم انتقل إلى الأناضول حيث خاض معركة حاسمة ضد السلطان بايزيد الذي لم يبقَ سواه من أمراء المسلمين ممن لم يتم إخضاعه للمغول . وعلى الرغم من انتصار تيمورلنك على بايزيد في أنقرة يوم ٢٠ تموز (يوليو) سنة ١٤٠٢ ، إلا أن زوال بايزيد وموته بالأسر بعد شهور قليلة لم يدمر قوة العثمانيين .

وجاء السلطان محمد ومن بعده السلطان مراد ، فتابعا طريق بناء الامبراطورية العثمانية ، بحيث لم تمضِ أكثر من فترة سنوات قليلة حتى أصبحت هذه الامبراطورية من أقوى امبراطوريات العالم .

١ – الوضع العام قبل المعركة

آ – الأتراك العثمانيون

بدأ توغّل الأتراك المسلمين في آسيا الصغرى منذ معركة ملازكرد سنة ١٠٧١ م ، ثم جاءت الحملة الصليبية الرابعة التي دمّرت الامبراطورية البيزنطية سنة ١٢٠٤ وعرّضت عاصمتها القسطنطينية للنهب ، لتساعد الأتراك على التوغل في الأناضول . وعندما جاءت غزوات المغول (التتار) دفعت أمامها مسلمي الترك الذين نزلوا في الأناضول وبعثوا فيها روح الجهاد ضد البيزنطيين .

وأقام أمراء الغزاة دويلات مستقلة في غرب آسيا الصغرى ، فنزل **القرمانيون** في ليقاؤنية وإيسوريا ، ونزل **الكرنيانيون** في كوتاهية ، واستقرّ **الحميديون** في ميسية **والصاروخان** في مغنيسية . وكان **العثمانيون** من بين أولئك الأتراك الذين رفعوا راية الجهاد في سبيل الله ضد البيزنطيين . وتولى السلاجقة حماية هؤلاء الأتراك ، حتى إذا ما قُتل زعيم الخوارزمية في صراعه مع المغول ، تولى سليمان

زعيم قبائل (قايي) قيادة قبيلته للعودة إلى آسيا الوسطى ، ولكن عند الوصول إلى الفرات قُتل سليمان قرب حلب ، فانقلب ابنه الثالث « ارطغرل » بقسم من القبيلة وهو يضم نحواً من مائة أسرة ، وعاد بهم إلى آسيا الصغرى ليلتحق وإياهم بخدمة علاء الدين الثاني السلجوقي (سلطان قونية) ،فأقطعه علاء الدين المستنقعات الواقعة على الحدود المواجهة للبيزنطيين عند سكود في وادي «قره صو» الفرات الغربي ، وجبلي طومافيج وأرمني‌طاغ ، وترك إليه توسيع ممتلكاته على حساب جيرانه النصارى .

وقـــد انصرف **ارطغرل** إلى توطيد سلطته ، وترك لابنه **عثمان** (١٢٥٨ — ١٣٢٦) إمارة صغيرة في جنوب بثينيا . حتى إذا ما مات سنة ١٣٢٦ كان قد أصبح سيد بروسة ومعظم البلاد الواقعة بين ادريميتيوم ودوريليوم وبحر مرمرة.

وجاء **اورخان** بن عثمان ليتابع سياسة أبيه التوسعية ، فواصل فتح بثينيا ، واستولى على نيقيـة سنة ١٣٢٩ وعلى نيقوميديا سنة ١٣٣٧ . وفي سنة ١٣٥٤ وجّه اورخان — الذي اتخـــذ لقب السلطان [1] — قواته ، فعبرت الدردنيل واستولت على مدينة « غاليبولي » . ثم أرسل بعـد سنتين عدة آلاف من رجاله عبر المضائق فأنزلهم في تراقيا. وفي سنة ١٣٥٧ استولى على **حصن أدرنه الضخم** الذي أضحى عاصمته الثانية . وعندما توفي سنة ١٣٦٢ كان قد سيطر على تراقيا وعزل القسطنطينية عن أملاكها الأوروبية .

وأثنـاء ذلك كان المجاهدون يتقاطرون من أرجاء آسيا الصغرى جميعاً ومن

---

(١) يوجد على نقوش جامع بروسة الذي بناه اورخان بن عثمان سنة ١٣٣٤ اللقب الذي اتخذه اورخان لنفسه وهو : « السلطان اورخان ابن سلطان الغزاة ، الغازي ابن الغازي مرزبان الآفاق بطل العالم » ، وقـد وضع اورخان تقاليد تسمية « سلطان الغزاة » وذلك بتسلم السيف بوصفه غازياً (مجـاهداً في سبيل الله) من أده بالي رئيس المشايخ الصوفية . وسار السلاطين العثمانيون في استانبول بعد ذلك على هذا التقليد ، حيث كانوا يتقلدون سيف عثمان من قبل إمام جامع أيوب على القرن الذهبي ، وبذلك يتقبلون البيعة .

القبائل التركية على اختلافها لدعم السلطان عثمان وابنه اورخان من بعده .
ولعل من أهم ما تركه « اورخان » لابنه « **مراد الأول** » هو ذلك الجيش القوي الذي عُني به ونظّمه على أساس « الفرق » المقسّمة إلى وحدات على الأساس العشري (العشرة جنود والمائة والألف)، وإقامة جيش نظامي دائم ، وتنظيم « اليني جرى - يكي جرى - أو الانكشارية » ، كما نظم قوة الفرسان من بولوكات أربعة (الفرق الأربعة) ، وكان ينتظم أول الأمر من ٢٤٠٠ من الرجال الأشداء ، ثم انتهى بعدُ إلى أن ينتظم من ١٦ ألف رجل [١] .
وبالإضافة إلى هذه الفرق ظلّت هناك كتائب الفرسان المسلمين الخاضعين لإمرة بكوات السنلجق .

انصرف مراد الأول لتصفية الخلافات الداخلية وتوطيد سلطته ، ثم اتجه باهتمامه نحو شبه جزيرة البلقان حيث كان عدد من صغار الحكام - لا يكاد يُحصى - يتنازعون السلطة ويفني بعضُهم بعضاً في حروب مستمرة . وكان لاختلاف الصقالبة (السلاف) البلقان وتفرّق كلمتهم أثره في تغلّب العثمانيين عليهم في سهولة ويُسر .

وحاول الصرب في سنة ١٣٧١ شنّ الحرب على العثمانيين بقيادة «ووقاجين»، ولكن « حاجي ايلبكي » هزمهم هزيمة منكرة عند شرمن (جرمن) على ضفاف نهر مريج ، وفقد الصربيون كل ممتلكاتهم في مقدونية .

واحتل العثمانيون بعد ذلك صوفيا ونيش (سنة ١٣٨٥ - ١٣٨٦) ، وأتم خير الدين باشا فتح مقدونية من غاليبولي (حيث شيّد سنة ١٣٨٥ م الجامع الكبير - اسكي جامع) ، ثم استولى العثمانيون على سري ومن هناك فتحوا سالونيك .

---

(١) كان واجب قوة الفرسان حماية الراية الامبراطورية التي استعيض عنها منذ عهد السلطان سليم الأول بالراية النبوية .

وكان قيصر بلغارية « ششمان الثالث » قد اقتسم هو وأخوه سراسمير المقيم في « ودين » سنة ١٣٦٤ امبراطورية أبيهما الاسكندر ، وصاهر مراداً . ولكن تقدُّم مراد في البلقان لم يلبث أن أثار مخاوفه فعقد حلفاً مع الصرب والبشناق.

وفي سنة ١٣٨٧ تصدّى القائد التركي « لالا شاهين » للجيوش المتحالفة عند «بلوشنك» ، فأوقعت به هزيمة ساحقة وقضت على جيشه قضاءً يكاد يكون تاماً.

وفي سنة ١٣٨٨ انطلق علي باشا ابن قره خليل جاندرلي بجيش ضخم للانتقام لهزيمة العثمانيين في البلقـان ، فعبر وثلاثين ألفاً من رجاله مضيق « نادر » واحتل مدينتي ترنوه وشملا « وطوّق القيصر ششمان في نيقوبوليس على نهر الطونة — الدانوب — » ، فتقدم إلى الأتراك بالصلح على أن يدفع إليهم الجزية ويتنازل لهم عن سلسترة . حتى إذا خرق هـذا الصلح ، حاصروه مرة أخرى عند نيقوبوليس وأرغموه على الاستسلام بدون قيـد أو شرط ، ولكنهم أبقوا على حياته وحفظوا له عرشه .

وفي السنة التالية ، تمّ تحالف آخر كبير ضد العثمانيين ، التقى فيه العثمانيون يوم ١٥ حزيران (يونيو) سنة ١٣٨٩ بالقوات الصربية ، تساندها جيوش إضافية من البشناق والمجر والبلغار والألبانيين (الأرناؤوط) في ميدان الطيور السود (قوصوه) حيث تنبع الأنهر الثلاثة (ايبار وفارادار — أو وارادار — ودَرينه) ، وكان يقود العثمانيين في هذه المرة مراد نفسه ، بعد أن جمع ابناه يزيد ويعقوب وأمراء صاروخان ومنتشا وآيدين وحميد . وكانت المعركة عنيفـة تنازع فيها الفريقان راية النصر أكثر من مرة . وقتل مراد نفسه في هذه المعركة [1] ، إلا

---

(١) تختلف الروايات التاريخية في موضوع مقتل السلطان مراد في معركة (ميدان الطيور السود - قوصوه) ، فبينما تذكر المصادر التركية أنه قتل غيلة وغدراً على يد مقاتل صربي اسمه « ميلوش كوبيلتشي » ، أصيب بجراح فانطرح في الميدان ، حتى إذا ما اقترب منه السلطان مراد انقض عليه وطعنه طعنات قاتلة.. تذهب الملاحم الصربية فتزعم أنه صرع في خبائه بخناجر اثني عشر رجلا أخذوا على أنفسهم عهداً بقتله .

أن العثمانيين ما لبثوا أن أسروا ملك الصرب « لازار » وقطعوا رأسه ورؤوس رفاقه عند أسرهم ، وفقاً لأوامر السلطان وهو يحتضر .

وكان السلطان بايزيد يقود الجناح الأيسر ، فأعاد تنظيم القوات وقادها إلى النصر النهائي على القوات الصربية .

وانصرف بايزيد على الفور لمتابعة الفتوحات ، فاستولى في سنة ١٣٩٠ على مدينة ألاشهر – آخر ممتلكات البيزنطيين في آسيا الصغرى – . ولم تمض أكثر من ثلاثة أعوام حتى تمّ إخضاع البلغار إخضاعاً تاماً .

ب – الموقف على جبهة الغرب

عندما سقطت عكا في قبضة المسلمين ، وتمّ إخراج الصليبيين من بلاد الشام ، كانت اوروبا غارقة في خلافاتها الداخلية على مستوى الملوك والأمراء ، ومنصرفة إلى شؤونها على مستوى الأفراد والجماعات ، فلم تظهر ردود فعل غاضبة . وظهر بوضوح أنه لم يعد بالمستطاع إثارة حماسة الشعوب للحملات الصليبية ، على نحو ما كان عليه الموقف قبل قرنين من عمر الزمن . حتى البابوية ذاتها لم تعد قادرة على الاضطلاع بدورها بعد أن فقدت الكثير من مكانتها . وقد حاول البابا نقولا الرابع تحريض الملوك والأمراء ، غير أن أحداً لم يكن لديه الاستعداد للاستجابة ، باستثناء ملكي قبرص وأرمينيا وامبراطور الروم (البيزنطيين) ، نظراً لاتصالهم بالمشرق . ولم يكن هؤلاء في وضع يسمح لهم بمجابهة غضبة المسلمين ، لا سيما وأن مصر كانت قادرة على نقل المعركة إلى قبرص وتهديدها ، كما أن مملكة أرمينيا أصبحت محاطة بإمارات الأتراك .

أما الامبراطورية البيزنطية فكان عليها مجابهة خطر الأتراك من الشرق ومجابهة خطر البلغار والصرب من الغرب . وقد حاولت تحقيق التوازن عن طريق الاستعانة بكتائب من الترك لمحاربة البلغار والصرب ، وتطويع كتائب من هؤلاء لمحاربة الترك ، واستطاعت المحافظة على وجودها من خلال هذا التوازن ،

فكان من المتعذر عليها التفكير في دعم حملة صليبية جديدة .

غير أن الدعوة الصليبية أخذت اتجاهاً جديداً . فإذا كان البابا نقولا الرابع قد توفي سنة ١٢٩٠ بدون أن يصل إلى نتيجة ، فإن رجال الكنيسة قد لجؤوا إلى وضع الكتب لإثارة الحماسة ووصف حال المشرق واستخلاص الدروس من الحملات السابقة وإعداد المقترحات للحملات المتوقعة ، وكان رجال الكنيسة وراء هذه الحملة الإعلامية المبتكرة [١] . وقد مضت مدة غير قصيرة من الهدوء

---

(١) يمكن في هذا المجال ذكر بعض الكتب التي اكتسبت شهرة خاصة أثناء تلك الفترة ومنها:

أ – كتاب وضعه راهب فرنسيسكاني اسمه فيدنتشيو بادوا تحت عنوان «كتاب عن استعادة الأرض المقدسة : Libre de Recuperatione Terra Sancte » ، وكان مؤلف الكتاب يعمل سفيراً للبابا للاضطلاع بمهام دبلوماسية . وقد صدر الكتاب سنة ١٢٩٠ .

ب – تقرير عن سقوط عكا – وضعه الراهب تاديوس نابولي – وختمه بنداء حار إلى البابا والأمراء .

ج – كتاب وضعه طبيب البلاط البابوي « جلفانو ليفانتي » وأصدره سنة ١٢٩٤ وأهداه إلى فيليب الرابع ملك فرنسا .

د – مذكرة كتبها ريمون لل (المبشر الاسباني الكبير) والذي كان يتقن اللغة العربية لأنه من مواليد ميورقا (سنة ١٢٣٢) والتي كانت خاضعة للعرب المسلمين . وقد تضمنت مذكرته التي رفعها إلى البابا الإجراء المطلوب لقتال المسلمين (في سنة ١٢٩٥) . ثم أصدر كتابه المعروف باسم « Liber De Fine » في سنة ١٣٠٥ ، وضمنه مخططاته وآراءه لإخراج المسلمين من الأندلس ونقل الحرب إلى بلادهم، بداية من المغرب للوصول إلى مصر .

هـ – تقرير الأمير الأرمني « هيثوم » أو « هايتون كوريكوس » الذي لجأ إلى فرنسا وأضحى مقدم دير في برايمو نسترانت قرب « بواتييه » ، وكان البابا قد التمس من أمير أرمينيا وضع هذا الكتاب الذي صدر في سنة ١٣٠٧ تحت عنوان :
« Flos Historiorum Terre Orientis » واشتمل على وجيز لتاريخ الشرق الأدنى مع اقتراح بتوجيه حملة برية وبحرية إلى الشام ، وأوصى بالتحالف مع المغول .

و – مجموعة تقارير تم وضعها بناء على طلب البابا كليمنت وقدمت إلى مجمع فيينا في سنة ١٣١١ ، وأبرزها : =

قبل أن تظهر تحركات في اتجاهات إعداد حملات عسكرية جديدة. وتزعّم الحملة الجديدة ملك قبرص .

تولى بطرس الأول عرش قبرص في سنة ١٣٥٩ م (أي بعد سبعين سنة من تحرير عكا وإخراج الفرنج من الشام) ، وكان يطمع منذ صغره في قيادة حملة صليبية ، فأنشأ طائفة جديدة من الفرسان أطلق عليها اسم « فرسان السيف » وجعل هدفها استرجاع بيت المقدس . وما أن أصبح ملكاً حتى بدأ عهده بشنّ حرب على مسلمي الأناضول (الأتراك) ، حيث حصل على حصن كوديكوس من الأرمن .

وفي سنتي ١٣٦٣ و ١٣٦٤ قام بجولة في كل أنحاء اوروبا زار خلالها جزيرة رودس وجمهورية جنوى وفرنسا والفلاندر وبرابانت وبلاد الراين وانكلترا ، وعاد إلى المانيا والمجر وبولندا والبندقية . وكان يثير الحماسة ويدعو للحملة الصليبية الجديدة .

وفي ٤ تشرين الأول (اكتوبر) ١٣٦٥ تجمّع لدى الملك بطرس ١٦٥ سفينة من أنواع مختلفة . وضمّت هذه الحملة أكبر قوة تجمّعت منذ الحملة الصليبية الثالثة. وجمع الملك قوات الحملة وألقى بهم موعظة أثارت الملاحين الذين انطلقوا بالهتاف: « يعيش بطرس ملك بيت المقدس وقبرص رغم أنف العرب الكفرة ».

وقاد بطرس قوات الحملة فوصل بها إلى الاسكندرية مساء يوم ٩ تشرين الأول

= ١ – تقرير مقدم الداوية جيمس مولاي في سنة ١٣٠٧ .

٢ – تقرير مقدم الاسبتارية فولك فيلا ريت في سنة ١٣١١ ، وقدمه إلى فيليب ملك فرنسا .

٣ – تقرير هنري الثاني ملك قبرص إلى مجمع فيينا .

ز – كتاب « أسرار الصليب المقدس Secrets Fidelium Crucis » وضعه المؤرخ مارينو سانودو – اليوناني الأصل – وصدر في سنة ١٣٢١ ، وحرض فيه على الحرب الاقتصادية .

(اكتوبر) ، واستطاعت هـذه القوة مباغتة مصر التي كانت تحت حكم الأمير « يلبغا » فاستولت على الاسكندرية يوم ١١ تشرين الأول (اكتوبر) .

« واحتفل الصليبيون بانتصارهم بما ارتكبوه من وحشية لا مثيل لهـا . وما وقع من الحروب المقـدسة التي استمرت نحو مائتين وخمسين عاماً لم تعلم الصليبيين شيئاً من الانسانية . فما أجروه من المذابح لم يضارعها سوى تلك التي حدثت في بيت المقدس سنة ١٠٩٩ ، وفي القسطنطينية سنة ١٢٠٤ . ولم يبلغ المسلمون هذه القسوة عند استيلائهم على انطاكية أو عكا . والمعروف أن ثروة الاسكندرية كانت بالغة الشهرة ، واشتد جنون الظافرين حين شهدوا هذه الغنيمة الوفيرة ، فـلم يُبقوا على أحد ... وما أصابه المغيرون من النهب والسلب ، حمـله قطار طويل من الأفراس والحمير والابل إلى السفن الراسية بالميناء ، ثم تقرر إعدامها بعد أن أدّت عملها ، وعبقت كل المدينـة بالرائحة الكريهة الصادرة من جثث البشر والحيوان »[1] .

وفي يوم الخميس ١٦ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٣٦٥ انسحبت الحملة من الاسكندرية بعـد أن أنزلت بها الدمار ، وكان ذلك كل ما حصلت عليه الحملة الجديدة من نتائج . وعاد ملك قبرص حزيناً ، إذ أنه لم ينجح في إقنـاع مقاتليه بالبقاء ومتابعة فتح مصر .

واستقبل البابا أنباء نهب الاسكندرية وتدميرها بالبهجة على أساس أنهـا نصر حربي وإذلال المسلمين . غير أنه رأى بأن من الضروري إمداد بطرس مباشرة بالقوات التي يمكن لهـا أن تحل محل تلك التي تخلّت عن الحملة . ووعد ملك فرنسا « شارل » بإرسال جيش من أشهر فرسانه برتراند دوجيسلين الذي وعد بالاشتراك في الحملة . وأما ديوس (كونت سافوي) المعروف في القصص باسم « الفارس الأخضر » الذي كان يستعد للرحيل إلى الشرق، فتقرر أن يبحر إلى جزيرة قبرص . وحدث عندئذٍ أن أعلن البنادقة أن بطرس عقد صلحاً مع

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية – ستيفن رنسيمان – دار الثقافة – لبنان – ٣ / ٧٤٦ – ٧٤٧ .

سلطان مصر، فاستدعى الملك شارل جيشه، وتوجه جيسلين للقتال في الأندلس بينما مضى « أماديوس » إلى القسطنطينية.

وتابع بطرس إرسال اسطوله للاغارة على سواحل بلاد الشام، فيما كان « يلبغا » يعدّ اسطولاً للهجوم على قبرص. وأخذ سكان قبرص الخوف من قضية الحرب الخاسرة التي حمل ملكهم لواءها، فقرر فرسانه اغتياله، وتمّ تنفيذ ذلك سنة ١٣٦٩، وأمكن تحقيق الصلح بين مصر وقبرص، وتمّ تبادل الأسرى من الجانبين.

لم يشترك الأرمن بقليقية في حملة ملك قبرص « بطرس » الصليبية، إلا أن الأسرة الحاكمة بقليقية أضحت من الفرنج، كما أنه كان لعدد كبير من النبلاء علاقات وثيقة بقبرص، وأقرّت كنيسة الأرمن سلطان كنيسة روما عليها. واشتد المصريون طوال القرن الرابع عشر بالضغط على الأرمن، وكانوا على حق في ارتيابهم فيهم بأنهم حلفاء الفرنج والمغول ضد المسلمين. وجاء انهيار الامبراطورية المغولية ليحرم الأرمن من أكبر سند لهم، كما أن معظم بلادهم أضافها الأتراك إليهم سنة ١٣٣٧، وتمّ إخضاع البلاد سنة ١٣٧٥ على أيدي المماليك وحلفائهم الأتراك، بينما كان القبارصة يخوضون حرباً مريرة مع جنوى. وهرب ليو السادس آخر ملوك الأرمن إلى الغرب ومات بالمنفى في باريس، وبذا اختفى استقلال الأرمن.

سبقت الإشارة إلى اشتراك « أماديوس » كونت سافوي في حملة صليبية (سنة ١٣٦٦) وتوجّهه إلى قبرص ومنها إلى القسطنطينية في الوقت الذي كان فيه البابا اربان السادس يقوم بالدعوة إلى دعم الحملة الصليبية التي يقودها ملك قبرص. ووطّن « أماديوس — أو الفارس الأخضر » نفسه على المضي إلى الأرض المقدسة. غير أنه كان ابن عم شقيق للامبراطور البيزنطي يوحنا الخامس الذي رغب في مساعدته، فطلب إليه بدء حملته بقتال الترك مقابل الوعد بخضوعه للكنيسة اليونانية.

وحشد « أماديوس » نخبة مختارة من الفرسان وقاد حملته فوصل إلى مضيق الدردنيل في آب (اغسطس) سنة ١٣٦٦، وألقى الحصار على غاليبولي بصورة فورية وفتحها يوم ٢٣ آب (اغسطس). ثم تابع أماديوس سيره بحراً إلى القسطنطينية بدلاً من الهبوط في تراقيا لتطهير الاقليم من الأتراك ، وتبيّن له في القسطنطينية أن الامبراطور البيزنطي وقع غدراً في أسر ملك بلغاريا « **شيشمان الثالث** » ، ولذا وجّه « أماديوس » كل جهده لإنقاذ ابن عمه، ولم يتمكن من تخليصه إلا بعد أن هاجم أماديوس ميناء فارنا البلغاري . ولما تمّ إنقاذ الامبراطور يوحنا ، اكتشف أماديوس أنه أنفق كل ما لديه من المال . وعاد أماديوس إلى وطنه في سنة ١٣٦٧ وعاد الأتراك فاستولوا على غاليبولي .

وعلى الرغم من أن النشاط الصليبي في الغرب تحوّل في سنة ١٣٩٠ بالحملة التي قادها لويس الثاني دوق بوربون لمهاجمة المهدية قرب تونس ، فقد كان من الواضح أنه لا بد من إيقاف زحف الأتراك العثمانيين من أجل سلامة اوروبا المسيحية . ولما استنجد « سيجموند – أو سيجسموند » ملك المجر بزملائه الملوك، أصدر كلّ من بابا روما «بونيفوس التاسع» وبابا افينيون «بنيدكت الثالث عشر » مرسوماً يوصيان فيه بإثارة حرب صليبية ، بينما كتب داعية الحرب الصليبية الكهل « فيليب مزيير » رسالة مفتوحة إلى ريتشارد الثاني ملك انكلترا يطلب إليه التعاون مع شارل السادس ملك فرنسا في إعداد الحملة الصليبية المقبلة .

واستطاع « سيجمسوند » (سيجموند) أن يلقى مساندة وتأييداً بفضل صِلاته مع ألمانيا ، إذ أن أميري فالاشيا وترانسلفانيا بلغ من تخوّفهما من الزحف التركي ما حملهما على الانحياز إليه ، على الرغم من كراهيتهما الشديدة المجريين . وأما في الغرب فقد أعرب دوقات برجنديا وأورليان ولانكستر عن رغبتهم في تقديم الدعم والمساعدة .

ووصلت إلى البندقية سفارة مجرية في آذار (مارس) سنة ١٣٩٥ برئاسة نقولا كانيزاي رئيس أساقفة « جران » لتظفر من الدوق بوعد لنقل العساكر على

سفن البنادقة . ثم مضى السفراء إلى ليون حيث لقوا ترحيباً كبيراً من فيليب (الجسور أو المقدام) دوق برجنديا الذي وعدهم بالمساعدة . ثم توجهوا بعد أن قاموا بزيارة ديجون لتقديم فروض الاحترام لمرغريت دوقة الفلاندر ، إلى بوردو ليجتمعوا بخال ملك انكلترا « يوحنا دوق لانكستر » الذي تعهّد بإعداد فرقة انكليزية ، وارتحـــلوا من بوردو إلى باريس . وكان شارل السادس ملك فرنسا يعاني نوبة جنون ، غير أن أوصياءه عرضوا بأن يشجعوا النبلاء الفرنسيين على الاشتراك في الحملة الصليبية ،فأخذ يحتشد جيش دولي ضخم لنجدة العالم المسيحي .

وفرض دوق برجنديا ضرائب خاصة لتمويل هـذا الجيش تحصّل منها مبلغ ضخم قدره سبعمائة ألف فرنك ذهب ، وأضاف إليه النبلاء الفرنسيون منفردين ما أسهموا به من أموال ، فبذل جاي السادس (كونت لاتريموي) أربعة وعشرين ألف فرنك . ووافق النبلاء الفرنسيون والبرجنديون على أن يتولى قيادتهم أكبر أبناء دوق برجنـــديا وهو يوحنا كونت نيفر ، الذي لم يكن يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره . ونظراً لحداثة سنّه فقد تمّ الاتفاق في اجتماع ديجون الذي عقد يوم ٢٠ نيسان (ابريل) سنة ١٣٩٦ لتنظيم الحمـــلة ، على تكوين مجلس للشورى يتكون من فيليب ابن دوق بار وجاي لاتريموي وأخيه وليم وأمير البحر يوحنا سيد فيينا وأودار سيد شاسيرون .

٢ – الوضع الخاص (حملة نيقوبوليس)

آ – قوات الطرفين – المسير للمعركة

أسرع سفراء المجر بالعودة إلى بودا ، ليبلغوا الملك سيجسموند ما أحرزوه من نجاح ، ولينصحوه بالمضي في استعداداته . وفي نهـاية شهر نيسان (ابريل) تحرّك جيش مؤلف من ١٠ آلاف رجل للمسير إلى بودا ، مجتازاً ألمانيـا ، وفي أثناء الطريق انحاز إليه ٦ آلاف من الألمان بقيـــادة كونت بلاتين روبيرت بن روبيرت الثـاني كونت فيتنباخ ، وإبيرارد كونت كاتسنيلنبوجن ، وسار في

اوروبا في القرن الخامس عشر

أعقابهم ١٠ آلاف محارب انكليزي بقيادة ايرل هنتنجدون، وهو أخ غير شقيق للملك ريتشارد .

ووصلت الجيوش الغربية إلى بودا حوالي نهاية شهر تموز (يوليو) فصادفوا بها الملك سيجسموند منتظراً في جيش يبلغ حوالي ٦٠ ألف رجل أيضاً. وانحاز إليه تابعه – مبركيا فويفود – (حاكم ولاشيا) في ١٠ آلاف رجل أيضاً . وقدم من بولندا وبوهيميا وإيطاليا واسبانيا حوالي ١٣ ألف مقـــاتل من المغامرين المحترفين . فتكوّن بذلك جيش متحد يناهز في قوته العـــددية ١١٠ آلاف ، وهو أضخم مـا احتشد من الجيوش حتى وقتذاك لقتـال المسلمين . وفي تلك الأثناء نفذ إلى البحر الأسود أسطول يقوده فرسان الاسبتارية بقيـادة مقدمهم فيليبرت ناياك والبنادقة والجنويون ، فرسا قبالة مصب نهر الدانوب .

كان السلطان العثماني « بايزيد » يحاصر القسطنطينية عنـدما بلغته أخبار تقدم الحملة الصليبية، فرفع الحصار بسرعة عن العاصمة البيزنطية، واستنفر كل القوات المتوافرة وأمكن له حشد جيش يضم ١٠٠ ألف مقـــاتل تقريباً وسار بهم في اتجاه بلاد المجر حتى وصل إلى ضفاف الدانوب .

عكف قادة الحملة الصليبية على وضع مخطط الحرب ، واقترح «سيجسموند» اتخاذ خطة الدفاع على أساس السماح لجيش بيازيد بالتوغل إلى داخل بلاد المجر ثم الانقضاض عليه من مواقع سبق إعدادها وتجهيزها ، إلا أن حلفـــاءه اقترحوا خطة هجوم كبير معتمدين على تفوّقهم وحماستهم للحرب ، وكان من رأيهم « أنهم سينتصرون على الأتراك وتتقـدم الجيوش المسيحية منتصرة في الأناضول إلى سوريا وإلى المدينة المقدسة ذاتها. وكان العساكر من العنف ما حمل سيجسموند على الإذعان » .

سارت قوات الحملة الصليبية في بداية شهر آب (اغسطس) على امتـــداد الشاطىء الأيسر لنهر الدانوب حتى بلغ اورسوفا – عنـــد الباب الحديدي – ومنها عبر إلى الشاطىء الآخر. وانقضت ثمانية أيام في نقل الجيش – في الزوارق – عبر النهر ، ثم سارت العساكر إزاء الشاطىء الجنوبي حتى مدينـة « **فيدين** » .

وكان حاكم فيدين أميراً بلغارياً اسمه « **يوحنا سراخيمير** » ، وكان من أتباع السلطان بايزيد الذي وضع تحت تصرف يوحنا حامية تركية . فلما وصل المسيحيون إلى المدينة انحاز إليهم يوحنا سراخيمير وفتح لهم الأبواب . ودارت مذبحة رهيبة أبيدت فيها الحامية التركية .

أما المدينة التالية الواقعة على النهر فكانت « **راهوفا** » ، وهي معقل منيع يحيط به خندق وسوران وتنزل به حامية تركية ضخمة . فاندفع على الفور لمهاجمتها الفرسانُ الفرنسيون المعروفون بشدة عنفهم وتهوُّرهم ، وتولى قيادتهم « فيليب ارنوا — كونت ايه » ويوحنا لومينجر المعروف باسم المارشال « بوسيكوه » ، وتعرضوا للإبادة لو لم يبادر « سيجسموند » بجلب العساكر المجرية . ولم يكن باستطاعة الحامية الاستمرار في مقاومتها زمناً طويلاً إزاء ضغط الجيش المسيحي بأكمله ، فتمّ اقتحامها . وتعرّض للقتل بالسيف جميع سكانها ، ومنهم عدد كبير من المسيحيين البلغار ، ولم يبقوا إلا على ألف رجل من كبار الأغنياء احتفظوا بهم للحصول على الفدية ، ثم عملوا على إبادتهم .

وتحرّك الجيش الصليبي من « راهوفا » إلى « نيقوبوليس » التي كانت أقوى معقل للأتراك على نهر الدانوب ، والواقع عند الطريق القادم من وسط بلغاريا إلى النهر. وتمّ تشييد هذا المعقل الحصين بجوار النهر على تل توج منحدراته شديدة الهبوط خطان من الأسوار المنيعة . ولم يجلب الصليبيون معهم أدوات الحصار ، إذ لم يدرك الغربيون الحاجة إليها ، كما أن « سيجسموند » ركّز استعداداته على الدفاع. وظهر أنه لا فائدة للسلالم التي نصبها الفرنسيون بسرعة، ولا للنقوب التي حفرها المهندسون المجريون . وترقّب الجيش استسلام المدينة حتى لا يهلك أهلها جوعاً ، وساندهم في ذلك قدوم أسطول للاسبتارية أقلع بالدانوب في مواجهة أسوار المدينة يوم ١٠ ايلول (سبتمبر) ، غير أن المؤن كانت وفيرة في نيقوبوليس، كما أن والي المدينة التركي **دوغان بك** الذي علم بمصير مواطنيه في **فيدين وراهوفا** لم يكن على استعداد للاستسلام .

كان الإرجاء والتمهل قاتلاً للروح المعنوية عند الجيش المسيحي، إذ أن فرسان الغرب صاروا يلهون أنفسهم بلعب القمار وشرب الخمر والبحث عن كل أعمال الفسق والفجور. وإذ تجرّأ بعض المقاتلين على الإشارة إلى أن الأتراك أعداء أشداء، أمر «المارشال بوسيكوه» بصلم آذانهم عقاباً لهم على روحهم الانهزامية. ووقعت المشاجرات بين مختلف كتائب الجيش، بينما أخذ أتباع سيجسموند (الترانسلفانيون) وحلفاؤه الولاشيون يتحدثون عن التخلي عن الجيش.

وكانت قد مضت فترة أسبوعين على حصار الصليبيين عندما وردت المعلومات بأن الأتراك أخذوا يقتربون من المدينة. **وكان جيش الأتراك المسلمين قد تحرك بسرعة من تراقيا، كان خفيف التسلح، فاق فرسانه خيالة الفرنج في سرعة الحركة، واشتهر رماته بروعة التدريب، وتأصّل عنده اكتمال النظام والطاعة التامة لقيادة السلطان وحده الذي اشتهر بالكفاءة العالية.**

ب – معركة نيقوبوليس

وصلت مقدمة الجيش التركي إلى نيقوبوليس يوم الاثنين ٢٥ ايلول (سبتمبر) ١٣٩٦ م. وعسكر الجيش في التلال على مسافة ثلاثة أميال من المسيحيين. وفي صبيحة اليوم التالي وقبل شروق الشمس، قام «سيجسموند» بزيارة زملائه من القادة، وتوسّل إليهم البقاء في مواقعهم والتزام خطة الدفاع. وقد وافقه بعض حلفائه، إلا أن أكثرهم أصرّوا على الإمساك بالمبادأة وشنّ الهجوم على الفور.

ونظم «سيجسموند» جيشه فجعله ثلاثة أقسام: احتل عساكره المجريون قلب الجيش، بينما اتخذ الوالاشيون مواقعهم في الميسرة، وكان الترانسلفانيون في الميمنة، وتألفت مقدمة الجيش من جميع القادمين من الغرب بقيادة «يوحنا» كونت نيفر.

ولما بزغ النهار لم يظهر من الجيش التركي سوى الخيالة الخفيفة على منحدر التل، ومن ورائهم اتخذ مشاة الأتراك (الرجالة) مواقعهم، ومعهم قوات من الرماة

يحميهم حاجز مصنوع من أعمدة مدببة من الخشب. أما القوة الرئيسية من الخيالة السباهية التي يقودها السلطان بيازيد نفسه فإنها كانت مختفية في قمة التل . وكان على ميسرة السلطان فرقة من الخيالة الصربيين بقيادة الأمير «ستيفن لازاروفيتش» الذي أظهر باستمرار وفاءه وإخلاصه للسلطان .

قام جيش الصليبيين بالهجوم، فتمزقت أمامه مجموعة فرسان الترك التي تعمل أمام الجيش، وانسحبت هذه إلى ما وراء صفوف المشاة لإعادة التنظيم، واضطر فرسان الصليبيين للتوقف أمام حواجز الأعمدة المدببة، فبادروا إلى الترجل عن خيولهم، وواصلوا الهجوم على أقدامهم فيما كان رماة المسلمين ينزلون بهم الخسائر. ونجح جند الصليبيين بنزع الأعمدة كلما تقدموا في هجومهم ، واستطاعوا تمزيق صفوف المشاة والرماة الذين انسحبوا بدورهم إلى ما وراء الفرسان لإعادة تنظيم قوتهم .

وظنّ الصليبيون أنهم قضوا على كل مقاومة ، فاندفعوا نحو القمة ليجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام فرسان السلطان (السباهية) والصربيين ، فأخذهم على حين غرّة هجوم هذه القوات الجديدة والنشطة . وفي هذه المرحلة كان جند الصليبيين يخوضون معركتهم مترجلين (مشاة) وقد حلّ بهم التعب ، واشتد ظمؤهم ، وأرهقهم ما يحملون من أسلحة ثقيلة .

ولم يلبث نظامهم أن اضطرب ، وبدأت الهزيمة في تطويقهم ، ولم ينجُ من القتل إلا عدد قليل من الفرسان. ومن الذين هلكوا: وليم لاتريؤوي وابنه فيليب ويوحنا كاوزوه أمير البحر في الفلاندر ومقدم الفرسان التيوتون . أما يوحنا سيد فيينا وأمير البحر في فرنسا فإنه وقع وقد أمسك بلواء نوتردام الكبير الذي كان موكولاً إليه أمر المحافظة عليه . ولم ينجُ يوحنا كونت نيفر إلا لأن خدامه هتفوا باسمه وأقنعوه بالإذعان ، وممن وقع معه في الأسر كونتات ايه ولامارش و « جاي لي تريؤوي » والنجير اندكوسي والمارشال بوسيكوه .

كانت الخيول ترجع إلى معسكر الصليبيين وحدها بعد أن يترجل فرسانها

عنها ، أو يسقطون ، وقررت الكتيبتان (الوالاشية والترانسلفانية) على الفور أنها خسرتا المعركة وعجلتا بالانسحاب ، فاستولتا على كل مـــا عثرتا عليه من الزوارق اللازمة لعبور النهر . غير أن سيجسموند أمر عساكره بالتقدم لنجدة فرسان الغرب ، فقتلوا أثنـــاء سيرهم إلى أعلى التل كثيراً من مشاة الترك ، غير أنهم لمـا اقتربوا من ساحة المعركة أدركوا أنهم وصلوا متأخرين ، وحمل عليهم فرسان الترك المسلمين وطردوهم إلى ضفاف النهر بعـــد أن كبّدوهم خسائر فادحة .

ولما تبدّد جيش سيجسموند ، اقتنع بالتخلي عن القتـال ، فلجأ إلى إحدى سفن البندقية في النهر ، فنقلته إلى القسطنطينية ومنها إلى بلاده عن طريق بحر إيجه والبحر الأدرياتي ، إذ كان يخشى أن يرتحل براً لارتيابه في التعرض للقتل من قِبَل الوالاشيين . أما عساكره وفئة قليلة ممن بقي على قيد الحياة من الصليبيين الغربيين ، فإنهم بذلوا كل ما بوسعهم من جهد لالتماس الطريق إلى بلادهم ، بعد أن شدّد عليهم الخنـــاق سكان البلاد الوطنيين والمعـادون لهم ، بالإضافة إلى مضايقات الحيوانات المفترسة وقسوة فصل الشتاء الذي بـدأ مبكراً . فواصل كونت «بلاتين» السير إلى قلعة والده في أسمال ومات بعد بضعة أيام. ولم يؤاتِ الحظ الطيب سوى عدد قليل من رفاقه اللاجئين .

أحرز السلطان بايزيد نصراً حاسماً ، غير أن خسائره كانت فـادحة . وفي سَوْرة غضبه تذكـّر ما ارتكبه الصليبيون من مذابح، فأمر بقتل أسراه الذين يناهز عددهم ثلاثة آلاف أسير صبراً ، ولم يُبقِ إلا على حيـــاة عدد قليل من النبلاء كيما يتقـاضى عنهم فدية ضخمة . وتولى التعرف عليهم فارس فرنسي اسمه « جيمس هيللي » يُلمّ باللغـــة التركية ، ثم تقرر السماح له بالرحيل إلى الغرب ليدبر ما يتحصل من الأموال .

على أنه لم تصل إلى السلطان في بروسة سفـــارة من الغرب إلا في حزيران

(يونيو) من السنة التالية، فسلمته ما طلبه من مقادير ضخمة من المال . إذ أن عدداً كبيراً من المعروفين في العالم المسيحي بشدة العاطفة، أرسلوا ما أسهموا به من أموال، غير أن الجانب الأكبر أدّاه الملك سيجسموند ودوق برجنديا اللذان بذلا مـا يزيد على مليون فرنك ، ومَن جرى إطلاق سراحهم من الأسرى لم يبلغوا أوطانهم إلا في نهاية سنة ١٣٩٧ م تقريباً .

وهكذا انتهت حملة نيقوبوليس دون أن تحقق شيئاً ، وظلت قوات الأتراك العثمانيين تهدّد قلب أوروبا بعد أن بلغت نهر الدانوب وشواطىء البحر الأدرياتي. وأضحت القسطنطينية معزولة لا تتطلب لإخضاعها غير توافر المدفعية والسفن لحصارها من البحر .

٣ - نتائج المعركة

آ - النتائج السياسية

استثارت معركة نيقوبوليس اهتمام المغول الذين كانوا خـلال تلك الفترة يتوغلون في شرق الأناضول بقيادة تيمورلنك الذي اتجه بعد ذلك إلى بلاد الشام في سنة ١٤٠٠ ، وعاد بعدها إلى الأناضول حيث خـاض معركة حاسمة في ٢٠ تموز (يوليو) سنة ١٤٠٢ ، انتصر فيها على بايزيد الذي وقـع أسيراً ومات في أسره بعد بضعة شهور .

وظنّ الامبراطور البيزنطي « مانويل الثاني » أن هذه المعركة قد أزالت عن صدره خطر العثمانيين ، فانطلق للغرب يطلب المساعدة . غير أن ما حصل عليه لم يكن كافياً للقضاء على العثمانيين ، كما أن موت تيمورلنك في سنة ١٤٠٥ ساعد **محمداً الأول** على إعادة تنظيم قوة الأتراك العثمانيين والتمهيد لاستئناف الحرب التي سيتولاها مراد الثاني عند توليه في سنة ١٤٢١ . أما بالنسبة للبـابا فقد ازداد إحساسه بالخطر ، إلا أن دول الغرب لم تعد تظهر حماسة للحرب .

ب – النتائج العسكرية

تظهر الدروس العسكرية في معركة نيقوبوليس بوضوح كامل . وقد كانت أخطاء قادة الصليبيين هي المميزات التي ساعدت السلطان بايزيد على تحقيق النصر . فقد كانت موازين القوى متعادلة تقريباً ، أو مع بعض التفوّق لمصلحة الصليبيين . إلا أن أخطاء قادة الغرب حرمتهم من الظروف التي توافرت لهم .

لقد خاضت قوات الغرب معركتها – متساندة – وليست موحدة . في حين كانت قوات الترك المسلمين خاضعة لقيادة مركزية قوية . وكان مخطط « سيجسموند » الذي اقترحه بالتزام الدفاع حتى يتم تدمير قوة المسلمين ، هو المخطط ذاته الذي طبّقه السلطان بايزيد الذي أرغم قوات خصمه على خوض المعركة في المكان والزمان المناسبين له . وكان مخطط العمليات محكماً ، وأشبه ما يكون لمخطط معركة حطين ، حيث تمّ إيقاع قوات العدو بما يشبه الكمين الكبير .

وتميّزت قوات الترك بخفة الحركة والمرونة والكفاءة القتالية الرائعة والروح المعنوية العالية ، في حين كانت قوات الغرب مميزة بثقل تسليحها الذي يلائم الجندي المُدافِع أكثر مما يلائم الجندي المُهاجِم ، علاوة على ما ظهر من قصور في كفاءة مقاتلي الغرب وروحهم المعنوية المتدنّية التي دمّرت لديهم كل حماسة دينية .

وكان للاحتياطي دوره الحاسم في المعركة ، فقد استنزفت المعركة قوات الطرفين المتحاربين ، إلا أن السلطان بايزيد احتفظ باحتياط ساعده على حسم الصراع في النهاية لمصلحته ، في حين هرب احتياطيو الغرب لمجرد ظهور بواكير التحوّل في الموقف لغير صالح الصليبيين .

وبعد ، فان معركة نيقوبوليس تقف في الطرف المقابل لمعركة ملازكرد

من الحملات الصليبية، وقد حدثت معركة ملازكرد سنة ١٠٧١ – قبل ثلاثين سنة من الحملات الصليبية – ، وحدثت معركة نيقوبوليس بعد سبعين سنة من تحرير عكا . وكان الحافز الصليبي واحداً ، إلا أن الحماسة التي اشتعلت ثلاثين سنة قبل الحملات الصليبية تطلبت ٧٠ سنة بعد انتهاء الحملات ، مع العلم أن مسرح العمليات قد انتقل إلى اوروبا ذاتها . وحمل السلاجقة (الترك) والعثمانيون (الترك) أعباء المعركتين الحاسمتين في تاريخ المسلمين .





« وهكذا بعثت في أوروبا فكرة الواجب المشترك الذي يفرض على العـــالم المسيحي كله العمل في سبيل دفـــع خطر المسلمين ، وهي الفكرة التي طالما ألح البنـــادقة على بعثها . وأظهر بعض ملوك أوروبا استجابة منـاسبة ، حتى أن الملك الفرنسي لويس الرابـع عشر لبى دعوة البـــابا إلى نصرة إخوانه في الدين ضد الأتراك ، على الرغم من صلاته الطيبة بالبـــاب العالي » .

٩
حصار فيينـــا
(١٠٩٥ ﻫ = ١٧ تموز - يوليو - ١٢ ايلول - سبتمبر - ١٦٨٣ م)

١ - الوضع العام حتى حصار فيينا .

أ - الامبراطورية العثمانية .

ب - الموقف على جبهة الغرب .

٢ - الموقف الخاص قبل المعركة .

أ - على حدود بلاد المجر .

ب - حصار فيينا .

٣ - نتائج حصار فيينا .

أ - النتائج السياسية .

ب - النتائج العسكرية .

وجيز الأحداث

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٨٥٧	١٤٥٣	فتح القسطنطينية (محمد الثاني – الفاتح ١٤٥١ – ١٤٨١) .
٨٦٠	١٤٥٦	حصار بلغراد .
٨٦٢	١٤٥٨	إخضاع الصرب ، ثم إخضاع المورة (١٤٦١) والالبانيين (١٤٦٨) .
٨٨٦ – ٩١٨	١٤٨١ – ١٥١٢	بايزيد الثاني .
٨٩٨	١٤٩٢	سقوط غرناطة وإخراج العرب من الأندلس .
٩١٨ – ٩٢٧	١٥١٢ – ١٥٢٠	سليم الأول (يادز سلطان أو السلطان المهول) .
٩٢٢	١٥١٦	مرج دابق وفتح الشام .
٩٢٣	١٥١٧	فتح مصر .
٩٢٧ – ٩٧٤	١٥٢٠ – ١٥٦٦	سليمان الأول (القانوني) .
٩٢٩	١٥٢٢	فتح رودس .
٩٣٣	١٥٢٦	موت ملك المجر لويس في معركة مهاج (موهاكس) وإخضاع المجر .
٩٥٠	١٥٤٣	إنشاء البحرية العثمانية (برباروس ١٥٣٣ – ١٥٤٦) .
٩٧٣	١٦٦٥	الأسطول الفرنسي يقصف الجزائر وتونس .

السلاطين العثمانيون
في مرحلة النشوء وعصر القوة

	بداية عهده		السلطان	أبرز أعماله
	هجرية	ميلادية		
١			ارطغرل	إقامة القاعدة في الأناضول (جنوب بثينيا) .
٢			عثمان بن ارطغرل	فتح بثينيا والسيطرة على منطقة واسعة (على بحر مرمرة) .
٣	٧٢٧	١٣٢٦	اورخان بن عثمان	فتح نيقية ونيقوميديا وغاليبولي وأدرنة وتنظيم الجيش .
٤	٧٦٤	١٣٦٢	مراد بن اورخان	فتح مقدونية واحتلال صوفيا ونيش وقاد معركة قوصوه (الطيور السود) .
٥	٧٩٢	١٣٨٩	بايزيد	قائد معركة نيقوبوليس (١٣٩٦) .
٦	٨٠٥	١٤٠٢	محمد بن بايزيد	إعادة تنظيم السلطنة .
٧	٨٢٥	١٤٢١	مراد الثاني	الانتصار على الصليبيين في فارنا (تشرين الثاني – نوفمبر – ١٤٤٤) .
٨	٨٥٥	١٤٥١	محمد الثاني	فاتح القسطنطينية (١٤٥٣ م) .
٩	٨٨٦	١٤٨١	بايزيد الثاني	إعادة تنظيم شامل للدولة .
١٠	٩١٨	١٥١٢	سليم الأول	(يادزسلطان – أو – السلطان المهول) فتح الشام ومصر وأوروبا .
١١	٩٢٧	١٥٢٠	سليمان الأول	الاستيلاء على بلغراد ورودس واستئناف الحرب ضد المجر وتنظيم البحرية والجيش
١٢	٩٧٤	١٥٦٦	سليم الثاني	
١٣	٩٨١	١٥٧٣	مراد الثالث	
١٤	١٠٠٤	١٥٩٥	محمد الثالث	
١٥	١٠١٢	١٦٠٣	السلطان أحمد	(حكم مصطفى لمدة ٣ أشهر وتنازل لأخيه عثمان الذي أعيد بعد ٤ سنوات)
١٦	١٠٢٧	١٦١٧	مراد الرابع	
١٧	١٠٥٠	١٦٤٠	ابراهيم	
١٨	١٠٥٨	١٦٤٨	محمد كوبرلي (الرابع)	(أحمد كوبرلي بعد ذلك وتعاظمت قوة الصدر الأعظم) .
	١٠٩٥	١٦٨٣		حصار فيينا .

لم تتوقف الحروب الصليبيـــة بانتصار الترك المسلمين في نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ ، ولم يتوقف الصراع بعد احتلال القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وإنمـــا استمرت الحرب على كل الجبهات . ولكن مسارح العمليات تركزت في الخمسين سنة التاليـة على أرض الأندلس ، حيث تمّ إخراج المسلمين منها سنة ١٤٩٢ ، وفي الوقت ذاته كانت أوروبا تتابع الصراع المرير ضد المسلمين (الترك) الذين أخذوا في التحرك على محورين رئيسيين : محور بلاد الشام وافريقية، حيث تمّ فتح الشام بعد معركة مرج دابق سنة ١٥١٦، ومصر ١٥١٧. والمحور الثاني هو متابعة التقدم على مسرح أوروبا.وتولت المجر والمانيا وبولونيا (بولنده) قيادة الصراع ضد الأتراك العثمانيين في إطار الحروب الصليبية . وفي الوقت ذاته، حاول العثمانيون بناء قدرتهم البحرية وإقامة القواعد فيالبحر الأبيض المتوسط (كريت ورودس) .

وكان الصراع مستمراً، لا يكاد يهدأ حتى تبعثه منجديد عوامل متباينة، فقد أصاب الفرنسيون والاسبان الذعر لتعاظم القوة البحرية، فقاموا بقصف الجزائر وتونس سنة ١٦٦٥ . وخشي البابا من تعاظم القدرة البرية للمسلمين بعد توحيد العالم الاسلامي مع خطر تعاظم القدرة البحرية،فاستمرت الجهود لتطويق العالم الاسلامي .

واستطاع العثمانيون الذين قادوا عملية الجهاد ، تحقيق انتصارات كثيرة ، ونزلت بهم بعض الهزائم ، ولكن ميزان القوى بقي لمصلحتهم حتى جاءت

معركة فيينــا (١٦٨٣م) ، فكانت نقطة التحول الحـــاسمة التي انتهت بالامبراطورية العظمى إلى التوقف ثم التراجع .

١ – الوضع العام حتى حصار فيينا

آ – الامبراطورية العثمانية

لم تكن عملية حصار فيينا (في سنة ١٦٨٣ م) عملاً عسكرياً مستقلاً ، وإنما كان عملاً في إطار صراع مرير يتصل بمعركة نيقوبوليس (التي حدثت قبل ذلك بفترة ثلاثمائة سنة) ، بقـدر ما يتصل أيضاً بالاستيلاء على القسطنطينية وحتى باستيلاء الأتراك العثمانيين على الشام ومصر . وإذا كانت معركة نيقوبوليس تمثل بداية المد العثماني ، فإن حصار فيينـــا يمثل بداية الجزر في الحرب طويلة الأمد . وقد يكون من المحال إيجاز أحداث ثلاثة قرون في عجالة سريعة لإبراز معـالم هذه الحرب وتحديد عمليــــة حصار فيينا منها . ولهذا فقد يكون من المناسب الانتقال فوق قمم الأحداث لتكوين فكرة شاملة عن هذه المعركة الحاسمة وتقويم مجموعة الظروف المحيطة بها .

بعد مقتل بايزيد على أيدي تيمورلنك سنة ١٤٠٢ ، عمل وريثه السلطان محمد على إعادة تنظيم الدولة ، والتماس فترة من الهدوء ، حتى جاء السلطان مراد الثاني (١٤٢١ – ١٤٥١ م) ، فحاول التوسع في اتجاه البلقان . إلا أن قوات المجر تصدّت للقوات العثمانية ، واستطاع القائد « يوحنا هونيادي » الترانسلفاني إلحاق الهزيمة بالقوات العثمانية « مما دعم فكرة بعث الحرب الصليبية العامة التي تشنّها النصرانية على أعدائها . ورحّب النصارى بإعلان البابا اوجانيوس الرابع هذه الحرب ترحيباً حمـــاسياً في المجر وبولنده وألمانيا وفرنسا . وغادر الجيش الصليبي بودا في تموز (يوليو) سنة ١٤٤٣ ، ليحرز في ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) نصراً على العثمانيين في جالوواز (بين صوفيا وفيليبوبوليس) ، وما لبث « جورج كستريونا – أو اسكندر بك » أن رفع راية الثورة ضد العثمانيين في ألبـــانيا ،

وحقق انتصارات كبيرة مما دفع مراد إلى طلب الصلح في سنة ١٤٤٤. وتمّ عقد صلح لمدة عشر سنوات. إلا أن البابا أدرك أن هذا الصلح يتعارض مع مخططاته فحرض المجريين على نقض الصلح . وقـــاد الملك « فلاديسلاف » جيش المجر ، ولكن السلطان مراد انتصر على المجر في فارنا يوم ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٤٤٤ وقتل ملك المجر فلاديسلاف . فتولى هونيادي حكم المجر ، وقـــاد حملة جديدة بعـد ٤ سنوات ، وانتصر مراد مرة أُخرى على « هونيادي » في سهل قوصوه في ١٧ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٤٤٨ م »[١] .

وتوفي السلطان مراد في ٥ شباط (فبراير) سنة ١٤٥١ ، وخلفه محمد الثاني – الفاتح – الذي نجح في تحقيق الحلم القديم وهو الاستيلاء على القسطنطينية يوم ٢٩ أيار (مايو) سنة ١٤٥٣ . ثم انصرف محمد الفاتح لمعالجة التهديد الذي كان يشكله المجريون . وكان لا بدّ له من الاستيلاء على بلاد الصرب لكي يضمن لجيشه قاعدة ثابتة يستطيع الانطلاق منها لحرب المجر. ولكن ملك الصرب «هونيادي» التجأ إلى ملك المجر الذي دعمـــه لرفع الحصار الذي قاده السلطان محمد – ضد بلغراد – واشترك في جيش هونيادي – جيش مختلط من الصليبيين ممن استطاع الراهب كابسترانو أن يحشدهم، مما حمل الأتراك على التراجع عن بلغراد إلى صوفيا في ٢٢ حزيران ١٤٥٦ بعد معركة طاحنة اصيب فيها السلطان محمد بجراح ، ولم يتم له السيطرة على الصرب قبل سنة ١٤٥٩ .

وعندما جاء السلطان سليم الأول وفتح سوريا ومصر ، حدث ذعر صارخ في اوروبا حتى لقد خشي البابا ليو العاشر على المسيحية أن تتعرض سلامتها للأذى ، فشرع يعد العدة للحرب في حملة صليبية جديدة. ولكن السلطان سليم (١٥١٢– ١٥٢٠ م) لم يشهد ردود الفعل فجاء السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ – ١٥٦٦) ليتابع الصراع والجهاد ، فيستولي على (بلغراد سنة ١٥٢١) وفتح رودس التي

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية – كارل بروكلمان – دار العلم للملايين ٤٢٧ – ٤٢٩ .

بقيت قاعدة للعدوان في سنة ١٥٢٢ واستأنف الحرب ضد المجر، فقتل ملكهم لويس في موقعة "مهاج « موهاكس » في ٢٨ آب (أغسطس) سنة ١٥٢٦ واحتل بودا لأول مرة وأحرقها.

ثم ان الحرب نشبت ما بين فرديناند ملك النمسا وجان زابوليا أمير ترانسلفانيا بسبب من النزاع على تاج المجر فلم يكن من سليمان إلا أن ناصر زابوليا على خصمه، واحتل بودا كرة أخرى في ايلول (سبتمبر) سنة ١٥٢٩ ليحتفل فيها بتتويج حليفه ملكاً على المجر. ومن ثم تقدم سليمان إلى فيينا [١] فحاصرها ولكنه اضطر في ١٥ تشرين الأول (اكتوبر) إلى أن يرفع الحصار عن المدينة لقلة المؤونة.

ولما بقي البحر الأبيض المتوسط هو المجال الأول للحرب، وهو الطريق للغزوات المباغتة. فقد أولى السلطان سليمان اهتمامه بمصدر هذا الخطر فاستدعى إليه خير الدين بربروس وعينه أميراً للبحر وجهزه بألف جندي تركي. وقام خير الدين بدور حاسم في تكوين القدرة العثمانية، وعمل في الوقت ذاته على حماية المغرب العربي من هجمات الاسبانيين والافرنسيين الذين كانوا قد أخرجوا المسلمين من الأندلس (سنة ١٤٩٢) وانتقلوا إلى الهجوم على قواعد المسلمين في المغرب.

وأدرك الغرب خطر ذلك، وظهر أن جمهورية قبرص كانت هي الهدف فأرسلت تستغيث دعم الغرب. وكان الأسطول البندقي يرابط في تلك الأثناء على شواطىء – كريت – أو أقريطش. واقتنع البابا بولس الخامس وفيليب الثاني ملك اسبانية فأرسلا أساطيلها في أيار (مايو) سنة ١٥٧١. واجتمعت الأساطيل المتحالفة في مرفأ مسينا، وأخذت في متابعة الأسطول العثماني بقيادة ملك النمسا دون جوان. وكان الأسطول العثماني مرابطاً في خليج لبانتي (ناوباقتوس القديمة

(١) كان الذيل الإداري الذي رافق الجيش العثماني لحصار فيينا في سنة ١٥٢٩ يضم ٢٢ ألف بعير محملة بالدقيق بالاضافة إلى مثل هذا العدد من البغال لحمل التموين الاداري للجيش وجر المدفعية التي بلغ عدد أفرادها في أيام بايزيد وسليم الأول – ألف رجل.

في فم خليج كورنثوس) ومعــه قوة دعم من أربعين سفينة حربية معقود لواؤها لباشا الجزائر . ووقعت المعركة في ٧ تشرين الأول (اكتوبر) ١٥٧١ ، وأمكن للأساطيل المتحالفة انزال خسائر فادحة بالأسطول العثماني .

أصيبت الامبراطورية العثمانية بعد ذلك بالتمزق الداخلي ، فأخذت الثورات الداخلية في الاندلاع. (وكان اكبرها ثورة جان بلاط – الكردي – «جنبلاط» في سوريا وثورة فخرالدين المعني – الدرزي – في لبنان (الذي استمرت ثورتــه من سنة ١٦٠٣ حتى سنة ١٦٣٥) ورافق ذلك اضطراب في السلطة العليا ظهرت في خلع السلطان ابراهيم في ٨ آب سنة ١٦٤٨ وخنقه بعد عشرة أيام ، ثم غياب الشخصيات القوية التي ظهرت فيمرحلة بناء الدولة علىامتداد ثلاثمائة عام تقريباً.

ب – الموقف على جبهة الغرب

لم يتوقفالبنادقة ولا المجريون عنمتابعة التحريض ضد الامبراطورية العثمانية إلا أن مركزاً جديداً من مراكز القوى أخـــذ في توجيه تهديده للإمبراطورية العثمانية وهو مركز القبق «القوقاز» علاوة على ذلك المركز الذي أخذ في الظهور في ايران – بلاد الفرس – وإذ شعر البنادقة أن الغرب لم يقـــدم لهم المساعدة اللازمة ، فقد أخذوا فيالاتصال بشاه فارس «طهماسب» وحرضوه ضد العثمانيين.

وكان على الامبراطورية العثمانية مجابهـــة الحرب على كل الجبهات الخارجية والداخلية . فقام العثمانيون بهجوم على بـــلاد القبق « القوقاز » في سنة ١٥٧٧ وفتحوا تفليس . وفي سنة ١٥٧٩ أنشأوا قلعــة « قارص » ذات الأهمية العظمى لتحقيق الاستقرار في هذه المنطقة . ولكنهم لم يستطيعوا نقل الحرب إلى فارس ذاتها وانتزاع تبريز – العاصمة السابقة إلا سنة ١٥٨٥، وانتهت هذه الحرب بعقد صلح مع ورثة « طهماسب بن اسماعيل » – الذي كان قد توفي في سنة ١٥٧٦ –.

وهكذا دعم العثمانيون وجودهم في جنوبي روسيا ، ليتخذوا منها مركزاً لحملاتهم ضد بلاد الكرج سنة ١٥٨١ و١٥٨٣ ، كذلك أفسحت لهم الاضطرابات

الناشبة بين أهل القبق في مجال التدخل في شؤون بولندة (بولونيا) . وكان ملك بولندة « اسطفان بانوري » ومن بعـــده الملك سيجسموند اعتباراً من سنة ١٥٨٧ يتبعان للسلطان العثماني . وعلى الرغم من وقف القتال – بموجب هدنـة سنة ١٥٨٣ إلا أن جمرات الحرب بقيت متقدة تحت الرماد وظل شررها يتطاير بالنزاع المستمر على الحدود النمساوية إلى أن اشتعلت نيرانها بعد عشر سنوات .

وكان حاكم البوسنة قـد هزم هزيمة مروعة في حزيران (يونيو) سنة ١٥٩٣ أثناء اغارة قام بها على بلاد المجر . ولم يكن بـــدّ من استئناف الحرب الكبرى ابتغاء الانتقام وغسل العــار ، ولكن السلطان مراد الثالث توفي في ١٦ كانون الثاني (يناير) سنة ١٥٩٥ . وفي السنة التالية قـاد السلطان الجديد محمد الثالث قواته ليشارك في أول انتصار أحرزته قواته في هذه الحرب، وهو الانتصار على جيوش آل هبسبورغ في أكري . ولكن الحرب سارت بعد هـذا النصر بخطى وئيدة جداً ، ثم استمرت كذلك عقب وفاة محمد سنة ١٦٠٣ وارتقاء ابنه أحمد العرش . والواقع أن الحظ لم يجر في ركاب العثمانيين إلا عندما انحاز إلى جانبهم « بوكسكاي » الزعيم المجري بعد أن نُصّبَ أميراً على ترانسلفانيا. وهكذا عقد الصلح آخر الأمر بـين الفريقين بمعاهدة سيتفاتورك سنة ١٦٠٦ وتنازل السلطان بموجبها عن الجزية التي كانت تدفع إليه حتى ذلك الحين .

وكانت الفترة التالية هي فترة هدوء نسبي على جبهة أوروبا ، ولم تحـــدث معارك حاسمة قبل سنة ١٦٤٤ ، إذ استطاع العثمانيون بالرغم من عوامل التفتت الداخلي إعـادة تنظيم قواتهم للنهوض من جديد والقيام بعمل عسكري كبير في اوروبا . ذلك بـأن البنادقة كانوا لا يزالون مسيطرين على بحر إيجة من جزيرة كريت – أقريطش – وإن تكن استانبول قـــد عرفت منذ زمن بعيد كيف تستخف بهم وتزدريهم بسبب تراجعهم عند كل اصطدام يقع على حدود «دلماسيا» أو مع دويلات المسلمين في أفريقية الشمالية وسعيهم إلى شراء الصلح بالأموال .

وأخـــيراً وطدت الدولة العزم على انتزاع آخر ممتلكاتهم في المشرق . وفي حزيران (يونيو) سنة ١٦٤٤ أعلنت الامبراطورية العثمانية الحرب على البنادقة . ثم ان الأسطول العثماني ألقى مراسيه في كريت – أقريطش – واحتل كادن – مانيه – عند حلول الخريف . ولكن العثمانيين تقدموا بعد ذلـك بصورة بطيئة جداً أثارت النقمة في استانبول – فقامت مؤامرة أطاحت بالسلطان ابراهيم في ٨ آب (أغسطس) سنة ١٦٤٨ . وتولى محمد كوبرلي إعادة التنظيم الشامل للدولة.

وفي هذه الأثناء كان البنادقة يسعون على غـــير طائل في سبيل حمل الدول الأخرى على مساعدتهم في حربهم للاحتفاظ بمركزهم في الشرق . لقد عجزوا عن استنقاذ َقنْـدية – ولكنهم تقدموا شيئاً ما في دلماسيا، وفي سنة ١٦٥١ احرزوا نصراً على العثمانيين عند باروس .

وهنا جـــاء دور – محمد كوبرلي [١] الذي نجح في بعث روح جديدة في كل حياة الامبراطورية العثمانية وأجهزتها . وظهرت آثار ذلك في مـا اتخذته الدولة من اجراءات تضج بالعزم والقوة ضد جيرانها في الشمال . ففي ترانسلفانيا أقصى الباب العالي « الأمير جورج راغوجكي » الذي حاول أن يتملص من التزاماته

---

(١) محمد كوبرلي (١٥٧٦ – ١٦٦١ م) نسبة إلى كوبري القائمة على نهر القزل إرماق ، قرب إماسية ، وقـــد هاجر إليها جده من ألبانيا ، والذي يبدو أنه دخل السرايا – أول ما دخلها – كأحد أفراد ضريبة الغلمان . ولكنه لم يلبث أن انتقل من الخدمة الدنيا في البلاد إلى خدمة الدولة ، فكان خازناً للصدر الأعظم ، ثم أصبح والياً (باشا) على دمشق وطرابلس الشام والقدس ، ليعود بعد إلى العاصمة فيتقلد وزارة القبة ، حتى إذا انتهى إلى هذه الغاية المرموقة ، نجـــح خصومه في الدس عليه والتآمر ضده ، فانقلب إلى وطنه الأول . ثم ان الصدر الأعظم – رئيس الوزراء – (محمد باشا المعروف بلقب بويني اكري – أي العنق الأعوج) استدعـاه من هناك إلى العاصمة . ولم يلبث في ٢٢ ايـــلول (سبتمبر) سنة ١٦٥٦ أن تولى منصب الصدر الأعظم – وقد بلغ الثمانين من عمره ، واشترط على السلطان أن يمنحه السلطة المطلقة واشرافاً على جميع المناصب والدوائر ، ونجح في منح الامبراطورية قدرة قوية في إطار من التنظيم الشامل – ولكنه سلك سبيلاً دموياً . وعندما توفي جـــاء ابنه ليتابع اصلاحاته ، ولكن بدون اغراق البلاد بالدماء .

الاقطاعية تجاه السلطان . وأقـام مكانه « الأمير ميخال آبافي » حتى إذا رفض الإمبراطور بضغط من المجريين أن يعترف بالأمير « آبافي » هـذا ، تهدده الباب العالي بالحرب .

وهكذا بعثت في أوروبا فكرة الواجب المشترك الذي يفرض على العـالم المسيحي كله العمل في سبيل دفع خطر المسلمين . وهي الفكرة التي طالما ألح البنادقة على بعثها . وأظهر بعض ملوك اوروبا استجابة مناسبة ، حـتى أن الملك الفرنسي لويس الرابع عشر لبى دعوة البابا إلى نصرة إخوانه في الدين ضد الأتراك ، على الرغم من صلاته الطيبة بالباب العـــالي . فحمل الأمراء الألمان الذين يؤلفون عصبة اوسبرغ (اتحاد الراين) وكانوا حلفاءه ، على أن يضعوا ٢٠ ألف رجل تحت تصرف الإمبراطور الألماني . فأخرجت هـــذه البادرة بـــلاط فيينا ، وكان لا يزال يسعى إلى اجتناب الحروب ويأمل في مفاوضة العثمانيين . ولكن صبر السلطان ما عتم أن نفذ فأصدر أمره إلى قواته بالهجوم على المجر في نيسان (ابريل) سنة ١٦٦٣، حتى إذا انتهى العثمانيون إلى أن يهددوا فيينا نفسها ، دعا الأمبراطور اتحاد الراين ، بـل دعا السويد أيضاً إلى نجدته . وقاد ملك المجر قواته فخاض معركتين كبيرتين انتصر فيهما على العثمانيين (عند جبل القديس غوتارد على نهر الزاب) ولكنه ما لبث أن عقد الصلح مع العثمانيين سنة ١٦٦٥ حتى يتفرغ لمناوأة السياسة الفرنسية.

وأصبح باستطاعة العثمانيين أن يلقوا من جديد بكامل قوتهم إلى ميدان الحرب في كريت حيث بقي حصار قندية بعيداً عن الحسم . وكان البنادقة لا يزالون يلحون على فرنسا لإرسال الدعم لهم ، إلا أن الملك لويس الرابع عشر [١] لم

---

(١) لويس الرابع عشر أو «لويس العظيم» ولد سنة ١٦٣٨ في سان جرمان – آن لاي – وتولى الملك في الفترة (١٦٤٣ – ١٧١٥) حـكم في البداية تحت هيمنة – مازاران – رئيس وزرائه الذي تابع طريق سلفه – ريشيليو – ثم ما لبث في سنة ١٦٦١ أن أعلن أمام مجلس وزرائه أنه يعتزم الحكم – بصورة مطلقة – وذلك من خلال كلمته المشهورة (انا الدولة) اعاد =

يكن راغباً في اثارة الباب العالي والاصطدام بـه . وكان قد اعتذر رسمياً – في استانبول – عن تقديم أي دعم إلى الأمبراطور . وليس هذا فحسب ، بل لقد كانت استانبول تنقم على ملك فرنسا اجراءاته العدوانية ضد المسلمين في المغرب – افريقيا الشمالية – لا سيما بعد أن احتل في ٢٣ تموز (يوليو) سنة ١٦٦٤ مدينة جَيْنجَلْ (ولكن الفرنسيين لم يستطيعوا الاحتفاظ بـه إلى أبعد من ٣١ تشرين الأول من السنة ذاتها) . وأطلق اسطوله النار على الجزائر وتونس سنة ١٦٦٥ .

وهكذا لم يسمح لويس بعـد صلح اكس لاشابيل [١] إلا لبعض الأفراد من الضباط بالالتحاق في خدمة البندقية . فكان على البنادقة أن ينتظروا مساعدته حـتى صيف سنة ١٦٦٩ ، حيث أبحر إلى – كريت – اسطول فرنسي يتكون من ٧ آلاف مقاتل. ولكن هذه المساعدة لم تتمكن من انقاذ القلعة المحاصرة التي سبق لهـا أن تلفت دعم امبراطور المانيا ودوق برونزويك . واضطرت حامية قندية أن تستسلم في ٦ ايلول (سبتمبر) ١٦٦٩ وعقدت معاهدة للصلح انسحب بموجبها البنادقة من جزيرة كريت .

٢ – الموقف الخاص قبل المعركة

أ – على حدود بلاد المجر

أصبح باستطاعة العثمانيين التفرغ لمجابهة تهديدات الشمال الشرقي بعـــد أن

= تنظيم الجيش والبحرية وخاض مجموعة من الحروب حقق لفرنسا وحدتها وعظمتها، ولكنه استنزف قدرتهـــا ومن أبرزها الحرب ضد اسبانيا والتي انتهت بصلح اكس لاشابيل Aix - Lachapelle حصلت بموجبها على الفلاندر سنة ١٦٦٨ ، ثم الحرب مـــع هولاندة والتي انتهت بصلح نيميج Nimégue حصلت فرنسا بموجبها على لافرانش كوميت – سنة ١٦٧٨ ، ثم الحرب ضد اتحاد اوغسبورغ التي انتهت بمعاهدة ريسويك Ryswick سنة ١٦٩٧ ، ثم حرب الوراثة الاسبانية التي انتهت بمعاهدة اوتريخت Utrecht سنة ١٧١٣ ومعاهــــدة راستادت دباد Rastadtet de Bad سنة ١٧١٤ .

(١) اكس لاشابيل – هي مدينة آخن Aachen الألمانية ، وكانت عاصمة شارلمان .

أمكن لهم حماية بجنبتهم الجنوبية في شرقي البحر الأبيض المتوسط . وفي سنة ١٦٦٨ انضوى الزعيم القوقازي « دورو – شنكو » تحت لواء الباب العالي بعد ان كان من قبل تابعاً للتاج البولندي . ولكن الدولة العثمانية لم تطلب إلى بولندة التنازل لها عن « اوكرانيا » إلا في سنة ١٦٧٢ بعد أن تأكد لها أن ملك فرنسا – لويس الرابع عشر – لن يتدخل في الأمر .

فلما كان شهر ايلول (سبتمبر) عقد ملك بولندة « ميخال » معاهدة صلح مع السلطان العثماني محمد الرابع تنازل له بموجبها عن « بودوليا وأوكرانيا »، وذلك بعد أن فقد قلعة قامنج القائمة على الحدود إثر حصار قصير الأمد . ولكن الماريشال « سوبيسكي » [1] ما لبث أن نقض هذه المعاهدة في السنة التالية ، فكتب له النصر في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) عند « خوتين » [2] .

وإذ قد توفي الملك ميخال بعد ذلك بقليل فقد ارتقى العرش البولندي باسم « حنا الثالث » بيد أنه لم يوفق هو أيضاً إلى إحراز أي نصر في الحملات التالية. حتى إذا حاول أن يعبر الدنيستر سنة ١٦٧٦ مستمداً القوة والعزيمة من انتصاره السابق الذي أحرزه في « لوويج » [3] طوقت قواته عند « زوراونو » [4] والتي

(١) الماريشال سوبيسكي Sobieski (Jean III) ملك بولندة من ١٦٧٣ إلى ١٦٩٦ انتصر على العثمانيين في عدد من المواقع، وأنقذ فيينا التي كان يحاصرها قرة مصطفى في سنة ١٦٨٣ – فاعتبر بطلاً وطنياً من قبل الغرب وهو من مواليد اوليسكو Olesko (١٦٢٩ – ١٦٩٦) عاش ٦٧ سنة .

(٢) خوتين Choczim أو Chocim أو Hotin من مدن صربيا – Bessarabie تقع على نهر الدنيستر. ولم تكن أبداً من المدن الرومانية وهي اليوم في مولدافيا Moldavie (الاتحاد السوفياتي) انتصر فيها سوبيسكي على العثمانيين سنة ١٦٧٣ .

(٣) لوويج - Lwow أو Lvov لفوف - في المانيا يسمونها Lemberg - إحدى مدن الاتحاد السوفياتي اقليم (اوكرانيا) تقع بين بوغ Bug والدنيستر Dniester استولى عليها شارل الثاني عشر سنة ١٠٧٥ ، واستولى عليها الروس سنة ١٩١٤ ، واستولى عليها الألمان سنة ١٩١٥ وأصبحت مدينة بولونية (١٩٢٢ - ١٩٣٩) .

(٤) زوراونو : Zurawno مدينة في اوكرانيا (غاليسيه Galicie) تقع على نهر الدنيستر .

كان عـــدد مقاتليها ١٠ آلاف مقاتل ، واضطر إلى عقد صلح تنازل فيه مرة أخرى عن القسم الأعظم من بودوليا وأوكرانيا .

وقبلت الامبراطورية العثمانية بالصلح مع بولندة ، ولم تحـاول استثمار النصر بسبب الخلاف الذي ظهر خلال تلك الفترة بـين الروسيا والباب العالي . وهو الخـلاف الذي لم يلبث أن تطور إلى تهديد . وكان السبب في ذلك هو استمرار دعم العثمانيين للقبق « القوقاز » الذين كانوا يخوضون صراعاً مريراً ضد الروس في أوكرانيا . وانتهى الأمر بوقوع الحرب بين العثمانيين والروس وجرت معارك طاحنة تكبد فيها الطرفان خسائر فادحة ، حـتى إذا كانت سنة ١٦٨١ عقدت بينهما معاهدة صلح استولت الروسيا بموجبها على « كييف » والمنطقة المحيطة بها . وتشكلت على أثر ذلك مدنية « كييف » التي أخذت على عاتقها قيادة الحرب ضد الامبراطورية العثمانية وتجريدها من أملاكها .

ب - حصار فيينا

كان النبلاء المجريون (وعلى رأسهم الكونت تكـلي) قد اقترحوا علىالسلطان محمد الرابع تحرير مـــا بقي من المجر تحت الحكم النمسوي مقابل أدائهم الجزية السنوية. ولم يكن باستطاعة جيوش العثمانيين التحرك إلىالغرب قبل انهاء الصراع في كريت وعلى جبهة روسيا ، ولهذا فما أن أمكن تحقيق الاستقرار على الجبهتين حتى جهز السلطان جيشاً سار به من بلغراد لقتال الامبراطور (في أيار - مايو - سنة ١٦٨٣) وكان جيش الامبراطور النمساوي يتوقع الحصول على إمــدادات جديدة. فانكفأ متمهلاً إلى « فيينا » وقامت قوات الجيش العثماني بمطاردة جيش المجر ، ووصلت إلى فيينا . وأحكمت الحصار حولها يوم ١٧ تموز (يوليو) بقيادة الصدر الأعظم «عمر مصطفى». وتعرضت فيينا لأزمة صعبة كادت تصل بها إلى الاستسلام .

ودارت معارك متفرقة لم تصل إلى الحسم ،وفي تلك الفترة الحرجة برز جيش

كبير من المانيا ومعه فرق بولندية ، ولم تتمكن تهديدات الملك الفرنسي لويس الرابع عشر من ايقاف الجيش الألماني وحلفائه ، إذ تابع هذا الجيش تقدمه حتى قاهلنبرج حيث أنزل بالجيش العثماني هزيمة مدمرة (في ١٢ - ايلول - سبتمبر) .

ووجد عمر مصطفى أنـــه لم يعد قادراً على الاستمرار في الحصار ومجابهة الجيوش المتحالفة فاضطر إلى رفع الحصار عن فيينا، وبذلك أمكن إنقاذ الجيش النمساوي ، إلا أن الطرفين : التركي (والألماني - النمساوي) لم يتمكنا من تطوير الصراع. فقد كانت القوات العثمانية في حاجة لفترة طويلة من إعادة التنظيم بعد الخسائر التي تكبدتها ، وفي الوقت ذاته ظهر خلاف بين الألمان وملك المجر سوبيسكي حول مطالب هـــذا الأخير ، وتدخل البابا لتسوية الخلاف بسرعة وأمكن وضع مخطط بهـــدف انتزاع المجر بكاملها من قبضة الأتراك العثمانيين . وانضمت البندقية إلى الحلف الذي عقد في ٥ آذار (مارس) ١٦٨٤ .

واستطاعت القوات المتحالفة الحاق الهزيمة تـلو الهزيمة بالقوات العثمانية على أرض المجر ، ثم ظهرت قوات الامبراطورية الألمانية أمـــام أبواب بودا في سنة ١٦٨٦ وضربت الحصار عليها لمدة شهرين كاملين، ولم تلبث هذه المدينة في أيدي الألمان ، وخرج العثمانيون منها بعد أن بقيت على امتداد ١٤٥ سنة وهي دعامة الحكم العثماني في المجر .

وأفاد البنادقة من هزيمة العثمانيين فقاموا باحتلال أثينا سنة ١٦٨٧ ، ولكن العثمانيين أخرجوهم منها في السنة التالية ، وحاول البولنديون استرداد قامنج من سنة ١٦٨٤ حتى سنة ١٦٨٧ إلا أنهم فشلوا في ذلك وانضمت روسيا إلى التحالف ولكن محاولتها الاستيلاء على شبه جزيرة القرم باءت بالاخفاق التام .

٣ - نتائج حصار فيينا

أ - النتائج السياسية

انعكست أصداء هزيمـة الجيش العثماني على القيادة التي حاولت الثأر لهزيمتها



المقياس
١ / ١٥٠٠٠٠٠٠
أوربا
ومعركة نيقوبوليس
٧٩٩هـ - ١٣٩٦م
ومعركة فيينا
١٠٩٥هـ = ١٦٨٣م
السويد
النروج
الدانمرك
بروسيا
ليتوانيا
فارصوفيا
بولونيا
الامبراطورية المقدسة
ساكس
كولونيا
سيليزيا
مايانز
بوهيميا
بودا
هنغاريا
بلغاريا
فيينا
النمسا
الدانوب
سويسرا
الساب
بلغراد
البوسنه
صربيا
نيقوبوليس
العثمانيه
كيوسوفو
مونتينيغرو
الامبراطورية
امارة الكنيسه
كورسيكا
روما
امارة نابولي
نابولي
البانيا
سردينيا
المورة
صقليا
البحر الأبيض المتوسط
تونس

فزجت قواتها ضد القوات المتحالفة في فهاج «موهاكس»[1] في المجر سنة ١٦٨٧، ولكن القوات العثمانية منيت بهزيمة أشد من سابقتها ، فنشبت ثورة لم تلبث أن امتدت إلى العاصمة (استانبول) . وانعقد مؤتمر للعلماء في أياصوفيا يوم ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) قرر خلع السلطان محمد الرابع وتعيين سليمان الثاني أخـــاه وفقاً لنصيحة القائم مقام مصطفى بن أحمد كوبريلي نائب الصدر الأعظم. وفي الصيف التالي زحفت القوات الامبراطورية على « بلغراد » فاستولت عليها فيهجوم شنته في ٦ ايلول (سبتمبر) سنة ١٦٨٨ .

وكان البلاط الامبراطوري قد شرع منذ مـدة في اعداد المخططات لاخراج العثمانيين من اوروبا كلها ، ولكن العثمانيين وفقوا إلى أن يجمعوا قواتهم من جديد في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٦٨٩ عندما قفز إلى رئاسة الحكومة صدر أعظم جديد هو « مصطفى بن أحمد كوبريلي » أثر هزيمة منكرة منيت بهـــا القوات العثمانية في نيش [2] وقـــام الصدر الأعظم مصطفى بإعادة تنظيم القوات وكان الحظ حليفه فتمكن من استرداد بلغراد في ٨ تشرين الأول (اكتوبر) ١٦٩٠ .

وأخيراً رقي العرش سنة ١٦٩٥ السلطان مصطفى الثاني الذيخلف عمه أحمد الثاني ، فتقلد بنفسه زمام القيادة العليا في المجر ، وحدّ من سلطة الصدر الأعظم التي تولاها افترة خمسين سنة أفراد عائلة كوبريلي [3] واستطاع السلطان مصطفى الثانيانقاذ طمشوار[4] إلا أن الأمير أوجين أمير سافوا[5] استطاع تدمير الجيش

---

(١) موهاج – أو موهاكس Mohacs مدينة هنغارية تقـــع على الدانوب قريباً من الحدود اليوغوسلافية ، انتصر فيها سليمان الثاني على ملك هنغاريا لويس الثاني في سنة ١٥٢٦ م وانتصر فيها شارل دولورين Charles Delorraine على الأتراك العثمانيين سنة ١٦٨٧ م .

(٢) نيش (Nich ، Nish مدينة يوغوسلافية (في صربيا) تقع على نهر مورافا Morava .

(٣) عائلة كوبريلي Köprülü .

(٤) طمشوار : (Temesvar) Timishoara مدينة تقع في رومانيا على نهر بيغا Beja .

(٥) الامير اوجين Savdie – De – Eujéne (Carijnan) قائد مشهور من قادة الجيش =

العثماني عند « زنطة » على نهر « تيس » في ١١ ايلول (سبتمبر) سنة ١٦٩٦ وهنا تولى مقاليد الادارة في استانبول رجل آخر من أسرة كوبريلي هو «عموجة زادة حسين » .

وفي هـــذه الفترة استأنف القيصر بطرس [١] الحرب أيضاً ضد العثمانيين ، ونجح في سنة ١٦٩٦ في فتح آزوف – آزاق – فقد قبل السلطان الوساطة التي عرضتها عليه بريطانية وهولندة ، وهكذا عقدت في كارلوويج في ٢٦ كانون الثاني (يناير) سنة ١٦٩٩ معاهدة صلح أكره فيها الباب العــالي على التخلي لآل هبسبورغ عن ترانسلفانيا حتى طمشوار ، وعن المجر بكاملها تقريباً ، وعن القسم الأعظم من إسلاُونيا [٢] وكرواتيا . كما أكره على أن يتنازل للبولنديين عن (قامنج) وجميع ما فتحوه في بودوليا وعن اوكرانيا أيضاً ، في حــين تنازل للبنادقة عن المورة وعدد من الأماكن في دلماسيا . والواقع أن السلطان انسحب بعد ذلك إلى أدرنة ، ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى اندلعت الثورة التي أرغمت السلطان على التنازل لأخيه أحمد .

وبالتنازل عن (آزوف) الذي تم بعيد معاهدة (كار لوويج) فتحت أبواب

=الامبراطوري - ابن اوجين موريس ملك سافوا (كونت سواسون واوليمب مانسيني) مواليد باريس (١٦٦٣ - ١٧٣٦) من كبار قادة الحرب في عصره . حارب الأتراك العثمانية ، ثم اشترك في حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٠ - ١٧١٣) وانتصر على ما لبلاكيه ثم انتصر عليه القائد الفرنسي فيلار .

(١) بطرس الأول : Pierre 1er امبراطور روسيا من ١٦٨٢ - ١٧٢٥ من مواليد موسكو (١٦٧٢ - ١٧٢٥) عمــل على تطوير روسيا . ونظم جيشاً قوياً ساعده على تحقيق انتصاره الكبير على الجيش السويدي في معركة بولتافا Poltava سنة ١٧٠٩ واضطر إلى إعادة آزوف إلى العثمانيين سنة ١٧١١ ، ولكنه حصل على ليفونيا ودايستونيا وفنلندا بموجب معاهــدة نيستادت Nystadt في سنة ١٧٢١ .

(٢) إسلاوونيا : Slovenia : Slovénie إحدى الجمهوريات الاتحادية اليوغوسلافية . مساحتها ١٦،٢٢٩ كيلومتر مربــع وعاصمتها لجو بلجانا : Ljubljana .

البحر الأسود في وجه القيصر . وكان حتى ذلك الحين بحيرة عثمانية .

وإذ قد انتهى شارل الثاني عشر [1] إلى أن يصبح الآن خصماً خطراً للدولة العثمانية ، فقد آثر الباب العالي أن يحسن صلاته بـه ، حتى إذا هزم في بولتافا أسبغ عليه حمايته في قلعة بندر العثمانية . ولكن الباب العـــالي لم يشرع في الاستعداد لحرب القيصر إلا في أواخر سنة ١٧١٠ بعد أن عجز عن الاتفاق معه على عودة شارل الثاني عشر إلى بلاده السويد .

وهكذا اضطر القيصر بطرس إلى طرح عملياتـه الحربية في مقاطعات بحر البلطيق ويعود أدراجه في اتجاه الجنوب ، وكانت القوات العثمانية في انتظاره على نهر البروت بحيث كاد يتعرض للإبادة التامة ممـا اضطره إلى توقيع معاهدة تخلت روسيا بموجبها عن بحر آزوف ، ويـــدك حصون طغيان (تاغا نروغ) وتدميرها تدميراً تاماً. وكان الباب العالي قد وافق على هذه المعاهدة التي لم تكن في مصلحته بصورة تامة، فذلك لأنه كان يرغب في استعادة ما فقده من مقاطعات بحكم معاهدة (كارلوويج) .

وفي سنة ١٧١٤ حدث خلاف في الجبل الأسود مما دفع الباب العالي إلى شن الحرب على البندقية ، ومـــا هي إلا فترة يسيرة حتى خسرت الجمهورية آخر ممتلكاتها في المورة وجزر الأرخبيل. وتدخل الأمير أوجين لانتزاع آخر الحصون العثمانية في الأرض الهنغارية ويستولي في السنة التالية على بلغراد نفسها. وتدخلت

---

(١) شارل الثاني عشر Charles XII ابن شارل الحادي عشر ، ولد في استوكهولم (١٦٨٢-١٧١٨) خاض مجموعة من الحروب أبرزها الحرب ضد الدانمرك -في كوبنهاغن- سنة ١٧٠٠ وانتصر في نارفا Narva على القوات الروسية وعلى قوات - اوغست الثاني - ملك بولونيا في كيسو : Kissow سنة ١٧٠٣ ووجه جيشه ضد بطرس الأول (العظيم) ولم يتمكن من إحراز النصر في بولتافا ، فالتجأ إلى أحمد الثالث السلطان العثماني الذي دعمه وساعده من أجل عودته إلى بـــلاده حيث رجع في سنة ١٧١٣ وقتل برصاصة أثناء حصار فريدريك شالد : Fredrikshald (Halden) .

الدول الأوروبية من جديد لعقد معاهدة بازا رورويج[1] يوم ٢١ تموز سنة ١٧١٨ حيث تنازل الباب العالي للامبراطور عن بلغراد وعن كامل منطقتها إلى مصب نهر الآلوثة في الطونة (الدانوب) وتخلى البنادقة بالمقابل عن المورة .

ب - النتائج العسكرية

تظهر النتائج السياسية التي سبق عرضها أن حصار فيينا وفشل العثمانيين في فتحها لم يكن أكثر من مؤشر على تدهور القدرة العسكرية العثمانية . وقد تعرضت القوات العثمانية في مراحل نشوئها وتطورها لبعض الهزائم إلا أنها كانت تخرج من الهزيمة لتحقق نصراً أكبر . ولكن حدث بعد فشل حصار فيينا مجموعة من الهزائم المتتالية والتي تعرضت لها القوات التركية لخسائر فادحة دون أن تحقق نصراً واحداً يوازي إحدى الهزائم .

ويمكن على هذا الأساس اعتبار حصار فيينا نقطة تحول حاسمة انتقلت فيها الامبراطورية العثمانية من الهجوم الاستراتيجي إلى الدفاع الاستراتيجي في حين انتقلت ممالك الغرب وامبراطورياته من الدفاع الاستراتيجي إلى الهجوم الاستراتيجي .

ومقابل ذلك ، يظهر تحول آخر في تعاظم مراكز القوى المحيطة بالامبراطورية العثمانية . فقد أخذت الروسيا في احتلال مركز يسمح لها بتأثير على العلاقات وعلى موازين القوى ، كما يظهر تعاظم قدرة السويد إلى جانب تعاظم قدرة المجر . وظهور كيانات مستقلة لم تلبث أن شكلت مراكز قوى أيضاً مثل ايطاليا علاوة على المراكز الجديدة (اسبانيا) والقديمة (انكلترا وفرنسا) .

وتظهر متابعة الأحداث أيضاً - أن مراكز القوى الجديدة قد اعتمدت في

(١) بازا رورويج : Passarovitz (Passero) رأس على ذروة الطرف الجنوبي الشرقي لصقليا ، انتصر فيه الأميرال بينغ Bynj على الاسبانيين في سنة ١٧١٨ .

الأساس على تطوير قدراتهـا العسكرية القارية والبحرية . وعلى الرغم من توافر قدرات عسكرية رائعة لدى الامبراطورية العثمانية ، إلا أن هـذه القدرات لم تتمكن من التطور بمثل تطور القدرات المجاورة لها . فقد ظهر أن الروسيا قـد عملت على تطوير الأسلحة النارية (المدفعية) والتوسع باستخدامها بأكثر ممـا فعلته الامبراطورية العثمانية و كذلك الأمر بالنسبة لتطوير القـدرة البحرية . وقد أدى ذلك إلى رضوخ السلاطين العثمانيين لما يفرضه الغرب نتيجة عدم توافر القدرة العسكرية التي أخذ الغرب في تطويرها .



« الغمرات ثم ينجلينا »

نداء الحرب للبحرية والذي كان يردده أول قـائد للبحرية الاسلامية « عبد الله بن قيس الجاسي » .

١٠

فتـح قبرص

(٢٨ ﻫ = ٦٤٨ م)

قبرص والحروب الصليبية

١ – الوضع العام .

آ – الوضع على جبهة المسلمين .

ب – الموقف على جبهة الروم (البيزنطيين) .

٢ – غزوة قبرص .

٣ – غزوة قبرص ، وموقعها من الاستراتيجية البحرية .

٤ – قبرص في التاريخ .

٥ – قبرص وأوروبا .

غزوة قـــبرص

والبحرية الاسلامية

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
١٣	٦٣٤	فتح الشام .
٢٠	٦٤٠	فتح مصر .
٢٥	٦٤٥	انتقـاض الاسكندرية ، وإنزال قوات البيزنطيين فيها .
٢٥	٦٤٥	غزو معـــاوية بلاد الروم (غزوات ما وراء الدروب) .
٢٦	٦٤٦	انتقاض افريقية .
٢٨ و ٣٣	٦٤٨ و ٦٥٣	فتح قبرص الأول – والثاني .
٣١	٦٥١	معركة ذات الصواري .
٣٢ و ٤٨	٦٥٢ و ٦٦٨	البحرية الاسلامية تهاجم صقلية .
٥٠	٦٧٠	فتح افريقيا وبناء القيروان (كقاعدة بحرية) .
٥٥	٦٧٤	فتح كريت .

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
٦٣	٦٨٢	مأساة تهوذة ، وقتل عقبة بن نافع .
٧١	٦٩٠	معركة ممس ، ومقتل زهير بن قيس البلوي (يوم البلاء) .
٨٣	٧٠٢	بناء تونس (كقاعدة بحرية) .
٨٥	٤٠٧	غزوة الأشراف (صقلية وجنوب إيطاليا) .
٨٦	٧٠٥	ولاية موسى بن نصير (المد الكبير حتى الأطلسي) .
٨٩ – ٩٠	٧٠٧ – ٧٠٨	فتح جزر البالیئار (مينورقة – ميورقة – يابسة) .
٩١	٧٠٩	الغزوات الاستطلاعية للأندلس .
٩٢	٧١٠	عبور طارق إلى الأندلس – فتح الأندلس .
٩٣	٧١١	عبور موسى بن نصير – فتح الأندلس.

١ – قبرص عبر التاريخ

السنة الهجرية	السنة الميلادية	الأحداث في قبرص
٢٨ و ٣٣	٦٤٨ و ٦٥٣	فتح قبرص الأول والثاني .
١٣٣ – ٢٦١	٧٥٠ – ٨٧٤	نزاع أمويي الأندلس والعباسيين على حكم قبرص .
٢٦٣	٨٧٦	البيزنطيون يسيطرون على قبرص .
٢٩٣ – ٣٥٣	٩٠٥ – ٩٦٤	الطولونيون ينتزعون قبرص من البيزنطيين .
٤٨٣ – ٨٢٨	١٠٩٠ – ١٤٢٤	قبرص تحت حكم الصليبيين (البيزنطيين ثم الغربيين ثم تكوين مملكة قبرص) .
٨٢٨ – ٨٣٠	١٤٢٤ – ١٤٦٠	حكم المماليك للجزيرة .
٨٩٥ – ٩٧٩	١٤٨٩ – ١٥٧١	البندقية تحكم قبرص .
٩٧٩ – ١٢٧٥	١٥٧١ – ١٨٧٨	قبرص تحت حكم العثمانيين .
١٢٩٥–١٣٦٥	١٨٧٨ – ١٩٤٥	قبرص تحت حكم البريطانيين .
١٣٦٥	١٩٤٥	قبرص مستقلة بعد ثورة منظمة ايوكا .

٢ – قبرص – مقارنات عـــددية

١ – المساحات : ١ – قبرص (٣٦٠٠ ميل مربع) .
٢ – لبنان (٣٤٠٠ » ») .
٣ – الكويت (٥٨٠٠ » ») .
٤ – البحرين (٢١٣ » ») .
٥ – فورموزا (١٣٥٠٠ » ») .
٦ – سنغافورة (٢٢٤ » ») .
٧ – جزر سيشل (١٥٦ » ») .
٨ – جزر الكاناري (٢٨٠٠ » ») .

٢ – المسافات الفاصلة بين قبرص واللاذقية ١٠٠ ميل بحري .
وسلوقية ٥٠ » »
ومصر (بور سعيد) ٢٣٦ » »
ورودس ٢٠٠ » »
وكريت ٣٢٥ » »

إن مما حفظ التاريخ لمعاوية بن أبي سفيان، قوله في رسالته إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد ألحّ عليه في غزو البحر وقرب الروم من حمص: « إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم، حتى كاد ذلك يأخذ بقلب عمر » . فكتب الخليفة إلى عمرو بن العاص ، وكان واليه على مصر : « أن صِفْ لي البحر وراكبه ، فإن نفسي تنازعني إليه » . وأجابه عمرو بن العاص : « إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء ، إن ركد خرق القلوب ، وإن تحرّك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق » . فلما قرأه عمر كتب إلى معاوية : « والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ، لا احمل فيه مسلماً أبداً . وقد بلغني أن بحر الشام يشرف على أطول شيء من الأرض ، فيستأذن الله في كل يوم وليلة في أن يغرق الأرض ، فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر المستعصب ؟ وبالله لمسلم واحد أحبّ إليّ مما حوت الروم . وإياك أن تعرض إليّ وقد تقدمت إليك ، فقد علمت ما لقي العلاء مني[1] ولم أتقدم إليه بمثل ذلك » . فلما كان زمن عثمان ، كتب إليه معاوية

---

(١) العلاء المشار إليه هنا هو العلاء الحضرمي ، كان عامل عمر بن الخطاب على البحرين ، فأراد أن يصنع في الفرس شيئاً ، ولم ينظر في ما بين الطاعة والمعصية ، فلم يستأذن الخليفة ، وندب الناس إلى فارس فأجابوه ، وفرقهم أجناداً ، على أحدها الجارود بن المعلى ، وعلى الآخر سوار بن همام ، وعلى الآخر خليد بن المنذر بن ساوى ، وخليد على جميع الناس . فخرجوا إلى =

يستأذنه في غزو البحر مراراً ، فأجابه عثمان بآخره إلى ذلك وقال له : « لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم . خيِّرْهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعِنْه » . ففعل ، وانصرف لتجهيز القوات وغزو البحر [1] .

١ – الوضع العام

آ – الوضع على جبهة المسلمين

خاضت قوات العرب المسلمين معارك قاسية ، وجاهدت جهاداً مريراً حتى تمَّ لها الوصول إلى الحدود الطبيعية في بلاد الشام والعراق ومصر .

ويُظهر تحليل الأعمال القتالية التي حدثت في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وما صدر عنه من أقوال ، أنه كان يلتزم بمبادىء واضحة وأسس ثابتة في إدارة الحرب ، أبرزها :

= اصطخر ، وحالت الفرس بين المسلمين وبين سفنهم ، فقام خليد في الناس فخطبهم ثم قال : « أما بعد ، فإن القوم لم يدعوكم إلى حربهم ، وإنما جئتم لمحاربتهم ، والسفن والأرض لمن غلب ، فاستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين » . فأجابوه إلى ذلك ، ثم صلوا الظهر ، ثم ناهدوهم فاقتتلوا قتالاً شديداً بمكان يدعى طاوس ، فقتل سوار والجارود ، وقتل من أهل فارس مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها قبلها . ثم خرجوا يريدون البصرة ، ولم يجدوا إلى الرجوع في البحر سبيلاً . وأخذت الفرس منهم طرقهم ، فعسكروا وامتنعوا في نشوبهم . ولما بلغ عمر صنيع العلاء ، أرسل إلى عتبة بن غزوان يأمره بإنفاذ جند كثيف إلى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا . وأرسل عتبة جيشاً كثيفاً في اثني عشر ألف مقاتل (فيهم عاصم بن عمرو ، وعرفجة بن هرثمة ، والأحنف بن قيس وغيرهم) . وكان أهل اصطخر قد جمعوا أهل فارس حيث أخذوا الطريق على المسلمين ، وتوافت إلى المسلمين أمدادهم ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ففتح الله على المسلمين وقتل المشركين ، وأصاب المسلمون منهم ما شاؤوا ، ورجع المسلمون إلى البصرة سالمين .

(تاريخ الأمم والملوك – الطبري – وابن الأثير – الكامل في التاريخ – أحداث سنة سبع عشرة للهجرة)

(١) الكامل في التاريخ – ابن الأثير – أحداث سنة ثمان وعشرين للهجرة .

١ – الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة .

٢ – الاقتصاد بالقوى والحرص على العرب المسلمين .

٣ – إقامة المجتمع الاسلامي في المناطق التي يتمّ فتحها .

٤ – تحقيق التوازن بين جبهات القتال والمؤخرات .

٥ – تطبيق استراتيجيات الهجمات الوقائية والحروب التشتيتية .

وكانت تلك المبادىء والأسس تتوافق مع هدف الحرب عند العرب المسلمين، بقدر ما تتوافق مع تكوينهم ومع قدراتهم القتالية (البشرية). ولكن، وكما قال الأحنف بن قيس : « لم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدُهما صاحبَه » .

وهكذا تابع الروم والبيزنطيون صراعهم ، وكان من السهل متابعة الصراع مع الفرس بدون وجود فواصل جغرافية ، إلا أن الصراع مع الروم البيزنطيين تطلّب سياسة استراتيجية مغايرة . فقد كان باستطاعة البيزنطيين الإفادة من قدرتهم البحرية لتوجيه تهديدهم ضد المدن الساحلية على امتـداد سواحل بلاد الشام ومصر . وكانت عملية الهجوم البحري على الاسكندرية (سنة ٢٥ هـ) من أكبر العمليات التي أبرزت أنه من المحال ضمان أمن الحدود الاسلامية ،والانصراف لبناء المجتمع الاسلامي ، مـا لم يتم وضع حد حاسم لتحدّيات الروم البحرية ، وانتزاع المجال الحيوي الذي يستخدمونه لإعاقة فتوح المسلمين ومنعهم من تحقيق هدف الحرب ، إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

لقد عمل قادة العرب المسلمين على اتخاذ التدابير الوقائية لحماية قواعد المسلمين، فوجّهوا الحملات إلى ما وراء الدروب (لإشغال الروم بأنفسهم عن المسلمين) ، فكانت الصوائف والشواتي وحاميات الثغور هي وسائل ما يمكن أن يطلق عليها الاسم الحديث وهو « الهجمات الوقائية أو الضربات الإجهاضية المسبقة » . إلا أن هذه الوسائل – بالرغم من فعاليتها – لم تحقق الهدف المطلوب ، وبقيت ذكرى هجمات الروم ووصولهم حتى حمص (سنة ١٧ هـ) ماثلة أبداً أمام معـاوية بن

أبي سفيان الذي أدرك خطر الروم ، فأطلق كلمته المشهورة : « **شدّوا وثاق الروم ، فبها تضبطون أمم الأرض** » .

وتأكدت نظرة معاوية للأمور من خلال متابعته للأحداث، فقد وجّه بعض الحملات إلى ما وراء الدروب ، وقاد هو ذاته بعض هذه الحملات ، مثل حملته في سنة ٢٥ هـ ، وقيادته للصائفة ، ونقله جماعة من أهل الشام وقنسرين إلى الحصون بين انطاكية والطرطوس ، إذ ظهر له عدم وجود أحد فيها بعد أن عمل الروم على سحب أهلها معهم لترك منطقة فراغ مع حدود بلاد المسلمين ، فعمل على إقامة الحاميات على امتداد الحصون والثغور المتاخمة لبلاد الروم . ولقد كانت هذه التدابير الدفاعية غير كافية لحسم الصراع المسلح، فاستمر البحث عن الوسائل المناسبة والتي يمكن لها تحقيق هدف حرب المسلمين بفاعلية أكبر،وبقدرة أعظم.

ووجد معاوية أن تهديد الروم الأساسي إنما يأتي عن طريق البحر ، نظراً لما توافر للامبراطورية البيزنطية من سيادة مطلقة في تلك الفترة على البحر الأبيض المتوسط ، فهداه تفكيره للحد من خطر هذا التهديد ، عن طريق تركيز الاهتمام بردع الخطر وإيقافه ، وفقاً لذات الأسس الاستراتيجية التي استخدمها المسلمون في الحروب البرية (القارية)، والتي جسّدها نابليون بونابرت بعد أحد عشر قرناً وهي « **الهجوم ، الهجوم ، ولا شيء غير الهجوم** » . إلا أنه لم يكن باستطاعة معاوية تقرير أمر عظيم كهذا ، وهو والٍ على الشام ، فبذل جهده لفترة طويلة حتى أمكن له الحصول على الموافقة من أمير المؤمنين لبناء القدرة البحرية .

ولم يكن العمل سهلاً ، إلا أنه لم يكن من المحال على قائد مثل معاوية تحقيقه « فأسرع لاستنفار العمال ومن لهم خبرات في صناعة السفن وحشدهم في عكا ، ورمّم الحصن والمرفأ وجعله داراً لصناعة السفن وتجهيز الأسطول العربي وإعداده ، كما رمّم مدينة صور وشحنها بالمقاتلة »[١] .

---

(١) فتوح البلدان – البلاذري – ١٢٤ .

« ولما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم ، تقرّب كل ذي صفة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمماً. وتكررت ممارستهم البحر وثقافته ، واستحدثوا بصراء بها ، فتاقت نفوسهم إلى الجهاد فيه، فأنشأوا السفن والشواني ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب إلى هذا البحر وعلى حافته » [1] .

لم تكن قضية إنشاء القدرة البحرية هي مجرّد إقامة السفن وصناعتها، بقدر ما كانت قضية تكوين الوحدات المقاتلة التي يمكن لها التعامل مع « البحر » بكفاءة عالية . وعرف معاوية أن أهل اليمن هم أفضل من يعتمدهم لركوب البحر ، فأخذ في تنظيمهم وجمعهم وقال لهم : « إني أيمن بكم وأعرف طاعتكم ، وقيس فيهم خلاف ونكد في غزو البحر » [2] .

وعندما أنهى معاوية استعداداته كتب إلى أمير المؤمنين – عثمان رضي الله عنه – فطلب إليه أن يصطحب معه زوجته . وكان المسلمون يفعلون ذلك في حروبهم ، لإظهار النكاية بالعدو ، والعزم على بلوغ النصر .

ب – الموقف على جبهة الروم (البيزنطيين)

لقد جاء التطور الكبير في تكوين العرب بعد ظهور الإسلام ليشكل صدمة قوية لامبراطوريتي العالم القديم : الفرس والروم . ثم ظهرت القدرة العسكرية للعرب المسلمين بقياداتها الرائعة ، وبأسس استراتيجيتها وبتطبيقها الرائع لمبادىء الحرب ، ثم بذلك النموذج الفريد للمجاهدين في سبيل الله ، ليزيل نفوذ الامبراطوريتين العظميين ، ولينتزع منهما مجالهما الحيوي .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ـ فصل قيادة الأساطيل ـ طبعة دار الكتاب اللبناني ١/٨٤٤-٤٤٩.

(٢) الأغاني – الأصفهاني – ٢ / ١٧٢ .

وإذا كان بالمستطاع تصفية الامبراطورية الفارسية بعد مرحلة الصراع المرير، فقد احتفظت الامبراطورية البيزنطية بالكثير من قدرتها، وذلك للأسباب التالية:

١ - وجود اتصال بري بقارة اوروبا، مما كان يضمن لها توافر قدرة بشرية وإمكانات قتالية وعمق استراتيجي لا يتوافر للامبراطورية الفارسية.

٢ - وجود مجـال بحري يمكن استخدامه كمجال حيوي معارض عن المجال الحيوي القاري في بلاد الشام ومصر.

وقد أخذت الامبراطورية البيزنطية - على هذا الأساس - بتكييف نفسها مع الظروف الجديدة، فوضعت قواعد سياسية وأسس مستجدة لاستراتيجيتها، أبرزها:

١ - استنزاف قدرة العرب المسلمين بصراع مستمر عبر الثغور.

٢ - الإفادة من القدرة البحرية لتهديد المدن والسواحل.

٣ - متابعة التحريض لإضعاف عملية بناء المجتمع الإسلامي والاعتماد في ذلك على «أنصار الروم» في البلاد التي فتحها المسلمون.

والشواهد بعد ذلك كثيرة، أبرزها - خلال تلك الفترة - استثارة أهـل الاسكندرية للانتقاض وإجراء إنزال بحري لقوات الروم في سنة ٢٥ هـ، وإعادة الفتح الثاني للاسكندرية. أما على مسرح عمليات الشام فأبرز حدث هو استثارة الروم لأنصارهم من القبائل العربية - أمثال قبيلة اياد بن نزار - [1] والقيـام بهجوم شامل وصل إلى مدينة حمص في سنة ١٧ هـ.

---

(١) قبيلة اياد بن نزار، من القبائل العربية التي كانت مقيمة في الجزيرة، وقد استمرت في ولائها للروم البيزنطيين والاتصال بهم، وفي سنة ١٧ هـ اتصلت بقايا القبائل العربية التي حافظت على روابطها مع الروم، وتم الاتفاق على القيام بهجوم شامل. ووصل الروم بهجومهم إلى حمص، وأمكن لأبي عبيدة وخالد بن الوليد تدمير قوات الروم. وقامت قوات المسلمين من الكوفة والبصرة فهاجمت الجزيرة. والتجأت قبيلة اياد بن نزار إلى الروم، وبلغ ذلك عمر بن الخطاب =

وبالرغم من نجاح العرب المسلمين في إحباط هذه الأعمال العدوانية، وتكبيد الروم خسائر فادحة، إلا أنهـــا كانت تهدد أمن البلاد حديثة العهد بالفتوح، وتعيق عملية البناء الداخلي، علاوة على ما كانت تتطلبه من تخصيص جهد إضافي.

ولقد توافرت للقيادة البيزنطية خبرات كثيرة في تنسيق العمليات البرية — البحرية، كما توافرت لهـا خبرات بالتعامل مع الشعوب المحاربة «مثل هجمات الشعوب البرابرة على تخوم الامبراطورية البيزنطية في الغرب - كالهون والقوط» علاوة على ما توافر للقيادات السياسية من خبرات في تكييف نفسها مع ظروف النصر والهزيمـة وظروف القوة والضعف. فكان من المتوقع أن يستمر الصراع المرير على جبهة المسلمين مع البيزنطيين. وقد أدرك معاوية تلك الحقائق جميعها، وحدد بدقـــة طرائق التعامل معها، فانصرف لبناء القدرة البحرية. وعندما أكمل استعداداته حشد القوات في عكا، وانطلق بهم إلى العـــالم الجديد (عالم البحر).

٢ – غزوة قبرص

عيّن معاوية لقيادة القوة البحرية عبدالله بن قيس الجاسي حليف بني فزارة، وكان من رجال البحر المعروفين، ثم إنــه ركب البحر ومعه زوجته «أم حرام بنت ملحان الأنصارية»، ونفر من كبار الصحابة فيهم أبو ذر الغفاري وعبادة ابن الصامت والمقداد وأبو الدرداء وشداد بن أوس. ومضى المسلمون إلى قبرص ففتحوها صلحاً، وتضمنت اتفاقية الصلح في سنة ٢٨ هـ : «أن يؤدي أهـــل قبرص للمسلمين جزية مقدارها سبعة آلاف دينار كل سنة، يؤدون إلى الروم

= الذي كتب إلى هرقل ملك الروم: «انه بلغني ان حياً من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك، فوالله لتخرجنه أو لننبذن النصارى ثم لنخرجنهم إليك» فما كان من امبراطور الروم إلا أن أعاد قبيلة إياد بن نزار. فحملوا إلى المدينة المنورة، حيث فرض عليهم أمير المؤمنين الشروط التي لا تسمح لهم بمعاودة التمرد أو الاتصال بالروم.

(تاريخ الطبري - ذخائر العرب ٤/٥٥)

مثلها لا يمنعهم المسلمون عن ذلــك ، وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم ممن وراءهم، وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم، ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم،وأن يقوم إمام المسلمين باختيار البطريق عليهم منهم».

ويظهر بوضوح أن معاوية قد ضمن للمسلمين وفقاً لبنود هذه المعاهدة :

١ً – فرض الجزية على أهــل الجزية ، دون أي التزام بالدفاع عنهم ، نظراً لوجود رغبة لدى أهل الجزيرة بالإبقاء على الروابط مع الروم (البيزنطيين) .

٢ً – استخدام الجزيرة كقاعدة إنذار للمسلمين، حيث يجب على أهلها إخبار المسلمين عن التحركات المعادية ، مــع استخدام الجزيرة كقاعدة لدعم البحرية الإسلامية بما يمكن أن يطلق عليها حديثاً اسم « التأمين الإداري »، وذلك وفقاً لما تضمنته فقرة « مرور المسلمين إلى العدو عليهم » .

٣ً – محــاولة فصل الكنيسة القبرصية عن الكنيسة البيزنطية ، بتعيين بطريرك لا يكون معادياً للمسلمين ، مع عدم التدخل في الشؤون الكنسية .

أقلع الأسطول الإسلامي من قبرص بعد إنهــاء المهمة ، « وتوفيت ام حرام زوج عبدالله فيها عندما سقطت من فوق بغلة كانت تركبها ، فدفنت هناك »[1]. ووصل الأسطول إلى الشام، وتابع أمير البحر « عبدالله بن قيس الجاسي » مهمته لحمايــة السواحل العربية لبلاد المسلمين [2] ، وحدثت بعد ذلك معركة ذات الصواري ، وخرج منها اسطول المسلمين منتصراً .

---

(١) كان الرسول صلى الله عليه وسلم قــد أخبرها عندما أسلمت أنها ستكون أول امرأة تركب البحر وأنها ستلقى حتفها في غزاتها .

(الطبري – وابن الأثير – غزوة قبرص)

(٢) عبدالله بن قيس الجاسي : أول قائد للبحرية الإسلامية، عينه معاوية ، فغزا خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة في البحر ، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده ، وألا يبتليه بمصاب أحد منهم ، ففعل ، إذ غزا خمسين غزوة لم يغرق فيها أحد ولم ينكب ، حتى إذا أراد الله أن يصيبه وحده خرج في قارب طليعة (استطلاع) فانتهى إلى المرقى من أرض الروم (جزيرة =

وفي سنة (٣٣ هـ = ٦٥٣ م) نقض حاكم قبرص اتفاقيته المعقودة مع معاوية فأعار الروم بعض القطع البحرية، ممـــا دفع معاوية إلى توجيه قوة مكونة من خمسمائة مركب، وحاصر قبرص حتى فتحها عنوة، وبعد أن تم فتح الجزيرة، جهز معاوية جيشاً من اثني عشر ألف مقاتل، ونقله إلى قبرص بمهمة حمايـــة الجزيرة. فأقام هذا الجيش، وعمر المساجد، واستطاع أن يشكل تهديداً قوياً لأساطيل الروم وتحركاتهم البحرية. وقد استمر بقاء هذا الجيش في قبرص حتى أيام يزيد بن معاوية. وعمل المسلمون في الجزيرة على بناء الحصون وإقامة المراصد.

عاود أهل قبرص تمردهم في سنة ١٢٥ هـ، واتصلوا بالروم، فعمل الوليد بن يزيد على تجهيز جيش بقيادة أخيه الغمر بن يزيد بن عبد الملك، وعيّن الأسود بن بلال المحاربي أميراً للبحر، وتوجهت هـذه القوة إلى قبرص وعاودت احتلالها، وخيّروا أهلها بـين المسير إلى الشام أو الالتحاق ببلاد الروم. واختار قسم من السكان الذهاب إلى بـلاد الشام، فحملوا إليها. ورغب القسم الآخر الالتحاق ببلاد الروم، فانتقلوا إليها. وأرسلت قوات من العرب المسلمين للبقاء في الجزيرة والإقامة فيها.

=كريت عام ٥٧ هـ=٦٧٦ م) وعليه سؤال (متسولون) يعتبرون بذلك المكان، فتصدق عليهم، فرجعت امرأة من السؤال إلى قريتها، فقالت للرجال: هل لكم في عبد الله بن قيس؟ قالوا: وأين هو؟ قالت: في المرقى. قالوا: أي عدوة الله! ومن أين تعرفين عبدالله بن قيس؟ فوبختهم، وقالت: أنتم أعجز من أن يخفى عبدالله على أحد. فثاروا إليه، وهجموا عليه، فقاتلوه وقاتلهم فأصيب وحده وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه، فجاؤوا حتى أرقوا، والخليفة منهم سفيان بن عوف الأزدي فخرج فقاتلهم، فضجر، وجعل يعبث بأصحابه ويشتمهم، فقالت جارية عبدالله: «واعبد الله، ما هكذا كان يقول حين يقاتل»! فقال سفيان: وكيف كان يقول؟ قالت: «الغمرات ثم ينجلينا». فترك ما كان يقول: ولزم «الغمرات ثم ينجلينا». وقيل لتلك المرأة بعد: «بأي شيء عرفت عبدالله؟ قالت: بصدقته، أعطى كما يعطي الملوك، ولم يقبض قبض التجار. أو - كان كالتاجر - فلما سألته أعطاني كالملك، فعرفت أنه عبدالله بن قيس».

٣ – غزوة قبرص وموقعها من الاستراتيجية البحرية

كان من أول نتائج غزوة قبرص تطوير الصراع في البر والبحر، ورفع التهديد عن حدود المسلمين، ونقل الصراع إلى بلاد الروم (البيزنطيين) . واضطر الأسطول البيزنطي إلى نقل ثقله في اتجاه غرب المتوسط، حيث كانت الفتوحات الإسلامية لا تزال بعيدة عن هناك .

وقد أفاد معاوية من تعاظم القدرة البحرية الإسلامية، فنسق عمليات حصار القسطنطينية في البر والبحر، وأشهرها حصار سنة ٥٧ هـ .. وكان رد فعل البيزنطيين هنا أكثر ضراوة مما كان عليه رد فعلهم عندما تم انتزاع مجالهم الحيوي في الشام، إذ لم تكن معركة ذات الصواري أكثر من محاولة لإجهاض حركة تطوير الأسطول الإسلامي في بداية عهده . وقد عمل البيزنطيون بعدئذ على تحريض أنصارهم وعملائهم ممن استخدمهم معاوية لبناء البحرية وصناعة السفن، فعمل هؤلاء على إحراق الأسطول الذي كان معاوية قد حشده لغزو بلاد الروم، وهربوا إلى القسطنطينية .

وأفاد معاوية من هذا التحدي، فلم يعد يستخدم في بحريته إلا العرب المسلمين . وكان في ذلك فرصة مناسبة لتطوير خبرات العرب المسلمين في مجال القدرة البحرية، إذ لم تمض أكثر من فترة وجيزة حتى ظهرت للوجود (بعد إحراق الأسطول سنة ٣٤ هـ) قطع جديدة ونماذج جديدة للقيام بمختلف الواجبات (الحراقات) مع تطوير الشواني (جمع شونة وهي المركب المعد لحمل الجنود ونقلهم) .

استمر تحدي الروم البحري، وقد شهدت عمليات فتح أفريقية انتكاسات مريرة بسبب نفوذ الروم البحري في غرب المتوسط، وكان من أبرز النتائج لتعاظم قدرة الروم في غرب المتوسط حدوث مأساة تهوذة ومقتل عقبة بن نافع (سنة ٦٣ هـ = ٦٨٢ م)، ثم حدوث مأساة « يوم البلاء » واستشهاد زهير بن



الشرق الأدنى في القرن الثالث عشر

قيس البلوي وخيرة المجاهدين في سبيل الله (سنة ٧١ هـ = ٦٩٠ م) .

وجابه قادة المسلمين هـــذا التحدي بإقامة القواعد البحرية المختلفة ودور صناعة السفن (في مصر وتونس) ، وأصبح المسلمين في مـا بعد ثلاثة أساطيل تنطلق من ثلاثة قواعـد في الشام ومصر وتونس ، وأضيف إليها بعدئذ اسطول الأندلس، وبذلك أمكن القضاء على المجال الحيوي للروم، وتحويل البحر الأبيض المتوسط إلى بحر حمل طويلاً اسم « بحر الشام » ، ممـــا ساعد بالتالي على دعم الفتوحات وتحقيق الاستقرار في بلاد المسلمين .

وتبقى الظاهرة الأكثر أهمية في نتائج معركة قبرص ، هي تطوير الأعمـال البحرية بتنسيق قام مع الأعمال البرية ، وتظهر متابعة الاستيلاء على جزر البحر الأبيض المتوسط (صقليا - كريت - الباليئار) أنها كانت متوافقة مع التحرك البري ، فكانت الجزر هي هامش الحيطة البحري للدفاع عن الأقاليم التي يفتحها المسلمون في المغرب الإسلامي .

وتبقى غزوة قبرص، وصيحة عبدالله بن قيس التجيبي «الغمرات ثم ينجلنيا» أساس التطورات التالية كلها .

٤ - قبرص في التاريخ

قـــد يكون من الصعب تقويم أهمية « غزو قبرص » في إطارها العسكري المحدود ، تمامـاً كمثل صعوبة تقويم أهمية قبرص على أساس مساحتها الجغرافية (التي لا تتجاوز ٣٦٠٠ ميل مربع) .

لقد بقيت جزيرة قبرص درع الدفاع عن بلاد المسلمين في الشام ومصر. حتى إذا ما بدأ نشاط الغرب في الإعداد للحملات الصليبية ، كان أول عمل قام بـه ملك القسطنطينية « نقفور » « أن أرسل حملة إلى قبرص أعـادت سيطرة البيزنطيين المطلقة على الجزيرة »[1]، وذلك في سنة ٩٦٥ م ، أي قبل بدء تحرك

(١) تاريخ الحروب الصليبية - ستيفن رنسيمان - ١/١٥ و٣١٥ .

الصليبيين بعشرين سنة تقريباً .

وظهرت أهمية الجزيرة بعدئذٍ « إذ أصبحت سنداً بالــغ الجود والكرم للصليبيين ، حيث كانت كميات المؤن تصل إلى ميناء السويدية – سان سيمون – ومعظمها من قبرص » .

واتخذت بحرية البيزنطيين من قبرص قاعدة لهـــا أثناء الحملات الصليبية . وكان الصليبيون يستأجرون السفن من الجنويين لقطع المسافة بين قبرص واللاذقية.

وكان دور قبرص كبيراً في فرض هيمنة البيزنطيين على الحمـلات الصليبية – وعلى سبيل المثال – فعندما حاول كونت طرابلس عـــدم إرسال الأموال التي فرضها عليه الامبراطور البيزنطي ، هدد السفير البيزنطي بقطع مـــا يرد إلى طرابلس من قبرص – من المؤن – مما اضطر كونت طرابلس للإذعان . على أن ما حصلت عليه قبرص من الثروة استثار شهية الصليبيين أنفسهم ، فقام رينالد شاتيون أمــير انطاكية (سنة ١١٥٦) بالإغارة على قبرص ونهبها ثم تدميرها . ولم تنتعش جزيرة قبرص بعد هذا التخريب لمدة طويلة،والذي قام به الفرنسيون وحلفاؤهم من الأرمن . وتبع ذلك قيام المصريين بالإغارة على الجزيرة التي باتت محرومة من وسائل الدفاع. وعندما توجهت الحملة المشتركة من الفرنج والبيزنطيين لمهاجمة مصر سنة ١١٦٩ ، جعلت من قبرص قاعدة لهــا ، حيث أقلع الأسطول الأساسي إلى جزيرة قبرص ، وانتظر فيها حتى أواخر ايـــلول (سبتمبر) سنة ١١٦٩ ، حيث توجه منها للهجوم على مصر وحصار دمياط [١] .

وعندما قاد ملك انكلترا « ريتشارد قلب الأسد » حملته للانتقام من المسلمين الذين حرروا بقيادة صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس بعــد معركة حطين ، كان أول عمل له هو اتخاذ جزيرة قبرص قاعدة له ، فعمل على فتحها سنة ١١٩١ م ، وذلك « نظراً لمــا تمتلكه هذه الجزيرة من أهمية حربية في الدفاع عن الساحل

---

(١) المرجع السابق ٣/٢٤ و٦١ و٢٢٣ و٥٦١ – ٥٦٣ و٦٢٤ – ٦٢٦ .

السوري ، ومـــا سينجم من الخطر لو قام ملكها بإجراء تحالف وثيق مع صلاح الدين » .

وهكذا أصبحت الجزيرة تحت حكم ملك انكلترا « ريتشارد » ، إلا أن الاضطرابات لم تلبث أن اجتاحت جزيرة قبرص ، فبـاع الملك ريتشارد الجزيرة إلى إحدى الطوائف الدينيـة « فرسان الداوية » ، ولكن هؤلاء لم يلبثوا طويلاً حتى باعوها للملك « جاي » في السنة التالية (سنة ١١٩٢) . وعندما أخـــذ المسلمون في تحرير بلادهم من الصليبيين وطرد مـــلوك الفرنج ، أضحت جزيرة قبرص موطن إغراء متصل ، لا بالنسبة للمهاجرين القادمين من الغرب للنزول بهذه الجزيرة البهيجة فحسب ، بل أيضاً بالنسبة للبارونات الذين كانوا حكاماً في فلسطين ، ثم تجرّدوا من إقطاعاتهم وإماراتهم ، وأصبح عليهم البحر الضيق للوصول إليها.

وإذا كان سادة قبرص يودّون اجتياز البحر للقتال من أجل الصليب كلما اقترب الخطر ، فسوف تكون قبرص بالغة الأهمية للشرق الفرنجي . ولهذا تقرر أن تلتزم حكومة قبرص بالقوانين التي كانت سائدة في مملكة بيت المقـــدس ، وتنظيم الكنيسة ، وإقامة الأسقفيات في نيقوسيا وبافوس وفاماغوستا وليماسول ، وإقامة دار المحفوظات والوثائق بجزيرة قبرص .

وفي سنة ١١٩٨ تمّ الاعتراف بقبرص كمملكة ، وبذلت محاولات لتوحيـــد مملكتي بيت المقدس وقبرص ، إلا أن ملك قبرص رفض هذا التوحيد ، حتى لا تتكفل قبرص بنفقات بيت المقـــدس . وتحوّلت قبرص إلى مركز للصراع بين ممالك الغرب الذين أخذهم التنافس للسيطرة على الجزيرة. وشهدت أرض الجزيرة صراعات داميـــة واضطرابات مثيرة ، وأخذت القبضات القوية في تنـاوب السيطرة عليها .

وكانت قبرص هي قاعدة الملك لويس التاسع ، الذي قاد الحملة الصليبية ضد مصر سنة ١٢٤٨ ، فوصل إلى الجزيرة في ١٧ ايلول (سبتمبر) سنة ١٢٤٨ وأقام

فيها . وكان ملك قبرص قد أصبح الموجّه للتعاون مع المغول (التتار) للقضاء على المسلمين .

وأمضت الحملة الفرنسية في قبرص سنة كاملة ، حيث أنها لم تستأنف تحركها إلى مصر إلا في أيار (مايو) سنة ١٢٤٩ ، حشد الصليبيون أثناءها كل ما توافر لهم من قدرات للسيطرة على مصر . وعندما تمّ تدمير القوات في « المنصورة » ، انسحب الأسطول إلى قواعده ، وكان قادته من البيازنة والجنويين .

وفي سنة ١٢٦٣ تولى الحكم في قبرص الملك هيو الذي تمّ له توحيد مملكتي قبرص وعكا ، فأصبحت مملكة قبرص هي المسؤولة عن حماية عكا ، آخر قلاع الصليبيين في المشرق الإسلامي . وهكذا ، فعندما تحرّك الظاهر بيبرس للهجوم على عكا سنة ١٢٦٥ ، قام ملك قبرص بإرسال النجدات إلى عكا ، وانتقل هو إلى عكا لقيادة إغارة على الجليل كان نصيبها الفشل .

وعندما ظهرت التحوّلات الحاسمة في المعارك البرية التي قادها بيبرس ضد الصليبيين في الشام ، أرسل الظاهر بيبرس أسطولاً مؤلفاً من سبع عشرة سفينة لمهاجمة قبرص ، بعد أن سمع أن ملك قبرص قد غادر عكا إلى جزيرته ، وظهر أسطوله بصورة مباغتة أمام ليماسول . وبالرغم من عدم تحقيق نتائج حاسمة ، وإصابة القوة البحرية المصرية بخسائر فادحة ، إلا أن هذه العملية برهنت على تحوّل الموقف بصورة كاملة لمصلحة المسلمين .

وعندما تمّ تحرير عكا سنة ١٢٩١ ، وخرج الصليبيون نهائياً ، أضحت مملكة قبرص الحكومة المسيحية الوحيدة التي اشتدّ اهتمامها بالأرض المقدسة . وظلّ الملوك لأجيال عديدة مقبلة يحرصون – بعد أن يتم الاحتفال بتتويجهم ملوكاً على قبرص في نيقوسيا – على أن يتلقوا تاج بيت المقدس في فاماغوستا التي تعتبر أقرب مدينة لملكهم الضائع . يضاف إلى ذلك أن الساحل السوري كان بالغ الأهمية من الناحية الاستراتيجية لجزيرة قبرص . ولهذا صمّم الملك الأشرف خليل (محرر عكا) على فتح قبرص ، وأمر بعمارة مائة سفينة ، وكان يهتف

دائماً : قبرص ، قبرص ، قبرص . غير أن تهديدات المغول أعاقته عن تنفيذ أهدافه »[1] .

وعندما تولى بطرس الأول عرش قبرص (سنة ١٣٥٩) ، وضع كل همّه في إيقاد شعلة الحماسة للقيام بحملة صليبية جديدة. ونجح في النهاية بتنظيم قوة ضخمة أمكن حشدها من كل أوروبا ، وحملتها ١٠٨ سفن قبرصية بالإضافة إلى سفن أخرى ، بحيث بلغ عدد قطع الأسطول المحتشد في قبرص أكثر من ١٦٥ سفينة من أنواع مختلفة . وقاد ملك قبرص ذاته هذه الحملة التي وصلت الاسكندرية في ٩ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٣٦٥ م . ورغم أن هذه الحملة لم تستمر أكثر من أيام قليلة لا تزيد على الأسبوع ، إلا أن الدمار الذي ألحقته بالاسكندرية لا يمكن له أن يوصف .

٥ – قبرص وأوروبا

أخذ الأتراك العثمانيون على عاتقهم حماية العالم الإسلامي ، وتولوا قيادة الجهاد ضد الصليبيين ، ونقلوا الصراع من آسيا إلى أوروبا . واحتفظت قبرص بأهميتها كقاعدة متقدمة للصليبيين، بالرغم من انتقال مسارح العمليات وتحرك مراكز ثقل القتال .

وكان الأتراك العثمانيون قد أخذوا في الظهور على مسرح الأحداث مع نهاية الحروب الصليبية في المشرق . وكان توجّههم في البداية قارياً (برّياً) ، إلا أنهم أدركوا بسرعة أهمية البحر ، فعملوا على تكوين قوّة بحرية بقيادة قبيلة المنتشا ، واجتاحوا شواطىء بحر إيجه ، بل فتحوا رودس ، وأخضعوها لحكمهم وأخرجوا منها فرسان القدّيس يوحنا سنة ١٣١٠ ، ولكن البندقية تحالفت مع قبرص ، فقضوا على سلطة العثمانيين واحتلوا أزمير في سنة ١٣٤٤ م .

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية – ستيفن رنسيمان – ٣ / ٨٩ – ٩٥ و١١٥ و١٢٩ و١٥٩ – ١٦١ و٤٩٨ و٥٤٧ و٥٧٢ .

وفي سنة ١٤٦٣ ، كانت البندقية تقود عمليـة تحريض القوى – في فارس حيث أسرة اوزون – للعمل ضد العثمانيين . وكان هناك أسطول للبنادقة يتخذ من قبرص قـاعدة له للعمل على امتداد الشواطىء الجنوبية من آسيا الصغرى ، محتلاً عدداً من المناطق الساحلية .

وفي سنة ١٤٩٩ نشبت الحرب بين العثمانيين والبنادقة . وبعـد حملات ثلاث كانت سجالاً بين الفريقين ، عقـــد السلطان بايزيد مع البندقية صلحاً احتفظ بموجبه البنادقة بقبرص وناقسوس ، وحصل العثمانيون على لبَانتي (ناوبلاقتوس) ومسينا .

وكان بقاء قبرص في قبضة البنادقة ، واستخدامها قـاعدة للعدوان ، سبباً في تجدُّد القتال سنة ١٥٧٠ ، إذ رفضت البندقية التنازل عن قبرص للامبراطورية العثمانية ، وأمكن للعثمانيين الاستيلاء عليها ، فقامت البندقية بزجّ أسطولها مع الأسطول الاسباني والأسطول النمساوي (دون جوان) ، الذي قاد الأساطيل المتحالفة ودمَّر الأسطول العثماني في مرفأ لبَانتي ، في تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٥٧١ ، ولكن العثمانيين استعادوا قدرتهم البحرية بمـا يسمح لهم بالتفوُّق على أساطيل الغرب ، مما اضطرّ البندقية لعقد صلح مع العثمانيين في آذار (مارس) سنة ١٥٧٣ تنازلوا بموجبه عن قبرص للعثمانيين .

وقامت روسيا بشنّ الحرب على السلطنة العثمانية في حزيران (يونيو) سنة ١٨٧٧ ، ووصلت قواتهـا إلى أدرنة في كانون الثاني (يناير) ١٨٧٧ . وتحرك الأسطول الانكليزي لدعم العثمانيين ، وتوقفت الحرب عنـدما عقدت معاهدة « سان ستيفانو » ، وحصلت انكلترا على جزيرة قبرص « مكافأة لها على موقفها من العثمانيين .

وكان لجزيرة قبرص دورها الكبير في عصر الاستعمار (القرن التاسع عشر) ، إذ بقيت قاعدة أساسية من القواعد البحرية البريطانية في البحر الأبيض المتوسط . وبقيت كذلك حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وحصول قبرص على استقلالها .

« وهنـاك شواهد كثيرة تشير إلى الدور الذي مارسته قبرص ، بحكم موقعها في الحروب العربية ــ الاسرائيلية ، حيث كانت منطقة لحشد اليهود في حرب ١٩٤٨ ، وقاعدة للقوات الانكلو ــ فرنسية في حرب ١٩٥٦ » .

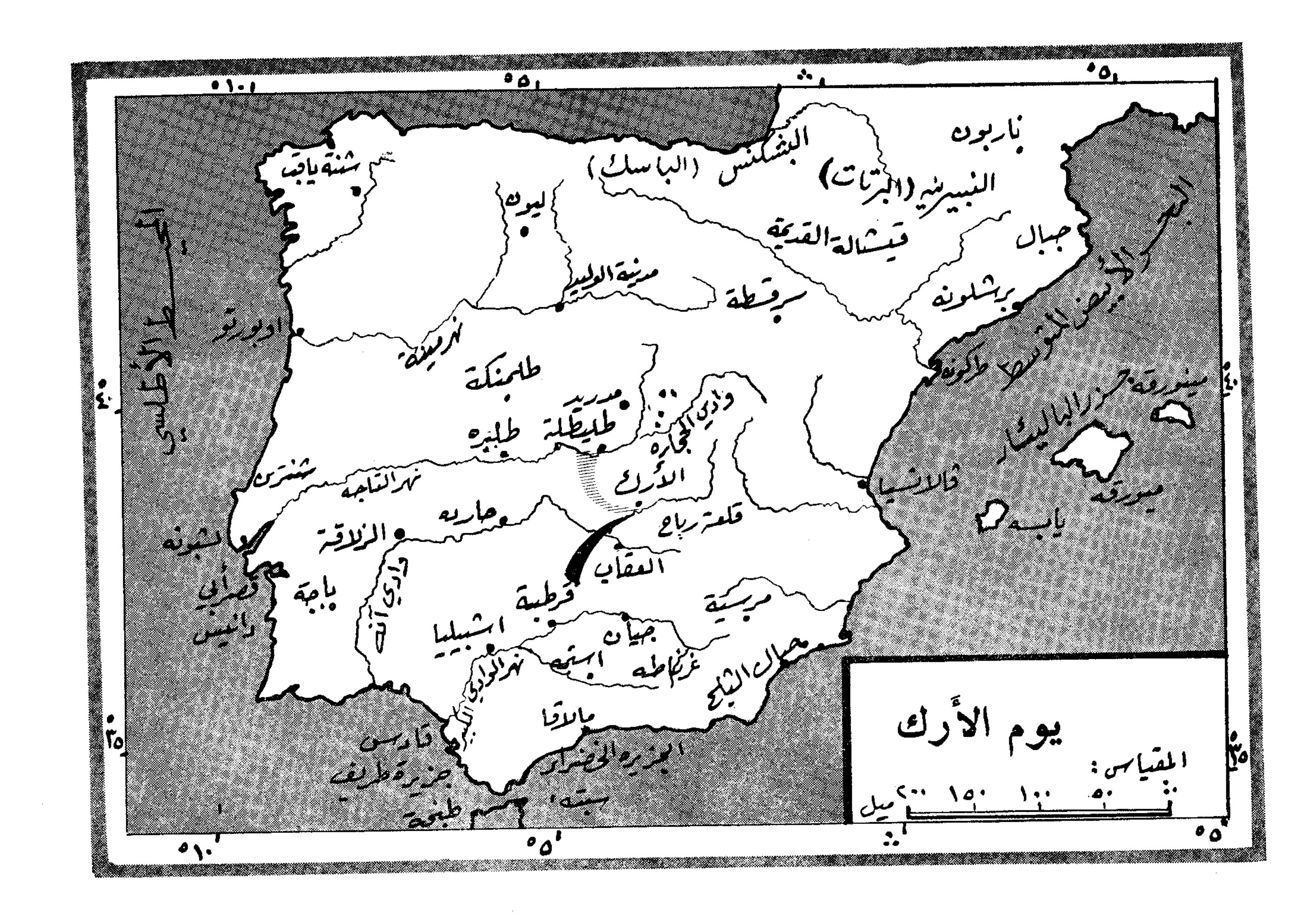
ويظهر من خلال العرض السابق أن جزيرة « قبرص » قد احتفظت بكل أهميتها عبر التاريخ ، ولكن أهمية الموقع الاستراتيجي للجزيرة لا تكمن في القيمة المجردة للجزيرة ، وإنما بسبب قربها من أهم مواقع الصراع التاريخية في مصر والشام وآسيا الصغرى (تركيا) ، فقد كانت قيمـة الجزيرة ترتفع وتنخفض تبعاً لأهمية مراحل الصراع مع العالم الاسلامي .

وهنا تظهر صحة تقويم معاوية بن أبي سفيان (أبو البحرية الاسلامية ــ إذا ما صحّ التعبير) للموقع الاستراتيجي الذي تنفرد به هذه الجزيرة . وهذا مما يبرز بدوره أهمية غزو قبرص الذي كان أول عمل بحري للمسلمين .

وتبقى الظاهرة الغريبة في تكوين هذه الجزيرة أنها أقرب إلى بلاد الشام من كل ما عداها من الأقاليم المجاورة ، ثم تأتي بعد ذلك ، وهي قريبـة من آسيا الصغرى ثم من مصر . وهي بعيدة كل البعد عن اليونان . وبالرغم من ذلك ، فقد بقيت نتوءاً متقـدماً للغرب في جوف البحر الأبيض المتوسط . وهي لا تزال جزيرة تدير ظهرهـا للشرق ، رغم أنهـا من الشرق ، وتتطلع أبداً إلى الغرب ، وهي ليست من الغرب . ولعل في ذلك مـا يشير إلى أن الحرب على قبرص ما زالت مستمرة .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة


يوم الأرك
المقياس :
٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ ميل
المحيط الأطلسي
البحر الأبيض المتوسط
ناربون
البشكنس (الباسك)
النبيرية (البرتات)
قيشالة القديمة
جبال
برشلونة
طركونة
شنت ياقب
ليون
مدينة الوليد
سرقسطة
ادوبورتو
نهر دويرة
طلمنكة
مدريد
طليطلة
طلبيرة
وادي الحجارة
الأرك
قلعة رباح
العقاب
بلنسية
جزر الباليار
منورقة
ميورقة
يابسة
شنترين
نهر التاجه
ماردة
الزلاقة
لشبونة
قصر أبي دانيس
باجة
وادي آنة
قرطبة
مرسية
اشبيلية
جيان
البيرة
غرناطة
نهر الوادي الكبير
جبال الثلج
مالاقا
الجزيرة الخضراء
قادس
جزيرة طريف
سبتة
طنجة